رواية

ليس لها فانا

ربّ يحميها

ياسمينة خضرا

نوفل

رواية

ليس لهافانا ربّ يحميها

ياسمينة خضرا

نقله من الفرنسيّة حسين قبيسي

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2018 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2018
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **Alamy Stock Photo**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **ناتالي الخوري**
طباعة: **53Dots**

ر.د.م.ك.: 978-614-438-897-6

Titre original:
Dieu n'habite pas La Havane

«عبثًا يحاول يعسوبٌ ثقيل أن يحطّ على عشبة»

(الراهب الهائم باشو، 1644-1694)

1

كان بانشيتو يقول: «من يحلم كثيرًا ينسى أن يعيش».

أمّا أنا فإنّني حلمي مجسَّدًا، ومع ذلك، فأنا أعبّ الحياة عبًّا، حتّى آخر قطرة.

أسعى دومًا إلى الجانب الإيجابي في الأشياء، لأنّه موجود لا محالة. أرى النصف المليء من الكأس، أرى ابتسامة تعلو التكشيرة، وأرى الغضب نوعًا من حماسة وإنّما مُنحرفة.

ليس على العالم أن يكون مثاليًّا... إلى حدِّ الكمال، وإنَّما يتعيّن علينا نحن أن نجد له معنًى يساعدنا على بلوغ شيءٍ من السعادة. حتمًا، ثمّة سبيل للخروج من كلّ مأزق. يكفي الإيمان بذلك. وأنا أؤمن بذلك. أرعى تفاؤلي كما أرعى أيَّ وردة في بستاني.

لقد تفتَّحتُ على الفرح ولذّة العيش مذ كنتُ في الخامسة من عمري. أمّا السنوات السابقة، فلا أذكر منها شيئًا. وإنّي لعلى يقينٍ من أنّها كانت سنوات رائعة، لأنَّ والديّ كانا رائعَيْن.

كانت أمّـي منشدةً في جوقة غناء. في ترينيداد، مسقط رأسها، كانوا يسمّونها «الحورية الصهباء». كانت بهجةً للناظرين، ببشرتها الناعمة كبشرة الطفل، وشعرها الطويل الناريّ المنسدل

حتّى مؤخرتها، وعينيها الخضراوين، البرّاقتين كزمرّدتين. عندما سمعها والدي تُغنّي أوّل مرّة، ملكتْ على قلبه وعقله فوقع أسير هواها وسرعان ما تزوّج بها. كان عرسهما يتجدّد كل مساء ممهورًا بعناقهما. يكفي أن ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر، لتتلوّن عيونهما بأنوار الشفق اللاهبة. ما أندرَ الحبّ حين يكون بهذه القوّة. كان حبّ شخصين بسيطين أدركا أنَّ الواحد منهما مخلوقٌ من أجل الآخر، فاقتصر العالم عليهما.

كان أبي خُلاسيًّا وسيمًا فارع الطول، ثمرةً عجائبية لزواج نادرًا ما يحصل، بين أحد الأرستقراطيين الليتوانيين المَنفيّين وابنة عبدٍ معتوق. ورث عن والده الأخلاق الحميدة، وعن والدته الصبر والجلَد. كان ببدلته المكوية بإتقان، وقبعته التي تكاد تلامس حاجبيه، وحذائه الملمّع على الدوام، يبدو كأمير الليل. مع أنّ مدخوله لم يكن كافيًا، فإنه لم يحرمنا يومًا من أي شيء نطلبه. كان يقول لي ولأختي الكبرى: «ليس الفقير فقير المال، وإنما الفقير هو فقير الجود والشهامة». كان يمكن له أن يخلع قميصه ويهبه لأيّ محتاج. كان يقوم في النهار بأعمال بسيطة هنا وهناك، وفي المساء يشغل وظيفة مضنية في إحدى الحانات لقاءَ أجرٍ زهيد. هذا قبل أن يعمل كسائق خاصّ. عمل أولًا كسائق لدى لاكي لوسيانو وهو صاحب فندق مطلّ على الشاطئ، ثمَّ لدى بروتوس الشهير وهو من كبار أثرياء كوبا اضطرّ إلى هجر الجزيرة غداة سقوط حكم فولغنسيو باتيستا.

عندما اندلعت الثورة الكوبية، لزِم والدي المنزل طوال أشهر. لا بداعي الخوف، بل التزامًا بمبدأ. في نظره، التضحية بالذات أشدّ ظلم يمكن أن يلمّ بالمرء. كان يقول: «أن يموت الإنسان في سبيل مثالٍ أعلى، هو كمن يهدي هذا المثال إلى الغاصبين. وقد يطالب الأيتام به، لكنَّ أحدًا لن يُعيده إليهم».

لم يكن والدي ليؤمن بالإيديولوجيات النابعة من ذهنية التبعيّة أكثر منها الناتجة عن غسيل الدماغ، كما ولا يؤمن بالثورات التي تكتفي بقلب الطغاة بدلًا من الانقلاب عليهم، ولا بذكرى الحروب العابرة التي تدفع إلى الاعتقاد بأنَّ هناك قضايا أثمن من العيش؛ هذا، قبل أيّ شيء آخر، ما كان جعله ينتفض ويثور. كان يحبّ الحياة في سرّائها وضرّائها، في أفراحها وأتراحها، في مباهجها الرائعة وفي مآتمها المحزنة. كان قادرًا على صنع حلم انطلاقًا من نفحة دخان. يحتفي بكلّ عيد وكأنّه الأخير. لقد كان واثقًا من أنَّ أهمّ إنجازاتنا، ولو نادرة، هي لحظات الفرح التي نعيشها مع مَن نحبّهم، وأنَّ كلّ ما هو خارج تلك اللحظات مجرّد تنازلاتٍ نقضيها كيفما اتّفق.

والدي هو مَن علّمني أن أجعل من اللقمة مأدبة. هو أيضًا مَن أثبت لي أنّ المرء، كيما يكون رجلًا حقيقيًّا، يجدر به ألّا يحيد عن ذاته الحقيقيّة؛ بهذا، على الأقلّ، لا يخدع أحدًا.

النصيحة الوحيدة التي أسداها لي هي: «عِش حياتك». في رأيه، كانت هذه النصيحة هي الوحيدة المعقولة.

في الخمسينيات، كان يصطحبني لنستمع معًا إلى ملوك البوليرو والغواهيرا والتشارنغا. هكذا، اكتشفتُ هذا الحسّ الراقي والذي لولاه، لكان العالم مجرّد فوضى صاخبة: الموسيقى، تلك الهبة العظيمة التي يحسد اللهُ البشرَ عليها. كان بين المغنّين المتوافدين إلى هذه الحانات الشعبية: سيليا كروز، إدواردو دافيدسون، بيريث برادو، وسائر الموسيقيين المخضرمين. في ذلك الزمن، لم تكن هافانا لتستفيق من نشوة السُّكر، وكانت الكباريهات تهتزّ على وقع التشاتشاتشا، والمامبو يسحر المحتفلين، والشوارع تعجّ بالـ«تروفادوريس» والـ«سونيروس» التائهين اللاهثين خلف الشهرة والمجد. أذكر، عند خروجي من النوادي الليلية، نساءً أنيقات

يتعتعهنّ السُّكر، يركبْنَ سياراتٍ فارهةً، وهنّ يقهقهْنَ بضحكات رنّانة. في الكازينوهات ذات الأُبّهة والمظاهر الفاخرة، كان أباطرة المال ينفقون بلا حساب. أمّا في زوايا الأزقّة الداخلية الفقيرة، بما فيها محلّة سانتوس سواريس، على عتبات البيوت وعلى الأرصفة، فسهارى مُلهَمون يقرعون موسيقاهم الخاصّة على صناديق سمك الموره. كانت هافانا فردوس أثرياء فلوريدا، و«عائلات» بلتيمور، والمهرّبين الذين لم يعد لديهم ما يبيعونه، وأيضًا «عرّابين» في طور التعافي ينشدون النقاهة والاستجمام. كانت الأوساط المخمليّة بمثابة قلاعٍ حصينة لا يدخلها سوى أصحاب الياقات البيضاء، ومع ذلك، وعلى الرغم من التمييز العنصري الذي لم يعتق حكّامنا حتّى، لم يكن محظورًا علينا، نحن الكوبيين الأفارقة، أن نحلم خارج تلك الأسوار. كان يحقّ لنا أن نتضوّر جوعًا، وإنَّما لم يكن يحقّ لنا أن ننقطع عن أصداء الآلات الموسيقيّة.

ذات مساء، وفي صالة تعجّ بالحضور، استمعتُ إلى كونشرتو «البربارو ديل ريتمو» لبيني موريه الذي لا يُضاهيه أحد.

يا للصدمة! إلتقيتُ «نبيّي»، ملهمي الأوحد، في تلك اللحظة!

كان لي من العمر عشر سنوات، أي أنَّ الحياة بطولها وعرضها ما زالت أمامي، لأجعل من الموسيقى مذهبي وأصنع من كلّ مقطوعة موسيقية قدّاسًا.

هكذا، تحوّلتُ إلى مغنٍّ.

أُدعى خوان ديل مونتي خونافا، ولي من العمر تسعة وخمسون سنة. في مهنتي، كانوا يلقّبونني بـ«دون فويغو» (سيّد النار)، هذا لأنني كنتُ أُلهِب بغنائي صالات الملاهي والحانات.

أمي علّمتني الغناء وأنا جنينٌ في أحشائها. عند ولادتي، تجاوبتْ لصراخي جنبات المستشفى. يُحكى أنَّ الممرضات كنّ

يقرصنني في أصابع قدميّ لإرغامي على البكاء، لشدّة إعجابهنّ بصوتي الرخيم. سيظنُّ المشكّكون أنّني أبالغ قليلًا، لكنّني لا أفعل الآن سوى تدوين ما كان يُحكى لي.

كان من الممكن اختصار مسيرة حياتي المهنية بمجموعة أغنياتي، الأغنيات التي أستعيرها من الآخرين وأؤدّيها بدوري، وذلك لأنّني، على الرغم من براعتي، لم أفلح في إيجاد شاعرٍ يكتب كلمات أغنياتي أو حتّى ملحّنٍ يضع موسيقاها. كنتُ أعرف كلّ الرومبا والسون الرائجة، وأُؤدّيها بإتقانٍ وبراعة، غير أنّ أحدًا لم يُتحِفْني بنص أغنية تكون خاصةً بي، وبي وحدي، وتكون مسجّلةً باسمي. بطبيعة الحال، كنت أتمنّى إصدار أغنيات تحمل صورتي على غلاف أسطوانتها، وأن أُشعِل المقاهي بأنغامي، وأن أستمع إلى موسيقاي عَرَضًا وأنا راكبٌ سيارةَ أجرة، بينما يكاد السائق المذهول يتوه عن الطريق، متسائلًا عمّا إذا كنتُ أنا المغنّي أم أنني نسخةٌ طبق الأصل عنه. غير أنَّ الأمور تسير، ويا للأسف، بحسب مشيئة مقطوعات السوناتا والتي تفلت من قبضتنا. ولو قلتُ بأنني لا أحفل بذلك، لكان قولي هذا كذبًا صريحًا. لقد ولِدتُ فنّانًا. وضعي كفنّانٍ يؤدّي دور فنّانٍ آخر، يُصيبني بإحباطٍ شديدٍ حين أنظر في المرآة وأشاهد «وجهًا وسيمًا» صبوحًا، يستحقّ أمجادًا حقيقية. مع ذلك، كنت أتمالك نفسي. حتّى ولو لم يتصدّر اسمي الملصقات الإعلانيّة، فهذا لا ينتقص شيئًا من موهبتي. حالما أمسك بالميكرو، أدخل مباشرةً في نشوة النيرفانا – ما أكونه قبل الصعود إلى المسرح وما أغدوه لحظة تخلو الصالة لم يكن يهمّني. أعود إلى منزلي منهكًا ومسرورًا بأن أغفو قبل أن يلامس رأسي الوسادة.

عرفتُ فتراتٍ من المتعة القصوى في شبابي، وكانت الصحافة تنشر بعض المقالات عنّي، فأنا مَدينٌ لأحد الصحافيين بلقبي. أدّيتُ

أغنية «هاستا سيمبري» أمام فيديل، وغنّيتُ مرّتين في ذكرى مولد غابرييل غارثيا ماركيز، وغنّيت لأثرياء سوفيات كانوا في زيارةٍ للجزيرة. كما مثّلتُ في فيلمٍ سينمائي، إلى جانب ميرتا إيبارا الرائعة، بعض المشاهد التي حُذِفت لاحقًا أثناء المونتاج، لسببٍ أجهله.

مع أنّني اليوم لا أجتذب الجمهور، فإنَّ حماستي لم تتراجع مقدار بوصةٍ واحدة. أعمل في مقهى بوينا فيستا – وكان يُسمّى سابقًا «بوينا فيستا بالاس» – العزيز على قلوب لاعبي القمار المتوافدين من سنسينّاتي، والذي خَفَّضَتْه ثورة كاسترو إلى مستوى «مقهى» إرضاءً لقضية البروليتاريا. ما زال المكان يحتفظ ببقايا مظاهر الفخامة التي كان عليها في الماضي، كالواجهة الأمامية الإمبراطورية الطِّراز المكسوّة بالرُّخام، ودرج المدخل ذي الأعمدة، والمرجة العشبيّة في فيء أشجار جوز الهند، وقاعة الاستقبال الواسعة ذات الجدران المزيّنة بالمرايا، غير أنّ أعمال الصيانة ونوعيّة الخدمات ليست اليوم بالمستوى المطلوب.

بطبيعة الحال، تغيّر الجمهور؛ بات مؤلّفًا من أنصارٍ لنجم غناء ولّى زمنه، وسوّاح مسنّين، وهواة تدخين السيجار الغليظ ومراهقات وقِحات، ولكن.. لا بأس! ما زلتُ «شفيع» الأماسي المحمومة، وطارد الهواجس القديمة. يكفي أن أتنحنح وأجلو حنجرتي حتّى ينسى الناس همومَهم ويندفعوا إلى حلبة الرقص.

يجب مشاهدتي على خشبة المسرح، بقبّعتي «الباناما» المزيّنة برباط من الأحمر القاني، وجديلة شعري، ومشيتي المتبخترة. عندما أنحني بجذعي مستندًا إلى فخذي، ضابطًا الإيقاع بطرف قدمي، وقميصي مفتوحٌ على شعيرات صدري الصَّلب والقويّ العضلات، يحدث أحيانًا للسيّدات أن يفقدْنَ الوعي.

لئن ظلّ الناس يرتادون «المقهى»، فبفضلي أنا، دون فويغو، شرارة جزر الكاراييب.

الغناء روحي وحياتي.

أنا صوتٌ. رأسي وساقاي وذراعاي وقلبي وأحشائي ما هي سوى أدواتٍ مُساعِدة.

أشعر هذا المساء، وكما في الأماسي السابقة، وكذلك اللاحقة، أنّني بكامل النشاط والثقة.

كان الطقس معتدلًا – الأمر النادر في هذا الفصل – ومغيب الشمس الخلّاب يأسر الروح. نظرًا لأسراب سيارات الأجرة التي غطّت مساحة المرأب في مقهى بوينا فيستا، من الواضح أنَّ الحشود ستتدافع بشدّة على حلبة الرقص.

أرتعش لشدّة الفرح.

بادرني البوّاب لويس: يرغب المدير في رؤيتك «بعد» الأمسية.

عادةً، يستقبلني المدير «قبل» العرض، فقط للدردشة، وذلك لشدّة ضجره بين جدران حجرته الضيّقة.

إستدرتُ حالًا ورفعتُ أحد حاجبَيّ، لأنظر مباشرةً في عينيه الهاربتين.

– هل أنتَ واثقٌ من أنّه قال «بعد» العرض وليس «قبله»؟

– صحيحٌ أنّني فقدت بعض أضراسي، أمّا أذناي فما زالتا سليمتين بالكامل.

– عادةً ينسحب ويغادر في منتصف العرض. فماذا يرغمه على البقاء والسهر هذه الليلة؟ تُرى، هل ثمّة خطبٌ ما؟

أجاب متذمّرًا وهو يتّجه صوب إحدى سيارات الأجرة:

– لا أدري، ولا يهمّني الأمر.

لويس هو البوّاب وعامل الاستقبال في مقهى بوينا فيستا منذ إثنين وعشرين عامًا. في كوبا، يضطلع بعض البوّابين أحيانًا

بمهمّات تتعدّى صلاحياتهم، ولويس خير مثالٍ على ذلك. فهو، علاوةً على عمله الاعتيادي الذي يقضي بحمل أمتعة الزبائن وفتح المظالّ لحماية رؤوسهم، يمنح نفسه صلاحيات رجال الأمن: يغربل الحشود فينتقي منهم مَن يشاء، يطرد المومسات اللواتي يأتين لاصطياد الأثرياء الأجانب المتقدّمين في السنّ، ويتجسّس أحيانًا ليكون عند حسن ظنّ ربّ العمل؛ لكنَّ متعته المفضلة هي سيارات الأجرة التي تنقل ما تيسّر من سوّاح، فهو ما إن يرى سيّارةً مقبلةً حتّى تلتمع عيناه ويسيل لعابه فيبتلعه بابتسامةٍ عريضةٍ تكاد تشطر وجهه إلى نصفين. بخطوةٍ واحدة، يقفز فوق درجات السُّلّم المؤدّي إلى الخارج، وفي اللحظة التي يفتح بها الباب، تكون يده الأخرى قد امتدّت لتطالب بالبقشيش. هنا في المقهى، يلقّبونه بـ«الساحر»: بضربٍ من الخفّة، يُخفي قطعَ النقود التي تُدَسُّ في يده، فلا يمكن لأحدٍ أن يتبيّن في أيّ جيبٍ وضعها.

بقيتُ واقفًا على أعلى درجةٍ في السُّلّم أراقب لويس. حينما رأيته يختطف قطع البيزوس بمهارةٍ تفوق مهارة البهلوان، أدركتُ أنَّ خبر «بعد العرض» ما هو إلّا إخطار كاذب.

في الساحة التي ستقام فيها الحفلة، كان كلّ شيء مُعَدًّا جاهزًا. ثُبّتت الميكروفونات في أماكنها، ونُصِبت المصابيح المسلّطة وأجهزة الإضاءة على جنبات المنصّة، وتمّ وصل الكابلات والأسلاك، وانهمك التقنيّون بإجراء التعديلات النهائية ووضع اللمسات الأخيرة على الأجهزة الصوتية.

إرتـدَتْ راقصاتي أثوابهنّ الضيّقة التي تُبرِز خطوط أردافهنّ المصقولة ورحنَ يثرثرنَ مع العازفين في غرف الملابس. ألقيت عليهنّ التحيّة واتّجهتُ مسرعًا إلى مقصورتي حيث تنتصب خزانةٌ معدنيّةٌ جُلبت من ثكنةٍ عسكريةٍ، وكنبةٌ أستلقي عليها. في الخزانة المقفلة،

قبّعتي «الباناما»، وسترتي الـ«كريستيان ديور» التي ابتاعتها لي من باريس زوجةُ دبلوماسي بلجيكي وقدّمتها لي هديّة، عربون صداقة، وقميصي الحريري الذي أهدتني إياه امرأةٌ كندية، وسروالي الفلانيليّ، وحذائي الإيطاليّ المدبّب الرأس. طبعًا، سِلَعٌ بهذه الجودة الرفيعة لا تُباع في هافانا.

أزيائي المسرحيّة، غالبًا ما أجدها مطويةً بعنايةٍ على سرير غزواتي الليلية التي تشمل عادةً سيّداتٍ شابّات في سنّ الستّين؛ يأتينَ من بلاد بعيدة، بحثًا عن غرابةٍ مشوّقةٍ في هذه الجزيرة التي تتجسّد عُصارتها الشهيّة في شخصي.

لا أُضاجعهنّ من أجل المتعة، ولا من أجل المال، وإنّما لكي أسكن ذكريات هؤلاء المغامِرات الموسِرات، تمامًا كالمتاحف أو الأبنية الأثرية. كان ذلك يُشعرني وكأنّني أسافر معهنّ إلى سائر أرجاء العالم، فأنا لم أغادر كوبا طوال حياتي، ولو لمرّةٍ واحدة.

ما إن هبط الليل وخيّم الظلام، حتّى بدأت فرقة الأوركسترا تعزف أنغام «ماريا بونيتا» لتتيح لمن يصل متأخّرًا أن يبلغ مقعده بكلّ ارتياح وفي أجواءٍ من المرح. من خلال الستارة، ألقيت نظرةً على الساحة. لقد احتلّ حوالى الستّين سائحًا المقاعد الموضوعة مباشرةً على الأرضيّة العشبيّة. النُدُل يقدّمون صواني المرطّبات وهم يرفعونها على أيديهم بتوازنٍ تامّ. في زاويةٍ شبه منعزلة، عجوز مشلول استسلم للنوم في كرسيّه المتحرّك، فاغر الفاه، وقد تدلّى منه خيط لعاب سال حتّى ذقنه. هناك، في الخلف، سيدّتان ترتديان سروال الـ«شورت» القصير، تتمايلان بجرأة، وعيونهما شاخصة في فحلٍ وسيمٍ فاحم السواد، يبدو أنه استقبل برحابة صدر نظرات الإعجاب وحركات الإغواء.

إعترتني رغبة عارمة في القفز فورًا إلى الحلبة من دون إضاعة ولو دقيقة واحدة. كان جسدي يرتعش كما لو أنّه يحاول التحرّر من

ثيابه ليركض عاريًا في الهواء الطلق، وقلبي يخفق وكأنّه يريد الخروج من قفصي الصدري. هو يخفق هكذا منذ خمس وثلاثين سنة، في كلّ مرّة أهمّ باعتلاء خشبة المسرح. تلك لحظة نشوة عارمة. أحسّ بأنني على أهبّة الاستعداد للقيام بمعجزات، وبأنني قادر على تحويل التوكسينات إلى شرر متطاير، والارتعاشات إلى نشوات خالصة. يا له من اعتزاز أن تشاهد، بفضلي، عسكريًّا متقاعدًا وقد استعاد القدرة على هزّ مفاصله الصدئة، على وقع طبول «التومبادوراس»، وأن تشاهد، وبفضلي أيضًا، الأزواج والزوجات يراقص بعضهم بعضًا كما في أولى أيام عشقهم، وأن تشاهد اللواتي يتظاهرْنَ بالعفّة ونهودهنّ بادية، يقايضن بملء إرادتهنّ التحفظّ المفرط بوصلة رقصٍ. هذه سعادتي أنا، وأمّا السعادة فلا تكتمل ما لم نتقاسمها مع الغير.

كنت أقف على حافّة الانهيار من طول الانتظار، عندما سلّطت الأنوار على الكواليس، معلنةً دخولي إلى المسرح؛ كان دخولًا مدوّيًا لحظة انطلاق أولى نوطات «اويي كومو فا».

بعد أداء بعض الأغنيات الشهيرة، اشتعلت حماسة الجمهور، وما إن بدأ رقص الرومبا حتّى امتلأت الحلبة بالروّاد الحرصين على عدم مسّ راقصاتي بأدنى إزعاج. بعضهم استعمل الأي-باد ليلتقط صورًا لي، وآخرون الهواتف والكاميرات الصغيرة. إلتحقت بي على المنصّة، شقراء ضخمة تفوقني طولًا بحوالى الشبر، ليلتقط رفيقها الصعلوك الذي يعتمر قبعّة من قش، صورةً لها برفقتي.

حوالى منتصف الليل استحال المهرجان نشوة تحاكي الرعشة. كانت الحلبة تعجّ بالأجساد المتعرّقة، والأقدام تختلط وبعضها يدوس على بعض، وقد أفلت منها إيقاع الرقص المسعور. بعض الهواة من الجنس اللطيف يُحِطْنَ بي، بنظراتهنّ الملتهبة، وأفواهنّ المشدوهة،

يلامسْنَني بأوراكهنّ المرتعشة قبل أن يرجعنَ إلى مقاعدهنّ منهَكات وقد تعتعهنَّ السُّكر، وإنّما بدون التوقّف عن التهامي بعيونهنّ.

في أواخر الأمسية، طلب منّي رجل يرتدي سروالًا قصيرًا مطبّعًا بالزهور، أن أُؤدّي له أغنية «لا نيغرا تييني طومباو» للمطربة سيليا كروز. في ما بعد، أخبرني بأنَّ وفاة هذه النجمة الكوبية التي كان يتبعها كظلّها أينما حلّت وأينما غنّت، جعلت حياته خاويةً وخالية من أيّ معنى.

في الجولة الأخيرة من السهرة، دعت راقصاتي جميع الحضور إلى الالتحاق بهنّ على المسرح، فاغتنمتُ الفرصة لأختتم الأمسية بأغنية «غوانتاناميرا» التي رافقني الجمهور في غنائها في جوقة مؤثّرة.

2

لم أكن قدْ انتهيت من تغيير ملابسي حين نقر لويس بإصبعه على ساعة يده، في إشارة إلى أنّ المدير يكاد ينفد صبره من طول الانتظار. أجريْتُ آخر لمسةٍ بالمشط على شعري، شددت جديلتي جيدًا، وبعد أن ألقيتُ نظرة خاطفة على خيالي في المرآة، مضَيْتُ إلى السُّلّم المفضي إلى الطابق الأوّل.

يقع مكتب المدير في آخر الرواق، وهو عبارة عن غرفة صغيرة متواضعة، نوافذها محميّة بقضبان، فيها طاولة طعام بسيطة مركونة إلى الجدار بجوار كرسيين من حديد. في زاوية الغرفة برّاد صغير الحجم وصندوق خشبيّ كبير مرَّ عليه الدهر. من السقف تدلَّت لمبةٌ قديمة وقد غزاها غائط البعوض.

بيدرو بارفيراس هو مدير بوينا فيستا منذ ما يقارب العشرين عامًا. يقضي وقتًا طويلًا مسمّرًا على مقعده، لا يفعل شيئًا سوى القرمشة والمضغ، حتّى غدا مفرط السمنة. له وجهٌ صَبوحٌ داكن السمرة، ذو قسمات جميلة لا تتناسب مع جسمه البدين، والذي يزداد بدانةً حتّى يبلغ أقصاها عند وركَيه. لا يُطيق بيدرو النهوض من مقعده، لأنّه قصير القامة ومقوّس الساقين. لا يجد راحته إلا إذا كان

جالسًا، فيعقد يديه على بطنه الشبيه ببطن بوذا في حالة تأمّل. على الرغم من أنّه بلغ الخمسين من عمره، فليس في سواد شَعرِه الأجعد شعرة بيضاء واحدة.

هو شخص طيّب، ثقيل الهمّة بعض الشيء، لكنّه نبيهٌ وكريم. مع أنّ لويس كان ينقل إليه أخبارًا سواء ملفّقة أو مؤكّدة عن الموظفين وسلوكيّاتهم، لم يكن يتّخذ بحقّ أيّ واحد منهم أيّ تدبير. كان يكتفي بالإصغاء بلامبالاة إلى ما يقوله الجاسوس، فيهزّ رأسه، ويعضّ شفته، ويَعِدُ باتخاذ إجراءات تأديبية لا يضعها أبدًا موضع التطبيق، ثمّ يطلب أن يُترَكَ وشأنه ليطّلع على رسائل عادية، بل تافهة كالمذكرات الإداريّة المعلّقة على جدران الرواق.

ما إن رأيتُ وجهه حتّى أدركتُ أنه على غير ما يُرام.

أشار لي بيده نحو كرسي، وعرَض عليّ زجاجة جعة، فاعتذرتُ، وبقيت واقفًا.

قلتُ له:

– تكاد تسقط أرضًا من شدّة النعاس. ألا يمكن تأجيل الأمر إلى الغد؟

– غدًا يوم آخر يا خوان.

تناول سيجارًا ودسّه بين شفتيه، ثمَّ أشعله وأدار رأسه إلى الجهة الأخرى، كي لا ينفث الدخان في وجهي.

ثمَّ قال بتمتمة غامضة:

– لكل شيء نهاية.

أجبته على الفور:

– لا أحبّ اللفَّ والدوران يا بيدرو. تكلّم في صلب الموضوع مباشرةً. تريد التحدّث في ما حدث لماركوس، أليس كذلك؟

– ماذا حدث لهذا الأحمق؟ لم أعلَم بالأمر.

– لماذا إذًا تريد أن تستبقيني بعد انتهاء العرض؟ إنّني بحاجة إلى الراحة. ألم ترَ كيف ألهبتُ الجمهور؟

– بلى، ألقيتُ نظرةً من النافذة.

– وإذًا، أين المشكلة؟

سفط بيدرو سفطةً أخيرة من سيجاره قبل أن يهرسه في منفضة السجائر، وقال:

– ملهانا العزيز هذا يا صديقي، تنتقل ملكيته قريبًا إلى آخرين. هذا المساء، وعند منتصف الليل، ستتغيّر وضعيته القانونية (قال ذلك ونظر إلى الساعة في معصمه). تشير الساعة الآن إلى الواحدة والدقيقة الواحدة والثلاثين.

– عفوًا؟

– بوينا فيستا يطوي صفحته يا خوان. إشترته سيدة من ميامي، طبقًا لقرارات الخصخصة التي اتّخذها الحزب.

شعرتُ وكأنَّ دلو ماء بارد صُبَّ على ظهري.

تقلّصت حنجرتي.

– لكنَّ بوينا فيستا ملك الدولة. إنّه إرث وطنيّ...

– نحن جميعًا ملك الدولة يا خوان. بيوتنا، مساراتنا المهنية، مشاغلنا وشواغلنا، كلابنا ونساؤنا ومومساتنا، وحتّى الحبال التي سنُشنَق بها ذات يوم. عندما تقرّر الدولة الاستغناء عنّا، فذلك حقٌّ لها.

إمتلأ بيدرو حنَقًا. أغاظته أسئلتي. لكنَّ ما أغضبه حقًّا كان كلامه هو. مرَّر أصابع يده المرتعشة بعصبية في شعره وقال: أنا أيضًا مصدوم، مثلك تمامًا يا خوان، لكن، ليس لذلك أدنى أهمية.

– أيّ نوع من البشر هم المالكون الجدد؟

– لم ألتقِ بهم، ولا أدري ما إذا كانوا سوف يحتفظون ببعض الموظفين، أم أنهم سيصرفوننا جميعًا. تنوي المالكة المحظوظة أن

تجري أعمال ترميم في الملهى؛ تبعًا لذلك، ستُرجأ أمسيات الغناء إلى أجل غير مسمّى.

– إلى متى ستدوم هذه الأشغال؟

– ربما ستة أشهر، وربما سنة كاملة.

أدركتُ عندئذٍ إلى أين يريد الوصول، وانهرت على مقعدي:

– وأنا؟ أين أغنّي طوال هذه الأشهر الستة؟

– لن تغنّي هنا، على أية حال.

– ولكن، يا بيدرو، أنتَ تعلَم، أموت ما لم أغنِّ.

– كلّ واحدٍ منّا سيموت ذات يوم.

– لا يمكن أن يحصل ذلك معي. أنا دون فويغو، أنا مُلهِب الصالات.

– من فضلك يا خوان، تخلّص من هذه الـ«دون»، فهي ضدّ الثورة.

تملّكتني الرغبة في أن أصرخ في أذنه أنّ الثورة لئن كانت قادرة على صُنع الأفكار، فهي غير قادرة على تطهير جيناتنا من الموروث الذي تحمله بشريّتنا منذ آلاف السنين، وأنّ الـ«دون» التي أحملها ليست مرجعيةً إقطاعية تخريبية، وإنما هي لقب فنّيّ نبيل يحمله من يستحقه. كان بودّي أن أقذف كلّ ذلك في وجهه، ومع ذلك كانت مسألة أعمال الترميم الطويلة تُحزنني وتُغضِبني أكثر من أيّ كلامٍ تعنيفيّ وتأديبيّ.

– مهلًا، مهلًا يا بيدرو. يبدو أنك لا تفهم المسألة حقّ الفهم. أنتَ تُخبِرني الآن بأنني لن أعتلي خشبة المسرح طوال ستة أشهر. لن أُطيقَ ذلك أبدًا. ستة أشهر هي بالنسبة إليّ... ألف سنة!

– قلت لك إمّا ستة أشهر وإمّا سنة. أو ربما أكثر. لم أقل إنّ المالكين الجدد قد يشغّلونك حين تنتهي أعمال الترميم. فالملهى

سيتحوّل إلى ملكية خاصة والفريق الجديد سوف يجلب أمتعته وأغراضه الخاصة ويستقدم فريقه الاستعراضيّ الخاصّ. تتداول بعض الألسنة أنّ بوينا فيستا سيخصّص للسوّاح الشباب ولأبناء الطبقة السياسية الحاكمة (النومنكلاتورا) المدلّلين. وفي المساء تعزف أنغام الريغيه تون.

– ريغيه تون في بوينا فيستا؟ (كدتُ أختنق غيظًا). ريغيه تون؟ ضجيج البلطجية هذا، في ملهانا نحن؟!

– نعم يا عزيزي، الريغيه تون في الـ«بوينا فيستا».

– لا أصدّق ما أسمع.

– وأنا لا أصدّق أنَّ هناك ملائكة وفردوس، لكنَّ هذا لا يوقف رنين أجراس الكنائس.

كنت في ذروة غضبي، ولم أعرف ما إن كان ذلك بسبب خصخصة الملهى أم بسبب حلول الريغيه تون محلّ الموسيقى الراقية التي صنعت مجد الكوبيين وفخرهم.

هززتُ رأسي مصعوقًا بهذه الفضيحة.

– لا يحقّ لأحد أن يستبدل الرومبا بصخب لقيطٍ سافل.

– يا خوان، لكلّ جيل الحق في اختيار الغناء الذي يناسبه. لا مفرّ من التقدّم.

– يا للعار، يا للفضيحة. كوبا هي موطن الرومبا والسون. تلك مرجعيتنا وهويتنا، وهي أيضًا امتيازنا الثقافي في العالم.

بدا التعب على بيدرو. أمسك ذقنه بين إبهامه وسبّابته وأخذ يحملق بي بعينين حمراوين. سألته:

– هل حدَّثتَ المرأة عني؟

– لن تبقيك في وظيفتك. ولا أنا على أية حال.

– أنت موظّف بالملاك. سيجدون لك وظيفة أخرى وبسرعة.

– أنا آسف يا خوان. ليست نهاية العالم. لديك راتب شهري تؤمّنه الدولة. لديك بطاقة تموين، ومتَّسَع من الوقت لتجد عملًا في كباريه أو في فندق.

– لكنّ الأمر يتعلّق ببوينا فيستا، هذا المكان الذي لا يمكن سلخه عن هافانا. لا يحق لنا أن نسلّمه للانتهازيين. أنتَ المدير، وعليكَ أن تَحُول دون عملية الانتقال المخالفة للطبيعة هذه، وأن تأمر صُنّاع القرار بالعودة عن غيّهم.

خبط بيدرو بقبضته على الطاولة خبطةً قوية، فسقطت منفضة السجائر على الأرض وتطايرت أشلاءً.

– كفى!

تحوّلت سحنته إلى مزيج من الرمادي البنفسجي، وانكمشت شفتاه في تكشيرة وحشية.

– لا أريد أن يُملى عليَّ ما يجب فعله، وما هو الجيّد، وما هو السيّئ. أتمتّع بحسّ سليم. ولي أنا وحدي، أن أؤمن أو أكفر بالقضاء والقدر. حين أشكو من ضيق ما، فلا أحد في العالم يشاركني معاناتي.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يطلق فيها بيدرو ردّ فعل شبيه في حضوري.

تمالك نفسه وقال بصوتٍ مكسور:

– لا نفعَ البتّةَ من الغضب. شعوري بالفضيحة والخزيّ عارمٌ كشعورك. يجسّد المقهى أكثر من عشرين عامًا من حياتي، لكنّه ليس الحياة. نعيش في بلد الـ«نفّذ ثمّ اعترض».

إلتمع الدمعُ في عينيه. شدّ قبضته ليكبت شهقةً كادت تفلت منه. أحزنني غضبه. أدركتُ أنّ إصراري لم يفعل سوى إضرام شعورٍ كان يحاول كبتَه.

– بيدرو، أعتذر منك إن كنتُ أسأتُ إليك.

– الاعتذارُ حكر على من يتدخّل في شؤون غيره. تأخّر الوقت. عليّ أن أعود إلى منزلي لأنام.

وجدت نفسي، من شدّة ذهولي، أقول همسًا:

– كان بإمكانك أن تُخطِرَني بذلك قبل الآن.

– لكن لم يكن ذلك ليُجدي نفعًا على الإطلاق، يا خوان. على الأقل، هذا المساء، ختمتَ الحفلة بنجاح منقطع النظير.

قلتُ متذمرًا وأنا أنهض:

– وأيّ ختام! لقد انسدلت الستارة حقًا!

جَرَرْتُ خُطايَ إلى الحمّام وغسلتُ وجهي. كانت الأرض تدور بي، فتمسّكتُ بحافّة المغسلة حتّى لا أنهار. حبّذا لو انتظر بيدرو إلى الغد لكي يبلغني بهذا الخبر المشؤوم. ماذا عسايَ أفعل الآن لأستطيع أن أنام؟

هبطتُ الدرج كمن يهبط من غمامة. إنها المرّة الأولى، منذ خمس وثلاثين سنة، التي أواجه فيها وضعًا عسيرًا كهذا. وحيث أن قناعتي راسخة بأنني جئتُ إلى هذا العالم لأموت على خشبة المسرح، فإنه لم يخطر لي قَط أني سأُحالُ يومًا ما إلى التقاعد، ولم تراودني على الإطلاق فكرة صرفي من العمل.

قصّة الخصخصة هذه بدت لي عجيبةً غريبةً مثل المستقبل الذي يتربّص بي. لا أعرف كيف أفهمها ولا كيف أتعامل معها.

كان لويس منهارًا على إحدى درجات السُّلّم. لم يرفع رأسه حتّى حينما مررت بالقرب منه.

كان ابن عمي فيليكس ينتظرني عند منعطف الشارع، في سيارته الـ«دودج» من طراز العام 1954 التي يستخدمها كسيارة أجرة وهو يحاول جاهدًا أن يُفهِم مجموعةً من السوّاح بأنه لا يستطيع

نقلهم، كونه خارج دوام العمل، لكنّ عجزه عن قول ذلك بالإنكليزية عقّد المهمة.

تنفّس الصعداء حين رآني وصاح:

– النجدة يا خوان. قلْ لهؤلاء السيدات إني لستُ متفرّغًا للعمل الآن. هنّ يُرِدْنَ أن أنقلهنّ إلى كوخيمار لزيارة منزل إرنست هيمنغواي، ويعتقِدْنَ أنّني أتمنّع طمعًا بسعرٍ أعلى.

كنَّ ثلاث نسوة برفقة رجل طويل هزيل كعصا البلياردو. عرَفْنَني ما إن لمحْنَني، واندفعن صوبي. من دون استئذاني، التصقن بي من الجانبين لالتقاط صورة برفقتي. إعترفت لي إحداهنّ، بلكنة إسكندنافية، بأنني كنت مذهلًا. أقصرهنّ قامةً اندسّت تحت إبطي وتضاءلت كطفلة، قائلةً: «هذه الصورة، سأنشرها على فيسبوك، وأثير بها غيرة الكثيرات». أمطرتنا الكاميرا بالفلاشات التي أومضت في الليل كشرارات ساحرة. حاولتُ أن أرسم على وجهي ابتسامتي الفاتنة واثقًا من أنَّ نظرتي لن تجاريها في الصورة.

بادرني الرجل:

– نعدك بالاستماع إلى غنائك في الأسبوع المقبل فور عودتنا من سانتياغو كوبا.

قلت في نفسي: الأسبوع المقبل؟ وفق أيّ توقيت؟ وعلى أيّ جدول؟

عانقتني النسوة وقبلنني على وجنتيّ وكان للقبلات صوتٌ دوّى وسْطَ هدوء الليل. فسّرتُ للمجموعة أنّ التاكسي كان بانتظاري أنا، فاقتنعْوا وهرعوا في اتجاه سيارة تاكسي أخرى كانت قد اصطفّت على الرصيف المقابل.

علّق فيليكس متذاكيًا:

– إستغرقتَ وقتًا طويلًا، من شغلَك حتّى هذه الساعة؟ أإيطالية لاهبة أم نروجية شقراء مكوّرة كحزمة تبن؟

– عُد إلى بيتك با فيليكس، أرغب في المشي قليلًا.

– ما بالك؟ الساعة تناهز الثانية فجرًا!

– أعرف. لديّ ساعة.

إنحنى فيليكس صوبي مقطّب الجبين:

– هل تعاني من متاعب يا خوان؟

– ليس بالأمر المهمّ.

– أمتأكّدٌ أنتَ؟

– لا شيء أكيد في الحياة يا ابن عمّي، وإلّا فلا جدوى من الاستمرار في العيش.

كدت لا أعرف صوتي. لا أذكر مرّة أني كنتُ بهذا البؤس، فأنا لا أجيد التعامل مع الأوقات العصيبة. أجهل هذا النوع من المشقّات. طوال حياتي لم أفعل سوى تقبّل التصفيق والتربيت على الكتف تشجيعًا وثناءً.

– ألا تريد أن تقول لي ما بك؟

لم يسبق لابن عمي أيضًا أن رآني في حالة مزرية كهذه.

– لا تقلق يا فيليكس. سأروّح عن نفسي قليلًا في نزهة على شاطئ البحر قبل أن أعود إلى كازا بلانكا.

– العبّارة مغلقَة في هذه الساعة. فكيف لك باجتياز الجون؟

– سأسير على وجه الماء.

عند الرصيف المقابل، كانت النسوةُ يلوّحن لي بحماس، قبل أن يركبن سيارة عتيقة أقلعت بقرقعة صمامات متهالكة. ولم يكن للصمت الذي ران بعد ذلك سوى أنه زادني حزنًا على حزن.

إجتزتُ الطريق وانعطفتُ في شارع جانبيّ.

صاح بي فيليكس:

– مهلًا يا خوان، أمتأكدٌ أنك بخير؟

همهمْتُ متذمّرًا، من دون أن ألتفت إليه:

– طبعًا! بما أنّني ما زلت قادرًا على الوقوف.

كانت سحابة كبيرة تبتلع القمر. عند طرف الرصيف، كان مصباح الطريق يخال نفسه قديسًا، وقد غزا الذباب هالة النور المحيطة به. عائلةٌ تتسامر على عتبة منزلها؛ الرجال في السراويل والقمصان الداخلية، والنساء في مقاعد من قماش. بطبيعة الحال، الحياة مستمرة، فالناس والأشياء ما زالت هي هي، أمّا أنا فقد أصبحت فجأةً غريبًا عن نفسي وغريبًا عن كلّ ما يدور حولي.

كان فندق ناسيونال يعجّ بالناس. لعلّه عرسٌ، أو مؤتمر يختتم حول بار المشروبات. ثمّة سيارات تقلّ الضيوف عند خروجهم. كنتُ أسمع أبواب السيّارات تصفق وأناسًا يتنادون.

إجتزتُ الشارع حتّى وصلتُ إلى إشارة المرور، وعدتُ إلى الدرابزين الطويل قبالة البحر. مجموعة صغيرة من السهارى يثرثرون هنا وهناك ويتبادلون الأنخاب. أيام السبت يتواعد شبان المدينة جميعًا في هذا المكان. يجلسون على السور مولين ظهورَهم للجزيرة. تسرح أبصارهم في الأفق، كما تنسرح أحلامهم في ما وراء البحر. عندما يشتدّ اصطخاب الموج، يكفّون عن الانجراف في أفكارهم، ويشرَعون بمعاقرة الخمرة، ليستمدّوا منها بعض الشجاعة، فيلتفتون أخيرًا إلى صديقاتهم اللواتي نال منهنّ يأس الضجر.

ذلك المساء، كانت حفنة قليلة من عشّاق الليل تصرّ على مجابهة الأمواج العاتية، ثملة إلى حدّ نسيان العودة إلى المنزل. شيء ما في هدير الموج يبعث على الخمول. عادةً، أُحبّ ضجيج فقش

الموج وتكسّره على الإسمنت، والرغوة المتفجّرة من بين الصخور. كلّ شيء في نظري موسيقى بموسيقى، حتّى معزوفة حذائي المتقطّعة وأنا أسير على الرصيف. لا أدري أيّة سمفونية ستمتلك كياني هذا المساء كصرخة مدوّية. أشعر أنّ هناك من يريد إلغائي ونفيي من هذا العالم.

3

لم يغمض لي جفن طوال الليل.

عند الصباح، ومنذ اللحظات الأولى، وبحجّة أنني أريد استرجاع أمتعتي وأغراضي الشخصية، قررتُ العودة إلى بوينا فيستا. في الواقع، كنت أُغذّي فيَّ الأمل بأن تكون قصة الخصخصة تلك مجرّد إشاعة مغرضة لا أكثر، وبأنّ أية معاملة رسمية لم توقَّع بعدُ. في الطريق، تصوّرتُ بيدرو ولويس واقفين على درج الملهى يترقّبان وصولي وقد غطّيا فميهما بيديهما لإخفاء الضحكة. تخيّلتهما يشيران إليّ بإصبعهما، ويقولان: «إنطلت الحيلة عليك، أليس كذلك؟ جعلناك تُمضي الليل بالأرق والقلق». ثمّ تخيّلتُ نفسي، وقد زال الهمّ عنّي وتنفستُ الصعَداء، أشكرهما على مزحتهما «الثقيلة» هذه لأنّها ملأتني بفرح يفوق أضعافًا مضاعفة الفرح الذي أتقاسمه مع جمهوري. لكنّ أحدًا لم يكن واقفًا على درج بوينا فيستا. أُنزل الحاجز لمنع الدخول إلى المرأب، وأُقيم حارسٌ جديد في المرقب. وقفَت عند المدخل الرئيسي شاحنتان، وكان الحمّالون منهمكين بنقل الأمتعة والأثاث من كلّ صوب.

بات البهو ملعبًا للأوراق المتطايرة هنا وهناك، ولا يسمع فيه سوى أزيز قطع الأثاث التي تُزاح من أماكنها. يا للمشهد الحزين! وكأنّما يتمّ إخلاء مبنى داهمه الخطر. كان العمّال يصعدون ويهبطون الأدراج، بقاماتهم المنحنية تحت أحمالهم الثقيلة، فيصطدم أحيانًا أحدهم بالآخر، ثمَّ يواصلون سيرهم من دون اعتذار، فمن شدّة التعب، نسوا كلّ أصول اللباقة.

طلبتُ رؤية المدير.

– المدير الجديد لم يصل بعد والمدير القديم على الترّاس.

هكذا أجابتني سيّدة في مقتبل العمر، شاحبة الوجه، كانت تُشرِف على سير العمليات، وفي يدها ملفّ كرتوني مفتوح على أوراق مطبوعة بالآلة الكاتبة.

تقع الترّاس عند طرف مربّع عشبي واسع. بيدرو مكوّم على كرسي من خيزران، وساقه ممدودة على الدرابزين، ونظره سارح في الأفق. كان حزينًا إلى حدّ يرقّ له قلب أعنف الجلّادين. كلّ كيانه يطالب بالضربة القاضية. في كوبا، وبالنسبة إلى موظّف أمضى وقتًا طويلًا وهو يعيش على أمجاده، الصحو المفاجىء من طعنة في الظهر أسوأ من الموت البطيء. إستيقظ بيدرو مبكّرًا، على غير عادته، ولم أكن بحاجة لجسّ نبضه كي أعرف أنّ قلبه لا ينبض إلّا شكلًا.

إلتفتَ باتّجاه وقع خُطواتي، وقد بدا وجهه شبيهًا بقناع من طين يذكّر بأقنعة الأزتيك.

ما إن لمحني حتّى حاول ركل زجاجات الجعة المكدّسة تحت مقعده نحو الهوّة، لكنّ حالةَ السُكْر كانت باديةً عليه.

حيَّيْتُه وجلستُ على كرسيّ إلى جانبه.

رحنا نتأمّل البحر؛ بيدرو رازحًا تحت ثقل كرشه الكبير، وأنا متظاهرًا باللامبالاة.

إنتظرتُ أن يخبرني بشيء ما، أو أن تفلت منه تنهيدة، أو أن تبدر منه حركةٌ ما. لكنّه بقي غارقًا في ثنايا اكتنازات بطنه. إمتدت ذراعه المستندة إلى مرفق المقعد حتّى لامست الأرض، بحثًا هنا وهناك عن زجاجة جعة، ثمَّ ما لبثت أن ارتخت خائبة لم تجد ضالّتها.

– نهار جميل، أليس كذلك؟

إضطرب المدير السابق، وردّ:

– هه؟

كرّرتُ:

– قلتُ بأنّه نهار جميل.

فهمهم:

– إي، نعم.

شجعّني ردّه على المضيّ في الكلام، فقلت:

– تُرى، لمَن يتجمّل؟

– ما رأيك أنتَ؟

تململ في مكانه مرارًا ومسح وجهه بيده، وقد بدا مستاءً من حضوري.

قلت له:

– جئت لآخذ أغراضي.

– لستَ مضطرًا لأن تجد تبريرًا لمجيئك. أنتَ حرّ في الذهاب إلى حيث تشاء. أمّا أغراضك فقد سلّمها لويس إلى ابن عمّك فيليكس.

ساد الصمت من جديد.

إذ بدأ بيدرو يذعن للنعاس، عاجلته بالسؤال:

– هل استطعتَ أن تنام؟

– نمتُ كالقتيل.

– أمّا أنا فبقيتُ أُحصي النجوم حتّى انبلج الفجر، ولم تفُتْني نجمة واحدة.

زفَرَ زفرةً ذكّرتني بانثقاب عجلة باص المدرسة، قبل أن يرمقني بنظرة ازدراء:

– ماذا تريد يا خوان؟ قبل خمس دقائق، كنتُ في حال جيّدة. لماذا جئتَ تعكّر عليّ صفوي؟

– لأنّني لا أصدّق أنّ أجمل صفحة من تعاوننا قد طُوِيَت. وبصراحة، ظلّ الأمل بأن أجدك في مكتبك يراودني حتّى هذا الصباح.

أجابني بلسان مرتَخ:

– وأين أنا الآن، يا خوان ديل مونتي؟.. على ترّاس قبالة الأفق، أعاقر الخمرة بهدوء، ولا أزعج أحدًا. هل تراني أشتكي أنا؟

– لئن كنّا لا نشتكي، فذلك لا يعني أنّنا لا نتألّم.

– لكنّني لست أتألّم.

– جميعنا نتألّم عندما نخسر عملنا. والمدير، متى واجه المشاكل مع الإدارة، لا يتوتّر ولا يبارح مكانه، بل يحلّها عبر الهاتف.

قرّر بيدرو، أخيرًا، زحزحة جثّته، ليصبح في مواجهتي تمامًا. كانت عيناه حمراوين على نحوٍ يثير القلق، وراحت فتحتا أنفه ترتجفان وهو يقول:

– هل تعني بذلك أنني من رجال النظام أو الحزب؟

– كلا.

– إذًا، كفّ عن مضايقتي بانتقاداتك الملتوية.

– لا أريد إزعاجك. أحاول فقط أن أشرح... أنَّ حياتك لم تنتهِ، فقط لأنّهم قرّروا التخلّي عن الـ«بوينا فيستا». ألم تعُدْ ترغب في أن تكون..؟

قاطعني برذاذ من اللعاب:

– ... أكون ماذا؟ لم أعُد راغبًا في أن أكون حتّى.

ثمَّ أضاف بمرارة:

– ومَن أنا، بالضبط؟ بالأمس كنتُ مديرًا واليوم أنا مدير «سابق». وغدًا، ماذا أكون؟ هه؟ من أكون غدًا؟

– ستكون بيدرو بارفيراس.

– ومن هو بيدرو بارفيراس هذا؟ إسمع يا خوان، أؤكّد لك، لم تعُد لديّ رغبة في شيء، باستثناء الرغبة في الشرب والتزام الصمت.

رفعتُ يديَّ، دليل الإذعان والتسليم بما يقول.

نادى بيدرو نادلًا من بعيد، وطلب منه إحضار المزيد من الجعة.

بقينا صامتَيْن حتّى عودة النادل. بدا الصمت المخيّم وكأنّه يعزلنا عن بقية العالَم. كان الخدَرُ قد بدأ يدبّ في أصابع بيدرو. لم يقوَ على نزع سدّادة الزجاجة فسارعتُ إلى مساعدته. بعد عدّة جرعات، سألته:

– إلى أين ينقلونك؟

– أودّ أن أتقاعد مبكّرًا.

– وماذا ستفعل عندئذٍ؟

– سأعيش حياتي، أو أقلّه ما بقي منها، أو على وجه التحديد، ما تركوا لي منها. هل تستوعب أن تُمضي سنوات وسنوات هانئًا كالطفل في مقعدك، بينما كلّ الأمور تُحلّ وتُربط من وراء ظهرك؟

لم أُصدّق حرفًا ممّا قاله؛ ففي كوبا لا يمكن لأحدٍ أن يقرر مصيره بنفسه. التقاعد المبكّر لا وجود له في القاموس الإداري، فإمّا أن تُعهَدَ إليه وظيفة أخرى في منصب آخر، وإمّا أن يُهمَل ويُرمى في غياهب النسيان. أغلب ظنّي أنّ بيدرو ما زال مُربحًا للنظام، ما شجّعني لأنعِش ذاكرته، أملًا في إعادته إلى رشده:

– كنتَ مديرًا يا بيدرو. تلتقي كبار الشخصيات وتُدعى إلى الحفلات الرسمية.

بحركة عصبية هوجاء كادت تصيبني بوابل من الجعة المتطايرة، ردّ سريعًا:

– كلام للسذّج...! عندما تقضي حياتك كلها في سجن، سواء كنت المدير أو السجّان، فلستَ إلّا محكومًا آخر، في نظر الواقف خلف القضبان.

– مع ذلك، ما زلت تملك دفتر عناونينك الخاصّ. لديك علاقات متينة وأنتَ أفضل مدير كباريه.

– كم واحدًا عرفتَ خلال حياتك المهنية؟

أمسكتُ بيده التي بدت وكأنّها تسيل، لكثرة تعرّقها. لكنّه سحبها من يدي بحركة متوتّرة مباغتة.

– يجب ألّا تستسلم يا بيدرو. جِد لنا خيمة أخرى، وسأجعلها تكتظّ بالمتفرّجين. أنتَ وأنا سنكون فريقًا ناجحًا جدًّا. سنُثبِت لهم أننا ما زلنا مفعمين بالطاقة ونأبى الاهتراء.

– لا يتوقف الأمر عليّ.

– وما أدراك؟ خبرتك كمدير وكفاءتك هما الناطقتان باسمك. ما عليكَ إلّا أن تطلب. طالبْ بفندق؛ فندق جميل مُطِلّ على البحر، أمامه مرجةٌ خضراء، وأشجار جوز الهند ومصطبات كبُسْط الريح، وفي قاعة الاستقبال شبانٌ بربطات عنق أنيقة، وصالة فسيحة للحفلات الموسيقية. أنبشْ لنا ذلك مهما كلّف الأمر، وسأجلب لك سوّاحًا من أقطار العالم الأربعة. سنحطّم الأرقام القياسيّة يا بيدرو. أعاهدك على ذلك.

– لا أريد أن أحطّم شيئًا. كلّ ما أريده هو أن أعود إلى بيتي وملاقاة أولادي وزوجتي. أدركتُ متأخرًا أن الفرصة فاتتني، ما قلّص

مغامرة حياتي إلى مهنة بيروقراطية حجّرتها الرتابة. أرغب في أن أحشر عائلتي الصغيرة داخل سيارتي العتيقة، وأجوب أنحاء البلاد. أريد أن أرى بلادًا جديدة، أن ألتقي أناسًا جدُدًا، وأن أكتشف أنحاء هذه الجزيرة التي ولدتُ فيها، والتي لا أعرف منها إلّا النزر اليسير.

– سيّارتك العتيقة لن تفي بالغرض. ممرّاتنا البالية ستقضي على نوابضها الدارئة قبل أن تتمكّن أنتَ من إعادة ملء خزّانها بالوقود.

– لا يهمّني. سأذهب سيرًا على القدمين إذا اقتضى الأمر. المهم أنني سأذهب. والآن، إذا سمحتَ، انصرف ودعني أحتسي خمرتي بسلام. إن تجرجرتُ إلى هنا، فطلبًا للعزلة.

لدى خروجي من الـ«بوينا فيستا»، وعيت مدى خطورة ورطتي.

بينما كنتُ أبتعد عن المقهى قلت في نفسي: لا تلتفت إلى الوراء.

سرتُ محاولًا إبقاء رأسي مستقيمًا. إنّما قبل أن أجتاز نصف الجادة، لانت عزيمتي والتفتُّ ورائي... تبًّا! لم تَعُد «خيمتي» سوى حزن عظيم منتصبٍ كشاهدةٍ، وسط أشجار جوز الهند.

ما زلت أذكر فيلمًا سينمائيًّا بالأبيض والأسود يروي قصة سجين أُطلِق سراحُه بعد عقود قضاها في الزنزانة. لم يعرف هذا المسكين أين يذهب أو يتّجه بعدما استعاد أغراضه التي صودِرت يوم دخوله السجن. لقد استعاد بضعة قطع من النقود التي لم تعُد متداولة، وحزمة مفاتيحه التي لم تعد صالحة للاستعمال لأنّ العمارة التي كان يسكن فيها هُدِمَت منذ زمن، ومحفظته حيث اصفرّت بعض الصور القديمة بذكرياتها الباهتة، ورسالة حب كان قد كتبها على عجل ولم يرسلها أبدًا. أذكر أنّ قلبي انفطر حزنًا على هذا المسكين. أذكر أنني

بكيتُ في صالة العرض المظلمة... أنا اليوم هذا السجين بالذات، يُسلَّم دفعةً واحدةً إلى خوان ديل مونتي خونافا بعد خمسة وثلاثين عامًا من الـ«دون فويغو». أعاود اكتشاف هافانا التي لطالما أبقتها لياليّ الصاخبة بعيدة عني. هافانا الذابلة كصور محفظة قديمة بقيتْ مقفلة طوال عقود من الزمن. الشوارع هي هي، إلّا أنني لا أعرف إلى أين تؤدّي. تعجّ بالناس أنفسهم لكن لا بالوجوه نفسها. لم تعد الأرصفة كما كانت مهيّأةً للتنزّه والتسكّع، فالفجوات فيها غدت حفرًا واسعة، وأمّا البيوت الجميلة فقد نسيت لون طلائها الأصليّ.

4

في كوبا مؤسسات للدولة تهتم بالفنانين، فتجد لهم ما يُرضي رغباتهم لموسم أو موسمين، وتقدّم أحيانًا فرصًا حقيقية لمن يجيد اقتناصها، وتراقبهم عن كثب حين يقدّمون أعمالهم الفنية خارج البلاد، وترشحهم للمشاركة في بعض مهرجانات المناسبات الوطنية. ليست حقًا معونة مالية، لكنّها تكاد تعادلها.

منذ زمن لم تطأ قدمي إحدى المؤسسات التي كنتُ قد تسجّلتُ فيها، والتي تحمل اسم ادولفو غوزمان. في ذهني، لا يمكن أن أنتمي إلى هذه الفئة من الفنّانين الذين يقفون كلّ صباح في طابور أمام شبّاك المعونات أملًا في كسب وصلة عابرة يؤدّونها في عرض سريع، على مسرح مهيّئٍ على عجل، ثمَّ يعودون في اليوم التالي لاستجداء فرصة أخرى من موظّف ثانوي أو مأمور بسيط، لأنّهم فوّتوا الفرصة الذهبية البارحة. فأنا دون فويغو المتربّع على عرش أمجادي، صولجاني هو الميكرو، ورأسي مرصّعٌ بالنجوم، أجاور الآلهة، ولا حاجة لي بصغار زعماء البشر. كان وضعي كنجم في المقهى يُغنيني عن معاناة طلب المعونة من المؤسسات الإدارية. لم أكن أتصوّر نفسي قطّ مرغَمًا على دخول تلك المؤسسات الموحشة التي تشوبها

العفونات المعتمة وهمّ وغمّ المهرّجين الهائمين على وجوههم. بقلبٍ مثقَلٍ التحقتُ بجماعات متسوّلي العمل القابعين بصمت في صالات الانتظار. بعض الوجوه كانت مألوفةً لديّ لكنني كنتُ عاجزًا عن استحضار أسمائها.

أخذتُ مكانًا على طرف مقعد، وحاولت الظهور بمظهر إنسانٍ يحترم نفسه.

المكان يبعث على الكآبة. قد يظنّ المرء نفسه في قسم المفقودات.

أخيرًا، خرج رجل من مكتب الموظف الإداري، وعلى وجهه علامات الإحباط. إجتاز القاعة ساخطًا وخرج مسرعًا إلى الشارع فاصطدم بخادمة وكاد أن يسقطها أرضًا.

بعد انتظار دام ساعة كاملة، جاء دوري. الموظف الإداري شاب أشقر، شعره قصير مقصوص على طريقة البحّارة. يبدو كقائد كشّاف، ولكنّه يحسب نفسه زعيمًا. إستقبلني من دون أيّ اكتراث، كما قد يفعل الذين يجعلون من واجب خدمة الناس مِنّةً يتفضّلون بها عليهم. على مكتبه بعض الملفات المبعثرة، وإلى جانبه هاتف بقيت سمّاعته مرفوعة، وآلة كاتبة قديمة متداعية. هناك، نافذة مفتوحة تطِلّ على فِناء صغير حيث يلاعب صعلوكان أحد الجراء. على جدران الغرفة عُلِّقت صور لمشاهير قدامى تعلو وجوههم الابتسامة، إلّا أن إطار الصورة التلِف يدلّ على قلّة الاهتمام التي يحظون بها اليوم.

قال لي الموظف الشاب:

– تفضّل بالجلوس.

فأطعتُه وجلست.

– بماذا أستطيع أن أخدمك؟

– أنا...

قاطعني رافعًا يده، وتناول باليد الأخرى هاتفه النقّال. عرف المتحدّث من الاسم الذي ظهر على الشاشة، فاستدار بكرسيّه وأولاني ظهره. يبدو أنّ المتكلّم من الشخصيات المهمّة. برز ذلك من خلال العبارات التي كان يرصفها الموظّف الواحدة تلو الأخرى «نعم، سيدي، سمعًا وطاعةً، سيدي... حاضر، إعتبر ذلك ناجزًا وجاهزًا، سيدي». عندما انتهت المكالمة، أمضى دقيقتين يمسح العرق المتصبب عن جبينه، قبل أن يستدير ثانيةً ويوليني وجهه المتعَب.

أخذ يهمهم غاضبًا:

– تافه مزعج، يحسب نفسه محور العالم.

لم يوجّه الكلام إليّ. كان يفكّر بصوت عالٍ. كان فكّه يطحن طحنًا كلّ كلمة يقولها. بعدما أحاط رأسه بيديه للحظة، وهدأ تنفّسه بعض الشيء، فطِن لوجودي، وانتبه أنني ما زلت جالسًا هناك، فقال بلهجة تكاد تكون عدائيةً:

– وأنت، ما مشكلتك يا سيّد...؟

– خوان ديل مونتي خوفانا.

لم يعنِ له اسمي شيئًا. فأضفت موضِحًا:

– دون فويغو.

كذلك، لم يُحدِث لديه اللقب أيّ ردّ فعل. سألني:

– أنت في السينما أو في المسرح؟

كان بودّي أن أقلب عليه مكتبه، وأن أغادر على الفور. لكنني قلتُ له:

– خمسة وثلاثون عامًا وأنا أغنّي، أيها الشاب. هل يحدُث لك أن تحضر حفلات غنائية؟

أشار بيده مهدّئًا:

– إسمع، لن نبدأ بالتشاجر. أنا لست موظّفًا عاطلًا عن العمل. من الصباح حتّى المساء، أستقبل أصحاب مواهب مخدوعين، وغالبًا ما أستقبل معتوهين مقتنعين بأننا نهمّشهم عامدين متعمّدين، وعمداء في فنّ المسرح لا يدركون أنّ العصر تجاوزهم. يأتون جميعًا راجين ومعتقدين بأنّني أمتلك سرّ مغارة علي بابا. يصبّون عليّ مرارتهم واستياءهم، ثمَّ ينصرفون ويتركونني غارقًا حتّى عنقي بمكبوتاتهم وإحباطاتهم.

– غيّر مهنتك.

– لماذا؟ لأجد نفسي مكانهم أبحث عن مُنزوى أكظم فيه غيظي؟

– إذًا، كفّ عن الشكوى والأنين.

بحث في دُرج من أدراج مكتبه، أخرج علبة سجائر، ثمَّ بحث عن قدّاحة فلم يجدها. إعتذر وخرج إلى قاعة الانتظار طلبًا لشعلة. عاد وهو ينفث الدخان بعصبية من منخريه.

– أنت مسجَّل عندنا؟

– منذ تأسيس المؤسسة.

أخطر آنسةً وطلب منها إحضار ملفي. بانتظار حضور الملف، أمسك بقلم ودوّن اسمي على ورقة صفراء.

– أضِف إلى اسمي، لو سمحتَ، «دون فويغو»، فأنا معروف بهذا اللقب. غنّيتُ لفيديل وبريجينيف وغيرهم من صنّاع القرار الدوليين. لكي أكون صريحًا، أنا مصدوم لقلّة احترافيّتك. عندما نتولّى وظيفة تُعنى بشؤون الفنّانين، علينا أن نتابع أنشطتهم ولو قليلًا. إسأل أي سائح من هو دون فويغو، فيُخرِج هاتفه النقال ليُريكَ الصورة التي التقطها معي.

– أنا مكلّف بمتابعة مئات الملفّات، سارع إلى التبرير بنبرة ضجرة. إستقبلتُ في هذا المكتب المتواضع أشهر الفنانين الذين

حلبوا لبَّ جيلٍ بأكمله، ولم يعُد أحد اليوم ليتعرّف عليهم. منذ أقلّ من ثلاثة أسابيع، وعلى المقعد الذي تشغله الآن، كان يجلس مايسترو كبير الشأن، لن أذكر اسمه حفظًا لمقامه. كان يبكي يا سيّد خونافا. كان ينوح كالأرملة.

– وما علاقة ذلك بالموضوع؟

– ما أحاول أن أقوله هو أنّه مهما اتّسعت شهرتك، فهي ليست ملكًا لك. كلّ شهرة ليست سوى نتيجة ظروف معيّنة. الجمهور متنوّع ومتقلّب. اليوم يهتف بحياتك، وغدًا يهتف بحياة غيرك. حتّى أنّه لن يتجشّم عناء رمْيِكَ في غياهب النسيان. وها أنتَ تجد لفسك، من دون سابق إنذار، وحيدًا، لا تعرف ما أنت مُقبِلٌ عليه، ولا ماذا ستكون.

أطلّت الآنسة وهي تحمل ملفًّا بَهُت لونه.

ألقى الموظف نظرة سريعة على بعض الوريقات وهي ما يشكّل ملفّي. حكّ جمجمة رأسه وخربش بضع كلمات على الورقة الصفراء.

– أما زال هذا عنوان سكنك؟

– كلا، لم يعد كذلك، أقيم حاليًّا عند شقيقتي في كازا بلانكا.

دوّن عنواني الجديد ورقم هاتفي، وسجّل أكبر قدرٍ من المعلومات عن شخصي، عن تمنّياتي وخياراتي واستعداداتي الحالية.

– هل ترضى بعمل في مدينة أخرى؟

– مكاني هو هافانا.

– ولا حتّى في سانتياغو دي كوبا؟

– طبعًا لا، ولا حتّى في لاس فيغاس. هافانا مِحْرابي وقُدْسُ أقداسي. هنا غنّيت للمرّة الأولى، وهنا أريد أن أختتم مسيرتي المهنية.

وافقني من دون تردد.

– ليلة أمس وحسب، كنتُ ألهب قاعة المسرح في الـ«بوينا فيستا». الآن انتقلت ملكية الملهى إلى أحد كبار الأثرياء. لم ينتشر الخبر بعد بالسرعة الكافية. لكن، عندما يعْلَم بالأمر بعض الوكلاء فجرس هاتفي لن يتوقّف عن الرنين؛ أنا ذائع الصيت في هذه الأوساط. سوف يتدافعون لتوظيفي.

– والحالة هذه، لماذا تكبّدت مشقّةَ المجيء إلى مكتبي؟

– إنّه الإجراء المتّبع وفي الوقت نفسه، لا أريد أن أعمل عند أيّ كان، وكيفما اتّفق. أنتَ خيرُ مَن يعرف مَن يستحقّ أن أعمل لديه، ومَن ليس جديرًا بذلك. أحتاج إلى عمل يليق بموهبتي وشهرتي. مثلًا: يشوّقني أن أغنّي في الـ«يارا».

فجأةً رمى قلمه ونهض ليواكبني، أو بالأحرى ليطردني.

– لا أعِدُك بشيء، لكنني سأبذل قصارى جهدي لأنبش عملًا يليق بموهبتك.

مدّ يدًا لمصافحتي، وبالأخرى فتح لي الباب. كانت قبضته متراخية. بنظرةٍ، أومأ إلى الشخص التالي بالدخول. أنبأني حدسي بأنّ منقذنا البخس قصير الذاكرة تمامًا كالسمكة، وسينساني حتمًا حالما أغادر محيطه؛ لكنني كنتُ مُلزَمًا بأن أبتسم له وأشكر جهوده، لعدم قدرتي على رشوته. ففي كوبا يُقال «أكتع مَن لا يمدّ يده إلى جيبه – يستطيع أن يركض ويركض، لكنّه يبقى مكانه».

– تحلَّ بالصبر يا خونافا، وثِقْ بي. سأنقذك من هذه العثرة.

– حاذِر. أنت تقطع لي عهدًا بكلامك هذا.

لم يقُل لي «إلى اللقاء». بطبيعة الحال، هذا الموظف الصغير، ذو الرتبة المتواضعة، معتاد على الانحناء والتزلّف، ولا يستطيع تحمّل كبريائي، بل يعتبره حماقة ووقاحة. أنا في نظره، لست سوى

نافه يحسب نفسه محور العالم أو ربما أدنى منه شأنًا، ولكن شديد الإزعاج بقدره.

تسكّعتُ في أنحاء المدينة حتّى أعياني التعب ولم أعد قادرًا على التفكير. لم أكن أرى الطرقات ولا السيارات التي كانت تتسابق في الشارع العريض. أغلب ظنّي أنني عرّجتُ على مقهى، لكنني لا أذكر إن كنتُ قد طلبتُ أو تناولت طعامًا أو شرابًا.

إبتسامة الموظّف الساخرة اعترضت تفكيري، كعارضة حاجز التحكّم المروريّ، لكنّني لا أتحكّم بشيء.

فطِنتُ إلى أنّني لا أعرف أحدًا – باستثناء بيدرو بارفيراس – يستطيع أن يجد لي عملًا في مكان ما. أصدقائي يعيشون بتقشّف، وجيراني من موظفي الحدّ الأدنى وتكاد مرتّباتهم لا تكفيهم حتّى آخر الشهر، ومندوب الحيّ لا يُسدي خدمةً حتّى لأقرب أقربائه.

تسكّعتُ على أرصفة لا نهاية لها، وقطعتُ طرقًا عامّة غير مبالٍ بأبواق السيارات، ولا بأصحابها الذين يرمونني بالشتائم ويتهجّمون عليّ. بعدما أنهكني تعب التجوال، قصدتُ ضفّة النهر لأروّح عن نفسي وأُنعش فكري.

أمضيتُ سُحابةَ نهاري مَخفيًّا بين الأشجار أتساءل أيّهما الأكثر جمودًا أنا أم الشجرة؟ وأيهما يُرخي العتمة على الغابة، ظلالُ الأشجار أم أفكاري؟

على الضفّة، رجل يمارس طقوسه بذبح دجاجة لتقديمها أضحية، وقد تشنّجت عضلات وجهه. في السنوات الأخيرة، بلغ هذا النوع من الممارسات حدًّا مخيفًا. في كلّ صباح، يأتي أناسٌ بأعداد متزايدة، ليبتهلوا إلى آلهةٍ صنعوها بأيديهم، بأدعيةٍ تتراوح بين الهلوسة الأفيونية والهوس الانتحاري.

لم يعُد لله شعبية في هافانا. في هذه المدينة التي قايضت رونقها ورفعتها بالتواضع النضاليّ المكوّن من الحرمان والجحود، تغلب الإكراه الإيديولوجي على الإيمان. بعدما استنفد الباحثون عن المعجزات جميع أدعية التقرّب من الآب السماوي، حيث أنّ هذا الأخير بدا غائبًا عن السمع، غيّروا وجهتهم نحو روح أجدادهم. بالنسبة إليهم، من الآمن أن يودعوا أمانيهم لدى الكهنة والمشعوذين عوضًا عن استجداء الأنبياء المنشغلين بجنّات عَدن، أكثر من اهتمامهم بمعذَّبي الأرض.

في المساء، حضر بعض «أكباش المحرقة» الآخرون بصحبة حيواناتهم التي سيقدّمونها أضحيات وقرابين. بعضهم تضرّع لييمانجا، إلهة البحار، لكي تضيء لياليهم المظلمة؛ وبعضهم الآخر كلّفوا أوشون، إله الأنهار، بأن يطهّرهم من ذنوبهم، مُوقظين بذلك وراثات إفريقية بعيدة ماضية، وإنما حاضرة على الدوام في آن معًا، قديمة وأزليّة تمامًا كالآلهة المولودة في بؤس الأدغال التي لن ترى النجوم ولا الأقمار الصناعية، ما دام الشقاء توأم الأمل المستحيل.

شاهدتُ احتفالات كلّها عجيبة غريبة، قابعًا في إحدى الزوايا، وعندما تلاشت أنغام التعاويذ والتعزيمات السحرية وسط حفيف الغابة، خرجتُ من العتمة، كما من ستار دخاني، وتوجّهتُ إلى الشاطئ لأشاهد غرق شمسٍ احمرّت خجلًا لأنها لا تتقِن العوم.

5

انتظرت هبوط الليل كي أعود إلى كازا بلانكا.

كنتُ أسير محاذيًا الجدران كلصٍّ سارق.

عرّجتُ أولًا على أفضل صديق لي، بانشيتو، الذي يقطن كوخًا قديمًا عند أسفل تلّ يحرسه مسيح بلا أتباع.

يعيش بانشيتو مع أورفيو، كلبه المدمن على الكحول، وسط كومة من الكتب والثياب العتيقة. هذا الإنسان البالغ من العمر خمسًا وثمانين سنة هو مثال التخلّي، فهو لا ينتظر شيئًا من المستقبل ولا من الموت. غادر السهول المُشمسة فتيًّا ببنطال مرقّع وفي جعبته حلم فنّان، فغدا أسطورة وسطع نجمه في الأربعينيات كعازف بوق لا يُضاهى. أحيى حفلات في جميع أنحاء العالم، من مكسيكو إلى سيدني، ومن شيكاغو إلى باريس. عرف لويس أرمسترونغ وأنريكو كاروزو ودين مارتن، وعزف لكزافييه كوغا، وكان يشغل جناحًا خاصًّا في فندق والدورف-أستوريا في نيويورك. كان متيّمًا بالنجمة السينمائية ريتا هيوارث، وخالط الأمراء وكبار المهرّبين، من دون أن يفقد أدنى شعاع من نجوميته. حاول بعضهم أن يشتروه، وعرض عليه آخرون، أمثال فرانك سيناترا، أموالًا طائلة ليواكبهم في جولاتهم

وحفلاتهم. لكنّ بانشيتو كان يرفض العروض والمساومات، مفضّلًا شقّ دربه الخاصّ بموهبته الخالصة فلا يدين بشهرته إلّا لها، وليس لأحدٍ سواها. كان ذلك الزمن زمن العصابات واللصوص الذين يرتدون بـدلات نظيفة أنيقة، مصنوعة «على الطلب»، ويرفعون قبعاتهم احترامًا للسيدات، قبل أن يشرعوا بنهب كواليس الحوانيت وتخريبها، وزمن الزعماء الذين يجلسون في مقاعد الأوبيرا الأمامية، كأعيان البلاد، بينما يقوم سفّاحوهم المأجورون بتصفية غير المرغوب فيهم، بمقتضى قواعد اللعبة وأصول التهذيب واللياقة. كان ذلك زمن العزّ الـذي عاشته الكازينوهات الصاخبة وحفلات السُّكر والعشيقات الوفيرات، والأزواج المخدوعين بكامل إرادتهم. ثمَّ دارت الأيام وتغيّر الزمن، وهوى بانشيتو من علياء مجده بأسرع ممّا يهوي صخرٌ يُرمى به من علٍ. يعتقد البعض أنّ ذلك حدث بسبب قصّة حبّ مأساوية، ويروي البعض الآخر أنه ضاجع عشيقة أحد «العرّابين» الصقلّيين قبل أن يعود زحفًا إلى كوبا ليحمي رأسه. منذ أن تخلّى بانشيتو عن بوقه، خفتت حماستُه وتراخت همّته. وحيدًا مع كلبه، وثملًا من الفجر حتّى ساعة متأخّرة من الليل، يحمل على ظهره كيس أشباحه المرعبة، وفي رأسه خواء الإحباط. يربّي دجاجًا يبيعه في السوق السوداء، ويدخّن سجائر يلفّها بيده، وينمّي مزروعاته الخاصّة ليستمرّ غير مَدين لأحد.

حتّى ولو بات بانشيتو مجرّد ذكرى يتيمة من زمنه الذهبي، فهو يبقى بالنسبة إليّ أعظم عازف بوق أنجبته البشرية.

وجدته أمام كوخه مكوَّمًا على كرسيّه الهزّار، وكلبه رابض عند قدميه. بادرني بالقول:

– تعود باكرًا هذا المساء.

– أجَّلتُ الحفلة الغنائية إلى الأسبوع المقبل.

– وهل أنتَ قادرٌ على فعل ذلك؟

سكب قليلًا من الروم في قدْر معدنية، وعلى الفور أخذ الكلب يلعقه.

– سيُصابُ كلبُك بمرض تليُّف الكبد.

– كلبي هذا له اسم!

– عليك مراعاته، فقد نسي كيفيّة النهوض.

– حاولْ أن تمنعه عن الشراب، وسترى إن كان قادرًا على النهوض أم لا.

أشار بإبهامه من فوق رأسه إلى الخلف:

– تركتُ لك بعض الفاصولياء السوداء وقطعة من ضلع الخروف.

– لستُ جائعًا.

هزّ كتفيه، مال على جنبه، وحدّق بي مليًّا:

– هكذا إذًا، أجَّلتَ حفلتك التي كانت مقررةً لهذا المساء؟

– يحق لي أن أرتاح من حين لآخر، أليس كذلك؟

وجّه بانشيتو إليَّ تلك الابتسامة المألوفة والتي لسوء الحظّ، غالبًا ما تشوّشني.

نظر أولًا إلى كلبه وهو يلحس آخر ما تبقّى من الروم في القدْر، ثمّ شبك أصابع يديه خلف رأسه، ومدَّ رجليه في اتجاهي، وقال:

– هل تعلم يا خوان عزيزي، كيف بدّد والدي أمواله؟ كان يشتري المرجة قبل أن يشتري الأرض. وريثما يجد الأرض، يكون عشب المرجة قد تَلِف. عندئذٍ يبيع الأرض ريثما يجدّد مخزونه من العشب،... وبقي على هذا المنوال حتّى أفلس تمامًا.

فكّرتُ مليًّا في حكايته هذه فلم أجد لها معنًى ولا مغزى. قلتُ له:

– ما بالكم اليوم؟ تحاولون جميعًا أن تُغرِقوني في أوهام لا صلة لها بوضعي؟

– ولماذا لا تكون صريحًا وتقول الحقيقة؟

– أي حقيقة؟

هزّ رأسه، وبشفتين ثقيلتين أجاب:

– صباح اليوم، جاءت شقيقتك وسألتني إن كنتَ قد بتَّ عندي الليلةَ. إبن عمّك سائق التاكسي اتّصل بها ليخبرها بأنك لم تكن على ما يرام البارحة، عندما غادرتَ المقهى...

– وفيليكس هذا، كيف يتدخّل في ما لا يعنيه؟

– إنه ابن عمّك وهو قلِق عليك.

– لا سبب للقلق.

أشار إليّ بأن أهدأ. بعدما حدجني بنظرة فاحصة وطويلة من عينيه الرماديتين، قال لي:

– كلّ الناس في كازا بلانكا يعرفون ما حلّ بالـ«بوينا فيستا».

بقيت واجمًا لدقائق مرّت عليّ كدهور، عاجزًا عن النطق بكلمة واحدة.

لا أعلم ما إن كان ذلك لحفظ ماء الوجه، أم لأنَّ «الماء في فمي»، دخلتُ الكوخ لأجلب وجبة الطعام التي حفظها لي بانشيتو.

كنتُ أسكن عند شقيقتي سيرينا، في منزل لا بدّ أنه كان فخمًا قبل أن يُطبَّق عليه نظام الأملاك الشاغرة. في الواقع، كنّا إثنَيْ عشر شخصًا تحت سقف واحد: سيرينا وزوجها خافيير وأولادهما الثلاثة؛ بيلار شقيقة خافيير وزوجها أوغستو وطفلهما؛ لورد وهي ابنة عمّة جاءت من الريف لتتعالج من مرض الروماتيزم، وقد نسيت طريق العودة إلى بيتها؛ وريكاردو ابني البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا، وأنا.

في هافانا، يقيم في منزل واحد أكثر من أسرة واحدة. منذ العام 1959 والثورة الكاسترية، تضاعف عدد السكان خمس مرات.

لكنّ المدينة لم تتقدّم بوصة واحدة، وكأنّما لعنة الماضي المستعِرة كالجحيم قد أطبقت عليها إلى الأبد.

ما إن رأتني شقيقتي أجتاز عتبة البيت حتّى صرخت:

– كدتُ أموت قلَقًا عليكَ. بحث عنك فيليكس في كلّ مكان. إضطررتُ إلى إزعاج بانشيتو منذ السادسة صباحًا لأعرف ما إن كنتَ بتّ عنده.

لم أُجِبْها بشيء، بل جلستُ إلى طاولة المطبخ. تركتني سيرينا أستريح. جلستْ قبالتي وأسندت خدّيها إلى راحتيها، وراحت تحدّق بي.

– كان بوُسعِك أن تتصل بي.

– لم أكن على ما يرام.

– سبب إضافيّ كي تتصل. حدّثتني نفسي أن أبحث في كلّ بيوت الحيّ. لا بل روادتني فكرة أسوأ من ذلك عندما أخبرني بانشيتو بأنّه لم يرَكَ منذ ثلاثة أيام.

– كنتُ بحاجة إلى تنشيط ساقيّ وأفكاري، ولذا فضّلتُ العودة سيرًا على قدمَي.

– نعم، لكنك لم تعد. أين قضيتَ الليل؟

– في ذهني.

إحتضنتني بكلتَيْ يديها والحنان يفيض من عينيها. لطالما احتضنتي كذلك، ولا سيّما حين كانت تريد إبلاغي بخبر سيء.

– المهم أنك هنا الآن. هل تريد أن تأكل شيئًا؟ لديّ قطعتا لحم أو ثلاث على النار.

– هاتي لي كأسًا.

دفعتْ نحوي بزجاجة من دون أن ترفع عينيها عني، وقالت:

– أصحيحٌ أنّ بوينا فيستا أُغلِق؟

كدت أغصّ بجرعةٍ بالكاد احتسيتها. مسحتُ فمي بقطعة قماش، وقلتُ معترفًا:

– نعم، صحيح.

– لكنه كان يعمل على أحسن ما يُرام.

– يفعل الرأسماليون ما يحلو لهم في هـذا البلد. يكفي أن يُخرِجوا كدسةً من الدولارات حتّى يشتروا الطبقة الحاكمة كلّها.

– لا تقُلْ ذلك. ليست هي المرّة الأولى التي يتحوّل فيها ملهى إلى ملكية خاصة.

– بوينا فيستا ليس أيّ ملهى. مرّت حقبة حيث كان المنصّة إلى كلّ الأمجاد. تُغنّين فيه مرّة وإذا بك تخاطبين مشاهير النجوم من دون تكلّف أو مجاملة. باتيستا كان يختار عشيقاته في الـ«بوينا فيستا»...

أطرقتْ شقيقتي وهزّت رأسها موافقة:

– ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

– أن أتفادى نفاد بطارية هاتفي، لأنّ الاتصالات ستنهال عليّ. مدراء الملاهى سيتنازعون عليّ.

ربّتتْ براحة كفّها على خدّي وقالت:

– كم أنا سعيدة لأنّك تحتفظ بمعنويات عالية.

– هذا كلّ ما بقي لي يا سيرينا.

– كلّا. غير صحيح، فأنا إلى جانبك. لقد شغلتَ بالي للغاية.

– لم يكن يجدر بكِ. فأنتِ تعرفين، أكثر من أي إنسان آخر، أنّني شخص لا يمكن قهره.

– أُحبُّ فيكَ هذا التفاؤل. لكن، رجاءً، في المرّة المقبلة التي تقرّر فيها أن تنشّط ساقيك وأفكارك، حاول أن تتذكّر أنّك تملك هاتفًا واستعمله.

– أَعِدُكِ بذلك.

حملتُ كأسي بيدي وسرت بضع خطواتٍ في غرفة الاستقبال. عادةً، تجتمع العائلة كلّها هنا، ما يخلق ضجيجًا وضوضاء، فنجعل يدينا على شكل بوق لتبادل الحديث، ومع ذلك، لا نكون واثقين من سماع بعضنا بعضًا. لكن، مذ بدأ خافيير يعتبر نفسه السيّد المطلق في البيت ويُفسِد جلسات الفرح بنوباته العصبية وملاحظاته الجارحة، ويرعج هذا أو ذاك، بات كلٌّ منّا يفضّل ملاذ غرفته.

هذا المساء، يستريح خافيير على أريكته المترهّلة، بعدما استعاد سيادته وأرضه، واضعًا قدمه على طاولة صغيرة، وقد ترك ساقه البديلة بمحاذاة ذراع الأريكة، وألقى بغطاء على ساقه المبتورة. لم أكن بحاجة لأن أُلقي عليه التحية، فهو لا يستجيب لعبارات التهذيب. هو جالسٌ هناك، فاغر الفم، شديد الإعجاب بشاشة تلفازه النقّال الصغيرة، فلو انفجرت قنبلة على مقربةٍ منه، لما سمع دويّ الانفجار. محدودب الظهر، شبه أصلع عند الصدغين، قد شاء أن يهرَمَ في زاويته، لفافة التبغ بين شفتيه، وغير مبالٍ بما يدور حوله. منذ زمن طويل، استنكفت سيرينا عن إيقاظ حسّه حتّى تجاه ذاته. لم يعُد سوى قطعة أثاث ما بين أخرى في المنزل. نسِيَ كلّ شيء، حتّى أسماء أولاده.

بقيتُ دقائق معدودةً واقفًا بالقرب من صهري، أشاهد فيلمًا بالأبيض والأسود، مشدوهًا لرداءة الصورة. ثمَّ صعدت إلى الطابق الأعلى، إلى «غرفتي» التي أتقاسمها مع أبناء أختي الثلاثة. كانوا قد غزوا المساحة منهمكين بلعبة البيسكا. يراقبون أوراق الشّدّة في أيديهم هازئين ببعضهم بعضًا، من دون أن يتنبّهوا لوجودي. أدركتُ أنني رجعتُ في وقت مبكر. فجأةً، لاحظت أنهم يجلسون على ملابسي.

– أليس لديكم احترام لأيّ شيء يا أولاد أختي؟

نهضوا جميعًا دفعةً واحدة عاقدين الحاجبين.

– ألا ترون أنّكم تدوسون أزيائي المسرحيّة؟ هذه أزياء شهيرة، تحمل ماركات عالمية، ومصنوعة في باريس.

– آسفون، لم نرَها.

– هل يحدث أن تروا شيئًا بين الحين والآخر؟

إكتفوا بدفع ملابسي إلى حافة السرير، ثمَّ استأنفوا اللعب، من دون أن يأبهوا لوجودي. ثار الدم في عروقي، لكنّ قواي كانت خائرة، حتّى أنني لا أستطيع مجابهة أحد. لطالما شعرت بالضجر في هذا البيت حيث عليّ إبعاد عشرة أشخاص لكي أستطيع تنشّق بعض الأوكسجين. واليوم، وقد غـدَوْتُ عاطلًا عن العمل، أتساءل إن كنتُ قادرًا على احتمال العيش في هذا البيت طوال الوقت. في السابق، كنتُ أعود إليه في ساعة متأخرة من الليل، فأسير على رؤوس أصابعي كي لا أوقظ «شركائي في السكَن». وبينما كان أبناء أختي يغطّون في النوم، كنتُ أخلع ملابسي وأندسّ في فراشي. أمّا الآن فعليّ أن أنتظر إطفاء جميع الأضواء حتّى أجد الحد الأدنى من الخصوصيّة. بأسى وحرقة، ملّستُ بدلاتي وستراتي ذات الألوان الزاهية وقمصاني الحريرية، ووضّبتها في الخزانة، ثمَّ أخذتُ كأسي ونزلت إلى الطابق الأرضي.

في المطبخ، قلت لسيرينا:

– كان بِوسعكِ أن تضعي ملابسي على حدة. أولادك جلسوا عليها.

– وقد يجلسون عليّ حتّى وهم لا يدرون ما يفعلون.

– عليكِ أن تشدّي أذنهم، من وقت لآخر. هذا رأيي.

– لن يجدي ذلك نفعًا. لا يصغون إليّ على أية حال. هم هكذا. عندما يكونون صغارًا نود أن نلتهمهم لشدّة ظرافتهم؛ وعندما يكبرون نندم لأننا لم نلتهمهم فعلًا. سوف أكوي ملابسك غدًا، من دون إبطاء.

– لا تفعلي. لا أريد أن يلمس بدلاتي أحدٌ غيري. سأقوم بذلك بنفسي.

توقّفت شقيقتي عن مسح الطاولة ونظرت إليّ نظرة تحدٍّ:

– خوان، أرجوك، لا تحاول الاصطياد في الماء العكِر. خسرتَ عملك، وستجِد لكَ عملًا آخر.

– أولادك يدوسون ملابسي وعليّ ألّا أبالي بذلك. أهذا ما تريدينه؟

– قلتُ لكَ إنني سأهتمّ بالأمر.

هززتُ رأسي مهمومًا. وضعتُ كأسي في حوض المطبخ، وخرجتُ إلى الشارع. حاولت سيرينا أن تثنيني عن الرحيل، فرجوتُها أن تدعني وشأني، وتوجّهتُ مسرعًا نحو الطريق المؤدّي إلى الـ«باهيا ديلا هابانا»، وهو عبارة عن لسان بحري طويل يشبه النهر، ويفصل المدينة القديمة عن ضاحيتها الشرقية.

على مقربةٍ من المحطة البحرية في كازا بلانكا، قطار ترام أخضر، لا يتحرّك، لابثًا مكانه بسبب عطلٍ أصابه منذ سنوات، عطل يشي بما فيه الكفاية بمدى الخلافات الإيديولوجية. أحد الظرفاء أطلق عليه اسم «الثورة». لكنه دفع ثمن هذه المزحة الرعناء فترةً طويلةً في السجن.

ما عسانا نقول عن الترام الأخضر من دون المجازفة بركوب المخاطر، سوى بأنه قابع هناك وقد طواه النسيان كما لو أنه حطام لا معنى له ولا مرجعية، متروكًا لصقيع القرّ ولهيب الحرّ. وأمّا السكّتان اللتان تتيحان له إظهار جبروته فلم تعودا سوى ندبتين ذابلتين في الأسفَلت. في بعض الأماكن، لم يبقَ سوى ما يشبه بريق الفولاذ الذي غطّاه التراب والأوساخ بوفرة. وقع خياري على خُردة الحديد هذه منذ أن سكنتُ في هذا الحيّ. في البداية، وكنتُ ما أزال أشعر بالغربة، اعتدت الجلوس على المقعد الخلفي، وأنا أحاول طيّ صفحة طلاقي. بعدها، وبسبب حفلات الغناء الليلية المتأخّرة، كان يحدث لي أحيانًا

أن أمكث فيه حتّى ساعات الفجر الأولى، إلى أن أعود إلى البيت. كان نوم خافيير خفيفًا توقظه أدنى ضجة، فلا يتحمّل صوت قرع مسامير حذائي على أرضية المنزل في التوقيت الخاطىء.

كان هذا الترام ليوافق حالتي المعنوية. هدوؤه يهدهد روحي، وسكينة انغلاقه تعيدني إلى ذاتي. يمكن أن تحسبه ناووسًا حملته الأمواج ورمته هناك محاطًا بجملة من الألغاز التي لم يُفكّ لها سرّ. كنت أحبّ أن أستلقي على المقعد واضعًا يدَي خلف رأسي، ونظري مسمّر على السقف النحاسي، كما لو أنه سماء شتائية، من دون أن أفكر بشيء محدّد. أحيانًا كنتُ أتّخِذ لي مكانًا في وسط المقصورة، أنفي ملتصق بزجاج النافذة، وأتخيّل الترام يحملني إلى بلاد مجهولة. مرّةً واحدة فقط جلستُ في مقعد السائق، لكنني لم أُفلِح في الإقلاع والهروب. خراب السكّة أمامي كبح حلمي.

هذا المساء، صعدتُ إلى الترام، وكأنّني أقف على منصّة المشنقة، لا أعرف إن كنتُ الجلّاد أو الضحية. بقيت جالسًا على المقعد الخلفي حتّى الصباح، كأنني فكرة كامنة يجترُّها المرء من دون أن يتمكّن من هضمها.

6

أحيانًا، تنسى سيرينا التي تكبرني بثلاثة أعوام أنني شارفتُ على الستين من عمري.

نحن بطبيعة الحال جدّ متقاربين، إلّا أنّها لا تلاحظ أنها تكاد تخنقني عندما تعانقني.

توفيت أمّنا في حادث سيارة ذات أحد مشمس. أذكر أننا لهونا طوال النهار في البرية، فكنا أُختي وأنا، نتسلق الأشجار ونقطف الثمار ونقوم بحركات وألعاب بهلوانية ونتعلّق بأغصان الشجر. فرشت أمي شرشفًا أبيض على العشب، بينما كان أبي يهتمّ بموقد الشواء. كان الحقل يصدح بأصواتنا وصرخاتنا والزقزقات. كان نهارًا رائعًا لم يتخلله ما يعكّر صفونا وفرحنا. قبيل المساء، ركبنا السيارة وتوجهنا إلى المنزل. فجأةً، ومن طريق فرعيّ، ظهر جرّار زراعي لم يتّخذ سائقه عناء التلفّت يمينًا ولا يسارًا، فلم يستطِع والدي تفادي الاصطدام وانتهينا جميعنا في الخندق. خرجنا من السيارة أبي وأختي وأنا، نشكو من بعض الرضوض، أمّا أمي فقد بقيت ممدّدة بملاصقة باب السيارة، عيناها مفتوحتان أكثر من المعتاد، ولولا خيط الدم المتسرّب من أذنها، لحسبناها تتأمل مشهدًا أدهشها. لم يتمكّن أبي يومًا من تخطّي

المصيبة، بل حاول إغراق حزنه في الخمرة. أحيانًا كنتُ أسمع صوتَ نحيبه خلْفَ المنزل، يلفّه جزءٌ من عتمة الليل. ذات صباح طرق بابنا شرطيان. كانت سيرينا في الخامسة عشرة. بعد انصرافهما، صعدت سيرينا إلى غرفتي، وأمسكت معصمَيّ برفق، وهمست لي: «لم تعد ماما وحيدةً» ثمَّ عانقتني وكأنّها تخشى أن تخسرني أنا أيضًا. لم تعترف لي بانتحار والدي إلّا بعد ثلاثة أيام.

إرتأت إحدى عمّاتي أن نعيش في كَنَفِها أنا وشقيقتي. لم نكن سعيدَين في منزلها فقصدت سيرينا أن تتزوّج في سنّ مبكرة لكي توفّر لي منزلًا. تزوّجَتْ أولًا سكّيرًا كان يضربني، ثمَّ تزوّجت خافيير، الرقيب في فوج المشاة، والذي شارك في حرب أنغولا، ليعود بباقة من الأوسمة والنياشين وبساق واحدة.

سيرينا امرأة كريمة، بيتها مفتوح لجميع أفراد العائلة. لم تُوجّه إلى أيّ ضيف من ضيوفها، ولو مرّةً واحدة، ملاحظة مهينة، على الرغم من ضآلة المنحة المالية التي يتقاضاها زوجها المعوّق، والمساعدة الهزيلة التي نقدّمها إليها.

أعيش في بيتها منذ أربع سنوات، منذ أن طُلّقت. قبل ذلك، كنتُ أُقيم في ريغلا، وهي قرية متديّنة على مرمى حجر من هافانا. كنتُ متزوّجًا من إلينا، ولي منها ولدان، ريكاردو وإيزابيل التي تصغره بست سنوات. كنت أرى الحياة الزوجية بمنظار بسيط؛ كانت عائلتي حقًّا مكتسبًا، وجمهوري جولة يجب اكتسابها. كان بيتي كهفي، والمسرح ميدان صيدي، فقد كان عليّ أن أُطعِم أولادي. لم تكن إيلينا توافقني الرأي: «إنّكَ مصدر سعادة للمحتفلين، ومصدر تعاسة لي»، كانت تقول غاضبة. «أكرهك. ردّ لي حريّتي.» كانت إيلينا تجهل أنَّ الفنان مِلكٌ للجميع، ويتقاسمه الجميع. كنتُ في نظرها وحشًا نرجسيًّا لا يفكّر إلّا بنفسه، وأمّا عائلته فأمرٌ ثانويّ، شكليّ، للزينة فقط.

حين أعود في ساعة متأخرة من الليل، كانت تشمّ قميصي بحثًا عن عطر امرأة مشبوهة، وتعترف لي بأنّها قضت الليل تلعن القدر الذي جعلنا نلتقي ذات يوم. ذات مساء، انتظرتني في المطبخ، شاحبة الوجه، ووجنتاها ترتجفان من شدّة غيظها المكبوت:

– في أيّ يوم نحن؟

– الأربعاء.

– أيّ تاريخ؟

– 24 نيسان، على الأرجح.

– ألا يعني لكَ هذا التاريخ شيئًا؟

– لماذا؟ تظنين أنّني نسيت إحدى حفلاتي الغنائية؟

نهضتْ وقد أضناها اليأس:

– أرأيتَ؟ لا تفكّر إلّا بذاتك.

صمتتْ ولم تعُد توجّه إليّ أي كلمة. بعد خمس دقائق، صفقتُ جبيني براحة يدي: 24 نيسان، ذكرى ميلاد ابنتنا!

وقع الطلاق من دون أن أتمكّن من التلفظ بكلمة واحدة.

تَزوّجَت زوجتي من جديد بعد ذلك بوقت قصير. لم أكن أعي بعد ما حدث لي. تزوّجَت من أحد الجيران، موظّف في جمارك المطار. كان يعود بالكثير من السلع المُصادَرة والمختلَسة بفضل عبقريّته. كانت سعيدةً بهذا الزوج «السامريّ الصالح» الذي يغمرها بالهدايا البسيطة والتي لا يمكن اقتفاء مصدرها. إبننا ريكاردو لم يكن سعيدًا. كان يهرب من المدرسة، يقضي وقته في الشارع ويخالط الأولاد المشبوهين. أمّا والدته فلا تحصد إلّا المشاكل التي يتسبب بها. انتهى بها الأمر بأن طردته وأرسلته إليّ – من دون «طريقة الاستعمال».

حرتُ كيف أتعامل مع ولدي. لا يجيد أيّ عمل، ولا يشغّل فكرَه إلّا بنسبة واحد في المئة. لكي أُشغله بشيء ما، اشتريتُ له درّاجة -

تاكسي (درّاجة بثلاث عجلات مزوَّدة بمقعد خلفيّ يتّسع لشخصين، بسقف واقٍ، ويحبّ السوّاح التنقّل بها). لكنني، حتّى الآن، لم أرَه ينقل بها أحدًا. تقول سيرينا إنّ ريكاردو ينهض في التاسعة صباحًا، يذهب إلى الرصيف المقابل، ويجلس على قطعة من الكرتون، حتّى مرور ساعي البريد. عندما يعي أخيرًا أنّه لم يتلقّ أيّ بريد، يختفي طوال النهار، ولا يعود ليظهر إلّا وقت الغداء، فيتناول طعامه على عَجَل، ثمَّ يعود إلى هدر الوقت في ملاهيه.

سرعان ما أحاطت الصراصير والجرذان بدراجته-التاكسي. أردتُ أن أعرف أيّ نوع من الرسائل ينتظر ولدي فهزّت سيرينا كتفيها وقالت إنّها لا تعلم. ظننتُ أنّ ريكاردو ربما يودّ الانخراط في الجيش، وينتظر رسالة الاستدعاء التي ستجعله جنديًّا مسؤولًا ومنضبطًا. لكن، كلّما كنتُ أعدّد له الحسنات والامتيازات التي يقدّمها الجيش للمتطوّعين، كان يسخر مقهقهًا وهو يهزّ رأسه، وكأنّه يعتبرني أحد المتخلّفين. على مرّ الأيّام، تخلّيتُ نهائيًّا عن هذا الحديث، فأنا وولدي غريبان تمامًا الواحد عن الآخر.

7

لولا الموسيقى، لكنتُ صدًى مبهمًا يتقاذفه الهواء، ولما كانت لي شرايين، ولكنتُ بالتالي بلا دم، ولَما كانت لي عظام لأقف ثابتًا على قدميّ، ولَما كان لي وجهٌ لأحفظ ماءه.

لولا أضواء الشهرة، لَعِشتُ في الظلام، ظلام ليل بلا نجوم، ولا أحلام، ولا فجر جديد. فُضلات جلد الأفعى المنسلخ تبدو أفضل من كتلة الأشلاء التي كنتُ أتحوَّل إليها شيئًا فشيئًا.

منذ ستة أسابيع وثلاثة أيام وأنا أنتظر المكالمة التي ستُنقذني. هاتفي في جيبي صامت كالأموات.

قلتُ لبانشيتو:

– ربّما لأنّني أهملت صَلاتي ذات مرّة.

– أنا لا أصلّي أبدًا، وها أنذا في حالة ممتازة.

أرعبتني لامبالاته هذه.

– هل يحدث لك أحيانًا أن تؤمن بالله؟

إرتسمت على وجهه علامات العبوس.

– لا أؤمن إلّا بإله واحد، وحيد، لا شكّ فيه، هو الذي يحيي ويُميت كلّ شيء في هذا الكون: إنّه الزمن. هو إلهٌ لا يعترف إلّا بنبيّ واحدٍ يليق به: المصادفة.

طرقتُ الأبواب كلَّها: الفنادق، المطاعم، الملاهي، وصالات الحفلات... ولم أطلب أيّ معاملة خاصة، بل كنت مستعدًّا لأن أؤدّي دور البديل. كانوا يقولون: «سنتّصل بك في حال احتجنا إليك»، أو يجيبون: «طبعًا عرفناك. ومن لا يعرف دون فويغو المهووس بإلهاب المسارح؟...». يبدون صادقين حقًا عندما يكيلون لي المديح والإطراء، لكنني لم أكن لأستسيغ طريقتهم في التربيت على كتفي، كما لو أنني فقدتُ إنسانًا عزيزًا عليّ. كنتُ أقول في نفسي: «المهمّ أن تعلق الصنّارة، وبعد ذلك أُريهم ما أنا قادرٌ على فعله، وبعدها أفرض عليهم الأجر والمعاملة المميّزة كما يستحقّهما الفنان النجم، وعندئذٍ لن يجرؤ أحد على التكبّر أو الاستهتار».

لا شيء.

لا شيء البتّة.

كلّ يوم أُرغِم نفسي على المرور من أمام المؤسسات التي اتّصلتُ بها، آملًا أن يناديني أحدهم؛ لكنّ جميعهم يكتفي بالتفرّج عليّ وأنا أجول في الأنحاء. وجب عليّ أن أدوس بعض الشيء على كرامتي لكي أعود إلى مركز أدولفو غوزمان، وأن أُذكّر المكلّف بشؤون الفنانين بالوعد الذي قطعه لي. كان الموظف الأشقر يدخّن سيجارة على الشرفة، فما إن لمحني حتّى حرّك يده في إشارة إلى عدم ورود أيّ جديد. جعلتني تلك الإشارة أعود أدراجي، قبل أن تطأ قدمي عتبة المبنى.

كنتُ في الترام المعطّل في محطة كازا بلانكا أجترّ أفكاري، عندما تذكرتُ فجأةً أوريمي أنشيا! كيف لم يتوارد إلى ذهني قبل

الآن؟ يا للعجب! غالبًا ما نبحث بعيدًا عن شيء وإنّما هو بالقرب منّا، بل في متناول اليد!

أوريمي أنشيا مدير ملهى الـ«إسميرالدا»؛ وهو قادر على أن يسدي لي خدمة. مضت خمس سنوات لم نلتقِ فيها مرّة واحدة. كنّا صديقين حميمين في الجامعة ونحن في سنّ العشرين. كنّا نقيم في غرفة واحدة، نحمل الهموم نفسها، ونعشق الفتاة نفسها، مرسيدس، تلك الفاتنة اللطيفة والرقيقة كالنسمة. في ذلك الوقت كانت مرسيدس تميل بعض الشيء إليّ، لأنني الأبرع في الممازحة؛ لكنّ أوريمي لم يكن من النوع الذي يرضى بالهزيمة. في حين كنتُ أكرّس أوقات فراغي في التدرّب على الرومبا مع مجموعات من الشباب النوابغ، كان أوريمي يملأ وحشة مُلهِمَتي الجميلة، إلى أن دسّ، ذات يوم، محبس الزواج في إصبعها. لم أتوقّع ذلك على الإطلاق. في حفل زواجهما، وفي حين ترقّب رفاقنا نوبة غيرة مجلجلة مِن قِبَلي، غنّيتُ حتّى ساعات الفجر الأولى على شرف طائرَي الحبّ. أثناء استراحة قصيرة، صعدت مرسيدس إلى المنصّة وقبّلتني على خدّي وأرسل إليّ أوريمي من آخر الصالة، قبلة طائرة ليعبّر عن مدى تقديره وإجلاله لاحترامي قواعد المنافسة الشريفة.

هكذا أنا: أُسعِد الناس، وبخاصة، أصدقائي. (إيلينا لم تفهم شيئًا من رسالتي هذه.)

كنتُ ألتقي أوريمي صدفةً، في حفلة أو أثناء محاضرة، فندعو بعضنا إلى شرب القهوة قبل أن نفترق ونحن لم نُنهِ الفنجان بعد. كان أوريمي يزداد قلقًا وتململًا أكثر بحضوري. أثبتُّ له مرارًا وتكرارًا أنّني لستُ حاقدًا عليه، وأنّ الحبّ هو السلطان الأعظم والوحيد، وأنّ مرسيدس حرّة في أن تختار شريك حياتها، لكنّ أوريمي ظلّ يتفادى الخوض في هذا الموضوع، بل يتحدّث في أمور لا تخصّه ولا تخصّ

زوجته ولا تخصّني. شيئًا فشيئًا تباعد مسارانا: أنا بسبب حفلاتي الغنائية، وهو بسبب عمليّات نقله المتكرّرة. لم يأتِ لحضور حفلة زواجي. لم يبعث إليّ ببطاقة تهنئة. بَيْدَ أنّه لم يكن ليثبت في مكان، فقد تنقّل بين بينار ديل ريو، وسانتا كروز ديل سور، وبايامو، في حين أنّني أرسيت جذوري في بوينا فيستا، في قلب هافانا التي لم أكن أعرف منها سوى الليالي اللاهبة وساعات النوم إلى الضُحى.

بانشيتو هو الذي أخبرني بعودة أوريمي، وأيضًا بأنّه ترقّى، لأنّه عُيِّن مديرًا على الـ«إسميرالدا»، صالة الحفلات التي يؤمُّها وجهاء حيّ الكوينتا (الشارع الخامس) وأولادهم. حينها، لم أحفل لعودته، فقد كانت أموري تسير على ما يُرام في بوينا فيستا، ولم أكن بحاجة لأيّ شيء. أمّا الآن، فقد عاد إلى ذاكرتي كنفحة أوكسجين بعدما انحبست أنفاسي وكدتُ أختنق.

منذ الثامنة صباحًا، بدأت أجوب حديقة الكوينتا، هذا الشارع العريض حيث يُقيم كبار رجالات النظام، وحيث يجب على سائقي السيارات السير بسرعة تفوق الـ80 كلم في الساعة، إذا شاؤوا أن يتجنّبوا غضب حرّاس الهيكل، وغرامات المخالفات.

تقع الـ«إسميرالدا» في الجانب الأيسر من الحديقة، غير بعيدة عن شاطئ مفروش بالحصى يخفيه عن الأنظار صفّ من أشجار الفوقس السمراء. يمكن رؤية صالة الاحتفالات من البوّابة الكبيرة الزلّاقة، مع واجهاتها الزجاجية الواسعة، وقناطرها المُزهِرة. يأتي إليها فيديل ورعاياه، من حين لآخر، لحضور حفلة زواج، أو عيد ميلاد. لا أذكر أنني زرتها ولو مرّة واحدة، منذ أن أبصرتُ النور. لكنني لم أفقد الأمل في أن أُغنّي فيها يومًا ما. لقد غنّيتُ لصنّاع القرار في أماكن أخرى من كوبا وأتحفتهم بموهبتي كما يبدو، حتّى أنَّ وزيرًا طلب رقم

هاتفي وعنوان سكني، ولكن، مضى على ذلك زمن طويل... حتّى أنّه ربّما نسي الأمر، أو لعلّه مات.

أخيرًا، قرابة الظهر، جاء الحارس يبحث عنّي في المقهى الصغير المجاور حيث كنت أبتلع فناجين القهوة واحدًا تلو الآخر، لإطفاء تململي. قال لي:

– يسألك المدير أن تمرّ لرؤيته في الساعة الخامسة بعد الظهر.

– ولماذا ليس الآن؟ لا بدّ أنّك لم تلفظ اسمي جيّدًا. إنّه صديق قديم. لا يمكن أن يجعلني أنتظر.

– هو يستقبل وفدًا أجنبيًّا.

ذهبتُ إلى شاطئ البحر لتمرير الوقت، لكنّ الوقت لا يُمرَّر في الواقع. بل نتكيّف معه وحسب. عندما مررتُ أمام الفندق الذي كان يملكه لاكي لوسيانو، فكّرتُ بوالدي، وتساءلتُ ما إذا كانت مواقفه التي كان يُمليها عليه ضميره الحيّ، هي نتيجة ما كان يرى ويسمع في أوساط عالم الإجرام الخطير، حيث حياة الإنسان غالبًا ما لا تساوي أكثر من رصاصة واحدة.

في الساحة أمام الفندق، سوّاحٌ يلتقطون صورًا ويُحدِثون ضجيجًا يذكّر بجلبة الأسواق الشعبيّة. إقتربتُ منهم، آملًا أن يتعرّف أحدهم عليّ. كنتُ بحاجة إلى التأكّد من أنني ما زلت أسطورةً، وأنّ نجمي لم يأفل بعدُ. لا ينظر السوّاح إلّا ذواتهم. يصطفّون بإيماءاتهم وابتساماتهم أمام الكاميرا، بالدور، تارةً فردًا فردًا، وطورًا أزواجًا، فرِحين بأثوابهم الصيفية الزاهية، وقمصانهم المطبّعة بأزهار وورود كبيرة، وقبّعاتهم الواسعة العريضة. تتراوح أعمارهم بين الستّين والثمانين، لكنّهم يتمتّعون بنشاط زمرة من الكشّاف. حتّى أنّني حزنتُ بعض الشيء لمّا رأيتهم يبتعدون من دون أن يعرفوني.

فجأةً، التفتَ إليّ عجوزٌ كأنّه مومياء في بدلة كتّانية، ورمقني بعينيه شبه المغمضتين. تأبَّط ذراع رفيقته، وهمس في أذنها بضع كلمات، مُشيرًا إليّ بذقنه. تنبَّه باقي المجموعة إلى أنّ العجوز ورفيقته بقيا في الخلف. إذ توقّفتُ لانتظارهما، صرخت إحدى السيّدات:

– أليس مغنّي الـ«بوينا فيستا»، ذاك الواقف هناك؟

إبتسمتُ لها، توكيدًا لِما قالت.

في الحال، رجع جمعُ السواح نحوي.

– إنّه هو. عرفته. شعره على شكل ذيل الحصان.

– إنه وسيمٌ في المدينة كما على المسرح، غرّدت بدينة قصيرة ترتدي الشورت.

– هل يمكن أن نلتقط صورةً معك يا سيّد...؟

سارعتُ إلى تذكيرهم باسمي، وأنا أدندن لحنًا، كما يليق بفنّان كبير أن يفعل:

– دون فويغو.

حار المارّة الكوبيون-الأفارقة الذين يجتازون الساحة ذهابًا وإيابًا في تبرير هذا الجمع الذي تحلّق حولي.

لم أكترث لهم لأنّهم لا يفقهون ما يجري، فهم يعيشون في كوكب آخر. أُقِرُّ بأنّني سُرِرْتُ بهذا المديح الذي أحاطني به هؤلاء السوّاح الشجعان وبفلاشات الكاميرات التي أمطروني بها. حتّى أنّني سامحتهم إذ نسوا اسمي الفني؛ لقد تعرّفوا عليّ وهذا يكفي. لقد تحلّقوا حول شخصي، وهذا ما أشعرني بأنّ المصادفة تعيد تكويني من جديد بجمع مكوّناتي: أفراحي وآمالي.

لا تشوب وجه أوريمي تجعيدة واحدة. ما زال الشاب نفسه الذي عرفته في الجامعة، على الرغم من الشيب الذي غزا رأسه. ما زال

على حاله نحيفًا مفعمًا بالنشاط، كأنَّما العمر زاده حيويةً. في حديقة إسميرالدا، استقبلني بابتسامة بعثت فيّ الارتياح. عرفتُ أنّني لن أعود خائبًا إلى المنزل هذا المساء.

أخذني بين ذراعيه، ثمَّ أبعدني قليلًا ليتأمّلني، وليجد أنّني لم أتغيّر، ثمَّ جرّني للجلوس تحت مظلةٍ منصوبة وسط العشب المجزوز.

– سعيد جدًا برؤيتك يا عزيزي خوان.

– ماذا تقول! أشعر وكأنّني أصغر بنحو ثلاثين سنة.

فرقع إصبعيه في اتّجاه نادل وأرسله ليُحضِر لنا المرطّبات.

– إعذرني لأنّني لم أستقبلك هذا الصباح. كنتُ منهمِكًا باجتماعٍ مع وفد صيني. تعرف كيف تسير الأمور مع الوفود. علينا ملاطفتهم واصطحابهم في نزهات والسهر على راحتهم. لم أستعِد أنفاسي إلّا بعدما ودّعتهم عند سُلَّم الطائرة. حمدًا لله، لم تتأخّر عن موعد إقلاعها.

– أدرِك ذلك... كيف حال مرسيدس؟

– بخير، بخير.. أوه، نسيتُ أن أتّصل بها.

مَدَّ يده نحو هاتفه الجوّال، لكنّه أحجَم. إقترب منّي وقال بحماسة:

– وأنتَ؟ إذًا؟ أخبرني. ماذا غدَوْت، أيّها الثعلب؟

– يا للأسف، فقدتُ حظيرتي.

زمّ شفتيه وهو يهزّ رأسه.

– عرفتُ ما حدث في بوينا فيستا. يا للأسف!

– نعم...

– أتساءل، إلى أيّ حدٍّ يمكنُ المضيُّ بهذه الخصخصات. نحن ندوس على مبادئنا.

وصل النادل حاملًا صينيةً فضيةً وعليها كأسان طويلان من الروم وفنجانَي قهوة.

إحتسى أوريمي جرعةً صغيرةً من كأسه، متلمّظًا متعتها، قبل أن يسألني بصوت خافت مفاجئ:

– ماذا ستفعل الآن؟

– ثمة أمور لا يمكن التراجع عنها يا أوريمي. لا يمكنني أن أحسّ بأنني حيٌّ أُرزق ما لم أُغنِّ. عندما أُمسِك الميكرو بقبضتي، فإنّما هو مصيري أمسكه بيدي. هل فهمتَ ما أقول؟

– طبعًا، فهمت.

حين رآني على هذه الحال، برَدَت حماستُه فجأةً. أشعلَ لفافة تبغٍ ونفث الدخان من فوق كتفه، وقال:

– الظروف قاسية.

ثمّ أضاف، مع أنّني لم أُخبره عن سبب زيارتي:

– إضطررتُ للاستغناء عن خدمات حوالى ربع الموظفين. كانت الظروف شاقّة في السنوات الأخيرة. إستغرقتُ أسبوعًا كاملًا في التفكير قبل أن أستدعي الموظفين الذين طالهم الصرف. كانوا يعملون هنا حتّى من قبل وصولي. أشخاصٌ رائعون حقًّا. لا يمكن أن تأخذ عليهم مأخذًا واحدًا.

– قانون السوق ليس سوى شكل معاصر من قانون الغاب.

نظر إلى عقْبِ سيجارته، وشفتاه مزمومتان، وقد انخفض حاجباه:

– تُقرَّر المصيبة من أعلى؛ وأمّا أمثالي فيُكَلَّفون بالمهمّة الشنيعة. أحيانًا تُحدّثني نفسي بالتخلّي عن وظيفتي هذه. أشعر بالعار من تنفيذي الأوامر هذه، دون أيّ حجّة لتبريرها.

قلتُ له وأنا أربّت على يده:

– لا يهمّ يا أوريمي.

– أنا متأسّف. حقًّا، أؤكّد لك. كنتُ أودّ أن أخدمك.

– لا بأس، لا بأس. لو كان الأمر وقفًا عليك، لقدّمتَ لي الجناح الملكي.

هرس لفافته في منفضة السجائر، أطرق مفكّرًا، ثمَّ قال:

– أمهِلني بعض الوقت يا خوان.

– لا تُجهد نفسك، أرجوك؛ أعرف كيف أتصرّف. صدّقني.

– أنا مُحرَج حقًا.

– هدّئ أعصابك. استرخِ. وكأنّك خائف من أن يحقنكَ أحدٌ إبرةً في العضل.

إبتسم أوريمي، ثمَّ تشجّع قائلًا:

– هل تذكر؟ ما إن كانت الممرضة تطلّ وفي يدها الحقنة، حتّى كنتُ أفرّ كالأرنب.

– كنتَ تركض مسرعًا، حتّى أنَّ ظلّك كان يستغرق أكثر من ساعة ليلحق بك.

ضحكنا، واستعدنا شيئًا من ذكريات الماضي لكي ننفض عن أنفسنا تعاسة الحاضر المؤلم. تذكّرنا الطالبات اللواتي كنَّ يُثِرنَ فينا عارِمَ الشهوات، وبخاصة اللعوبات المثيرات. عدّدْنا مئات المقالب والحماقات التي كانت تحفّزنا وتجدّد نشاطنا، وكذلك مئات الوعود والمواعيد الكاذبة التي كانت تخدعنا، حين كنّا قلبَين شغوفين في سعيٍ دائم، وسيمَين متهوّرَيْن، نطلب العُلى، وقلّما نهبط إلى أرض الواقع.

سررتُ لأنني غادرتُ صديقي على هذا النحو. لكنّني لمْتُ نفسي إذ جعلته في موقف حَرِج. أوريمي رجلٌ صادق نزيه. لا يستحقّ أن يشعر بالذنب بسببي، مع كلّ التوتّر الذي يمنيه به منصبه كمدير لهذا النادي الذي يرتاده أصحاب الحلّ والعَقد، المعروفون بنَزَقِهم

حيال أبسط الأمور. أمّا هو فمرغم على أن يراعيهم، يدلّلهم ويعاملهم كالملوك، لئلّا تتدمّر مسيرته المهنيّة بمجرّد تقطيبة حاجب.

رافقني أوريمي حتّى المرأب، وعرَضَ عليّ أن يقلّني بسيّارته. فقلتُ له إنَّ الطقس صافٍ، وأرغبُ في التنزّه قليلًا. لم يُلِحّ، بل عانقني مرّة أخرى، بشدّة، قبل أن يُطلِق سراحي.

8

ما كدت أجتاز قارعة الطريق حتّى اعترضني رجلٌ على الرصيف المقابل. كان شابًّا في حوالى الثلاثين من العمر، نحيل العود، عالي القامة كعمود المشنقة، وجنتاه ناتئتان، نظراته مصقعة قاسية تتناسب تمامًا مع حزّ في أسفل وجهه يستخدمه فمًا، لكنه يُنذِر بالشرّ:

– ماذا كان جمعُ السوّاح يريدون منك، منذ حين، على شاطئ البحر؟

– كلّ خير.

كان باديًا بوضوح أنّه من رجال الاستخبارات المزروعين عند منعطفات الشوارع. هافانا مليئة بمثل هؤلاء في ملابس مدنية، يقضون وقتهم في مراقبة الناس وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم.

– لم تُجِب على سؤالي وأنا لا أُحِبّ أن أُكرّر السؤال مرتين.

– لو كنتُ مكانك لعدتُ إلى مرقبي، ولزمتُ جانبَ الحذر.

– لا تنفعل كثيرًا يا عزيزي.

– ماذا تريد؟ هل تبحث عن المتاعب؟

أربكته جسارتي.

في الواقع، صرتُ لا مباليًا إلى حدّ أنني مستعدٌّ لأن أرمي بنفسي تحت عجلات القطار. لا يهمّني إن انتهيت في مخفر الشرطة أو في مقبرة جَماعيّة. ليس من خطرٍ أشدّ عليّ منه عدم اعتلاء خشبة المسرح مجدّدًا.

أدرك الشاب أنّه يُكلِّم شخصًا من الطبقة الراقية، فعاد إلى موقعه في الـ«إسميرالدا» مطأطئ الجبين. لا بدّ أنّه تساءل ما إن كانت حماسته الزائدة قد قادته هذه المرّة إلى مأزق. عندما امتقع وجهه فجأةً، أدركتُ أنّه يرجو في أعماق نفسه ألّا أَشي به. طيلة حياتي، لم أشِ بإنسان قطّ. ثمَّ إنّها لم تكن غلطته. عندما يُربّى المرء منذ طفولته على الجاسوسية، فمن النادر ألّا يَحْسب ظلّ الشجرة عدوًّا يتربّص به.

ما يُغيظني أكثر فأكثر؟ الغضب الذي بدأ يعشّش داخلي، والنامي باستمرار. لستُ فظّ الطبع ولا أُحبّ المشاكل؛ العدوانية التي تُنذِر بالحلول مكان الطيبة التي تميّزتُ بها منذ نعومة أظفاري، بدأت تُرعبني، تمامًا كما ترعبني العزلة المَهولة التي أعيشها.

لم تعد ساقاي لتحملاني مع بلوغي حديقة كوبيليا. جلست على مقعد، على مقربةٍ من عجوز فقد معظم أسنانه، ومنشغِل بإتلاف ما تبقّى منها على إصبع من الشوكولاته، وأنا أحاول أن أركِّز اهتمامي على جمهرة من الناس يتزاحمون حول بائع بوظة. ثمّة صبيّ يشي مظهره الرثّ بأصوله الريفية بسترته الحمراء الزاهية التي بالكاد تناسب مقاسه، وحذائه المثقَل بالوحل، ينتظر بصبر على الرصيف هو وحقيبته الكرتونية. لا يتوقف لحظةً عن مراقبة ما حوله وكأنّه يخشى أن يُصيبه مكروهٌ مفاجئ. وضعيته هذه سرعان ما اجتذبت انتباه شرطيّ اقترب منه وحدّق في وجهه قبل أن يطلب منه أوراقه الثبوتية.

نظر الصبيّ بهلع إلى السلسلة البشرية التي تحاصر بائع البوظة، وحاول التقاط حقيبته؛ أشار الشرطي إلى زميله للانضمام إليه.

دقّق الشرطيان في أوراق الصبي، وسأله أحدهما:

– جئتَ من بالما ديل سور؟

– نعم سيّدي.

– أيّة قرية هذه؟

– إنّها ضيعة صغيرة لصيّادي السمك تقع جنوبي فيكتوريا دي لاس توناس.

– ليست قريبة إذًا... هل لديكَ ترخيص يسمح لك بدخول هافانا؟

– هل يلزم تصريح؟

– بالتأكيد.

– أنا كوبيّ.

– صحيح. لكنّك لستَ من هافانا. سواء أكنتَ من باراكوا أم من سان أنطونيو يجب أن تستحصل على ترخيص يجيز لك المجيء إلى هنا. وإلّا، فإنّ العاصمة سوف تغصّ بالناس، ولا يعودُ بإمكان أحدٍ أن يراقب أحدًا.

تناول الشرطي جهازه اللاسلكي، أجرى اتّصالًا بمركز الشرطة وطلب سيارة لنقل الموقوفين. قال للصبيّ:

– وضعك غير قانونيّ يا صغيري.

– لم أكن على علم بذلك، سيدي الشرطي.

– كلّ يوم يتعلّم الإنسان شيئًا جديدًا.

– أقسم لك بأنني كنت أجهل أنّه يجب الحصول على ترخيص.

– أصدّق كلامَك، إلّا أنّ ذلك لا يعني أنك لم تخالف القانون. فالمخالفة مخالفة سواء أكانت متعمَّدَة أم غير متعمَّدَة. ستأتي معنا إلى مركز الشرطة.

أمسك الشرطيان بالصبيّ، كلٌّ من جانب، لمنعه من الفرار. أخذ الصبي يرفس الأرض، من دون أن يرفع نظره عن الحشد البشري المحيط ببائع البوظة.

وصلت سيارة الشرطة، ودفع الشرطيان بالصبيِّ إلى داخلها.

فضّلتُ الانتقال إلى حيّ آخر.

فاجأني الليل وأنا ما زلتُ في لفّ ودوران.

عند منعطف أحد الشوارع، سمعتُ صوتًا يناديني. إلتفتُّ فإذا به لويس، بوّاب الـ«بوينا فيستا»، يقف حارسًا على بوابة الـ«غاتو تويرتو»، وهي عبارة عن صالة صغيرة يـؤدّي فيها بعض المغنّين التينور المحلّيين.

– ماذا فعلتَ لتجد عملًا بهذه السرعة؟

– أنا لا أُضيّع وقتي. ما إن أُشيع خبر خصخصة بوينا فيستا حتّى هرعتُ على الفور إلى تقديم طلب عمل في كلّ الأمكنة. وافقت الـ«غاتو تويرتو» على طلبي منذ أكثر من شهر.

– أكثر من شهر؟ ظننت بأنّ المسألة تعود إلى أيام معدودة.

– لا، أبدًا! منذ سنة والمفاوضات جارية. كان الجميع على علم بالأمر.

– هل كان بيدرو على علم هو أيضًا؟

– طبعًا! ألـم تلاحظ أنّـه لـم يعُد يبالي بـأيّ شـيء فـي الآونـة الأخيرة؟

– لم يقُل لي شيئًا. يا له من حقير!

شعرت بغضب يغلي في داخلي.

– هذا المساء، لدينا عرض خوانا باكالاو. إعتبرها دعوة منّي

(لاحظ لويس ترددي، ففتح باب الصالة على مصراعَيْه).

– تعال، ادخل. ستموّه قليلًا عن نفسك.

تبعته رغمًا عنّي إلى الصالة التي تغصّ بالحضور.

كانت خوانا باكالاو تشعّ تحت الأضواء الكاشفة. على الرغم من تقدّمها في السنّ، كانت لا تزال تسحر المعجَبين بأغانيها العجيبة الغريبة، تتخلّلها نكات عشوائية. مفاجئة، وخَرِفَة على الأرجح، لم تعد بنجمة بقدر ما هي ظاهرة مثيرة للفضول وتستحقّ المشاهدة. لا أعرف كيف تتدبّر أمرَها لكي تستمرّ في إدهاش الناس واستقطابهم. عرفتُها عندما كانت تأسر جمهورَها بشخصيتها القوية وحضورها الساحر. أمّا اليوم، فبتُّ لا أعرف الأسباب التي تُطيل عمرها الفنّي. لم تعُد سوى كتلة من التجاعيد واللحم المترهّل، يعجز ثوبها الاستعراضيّ البرّاق عن إخفائها. بماكياجها الصارخ، وكعيكتها الصارمة، تُمضي وقتها في المزاح والتهريج، أكثر منه في إتقان ذخيرتها الفنّية، وذلك لحسن حظّ وسعادة جمهورها.

في غمرةِ أدائها الغنائي، لمحتني. رفعت يدها طالبةً وقْفَ الموسيقى، ثمَّ أشارت بإصبعها إليّ وصاحت:

– أيها الأصدقاء الأعزاء، هذا المساء، لنا الشرف الكبير بأن يكون بيننا الفنان العظيم الرائع الأسطوري، دون فويغو.

إلتفتت الصالة كلّها نحوي، وانهمرت عليّ عاصفةٌ من التصفيق والتهليل.

إلتمعت عيناي بدموع الفرح، حييتُ الجميع عن يساري وعن يميني ووراءي وأمامي، وأسرعتُ إلى المسرح للوقوف إلى جانب العزيزة خوانا التي بدت لي، في تلك اللحظة بالذات، أعظم من كلّ مطربات العالم.

أخطأتُ فعلًا لأني يئستُ بسرعة. الليل لي. أنا أميره وعلّة وجوده. خوانا باكالاو رفعت الستار الذي كان يحجبني عن الناس. لقد كنسَتْ بيدها المباركة ظلال الشكّ التي أرادت أن تنال من عظَمَتي. لم أنتهِ بعد. دعتني خوانا إلى أن نغنّي معًا للجمهور، قبل أن تطلب منّي أن أؤدّي بمفردي أغنية «لا إيرا إيستا باريبندو أون كورازون» للشهير سيلفيو رودريغيز. لم آسف إلّا لاعتلائي المنصّة بقميصي العادي، وسروالي المبتذل، وحذائي البالي. لكنني برعت بالأداء. سحرتُ بصوتي جميع المستمعين. في غرفة الملابس، اعترفت لي خوانا بأنها نادرًا ما تسمع صوتًا بهذه القوة وهذه الدقّة. في ختام السهرة، وإذ كان الجمهور يُلِحُّ لتمديدها، أمسكت خوانا بيدي ورفعتها عاليًا، حتّى خلتُ نفسي أعلو تلقائيًّا عن الأرض وكأنّني أحلّق عاليًا. خجلتُ بشدّة لأنني انتقصت سابقًا من شأن هذه السيّدة، ولم أُقدِّرْها حقَّ قَدرِها. غادرتُ الـ«غاتو تويرتو» وكأنّني على بساط الريح.

9

كانت الساعة تُشير إلى الرابعة عندما هبطتُ من جديد في كازا بلانكا. كان كوخ بانشيتو غارقًا في الظلام. في هذه الساعة يكون العجوز في سفرٍ إلى عالم آخر يحاكي الغيبوبة المخمورة.

أيضًا، لم أشَأْ أن أُزعِج سيرينا، فربّما أَوقظ ذلك خافيير، فتأخذه عندئذٍ موجة من الهستيريا والهذيان، وقد يهدد بطردِنا جميعًا من «منزله».

تمشّيتُ في شوارع الحيّ الخلفية النعسة، والخالية إلّا ممّن جفا أجفانَهم الكرى، وهم عادةً من الشباب العاطلين عن العمل، يقضون معظم الليل في سرادق البوابات الضخمة، كبديل عن الأسرّة التي صادرتها أفراد أسرهم الكبيرة.

سرتُ على امتداد مجرى النهر حتّى محطّة العبّارات، وفي طريقي، أقلقتُ راحة عاشقين كانا يتعانقان سرًا خلف بعض الأشجار. ثُمَّ عدتُ إلى دفء الترام خاصّتي أنتظر فيه طلوع الفجر.

يعجبني أن أتمدّد على المقعد الخلفي، آمنًا مطمئنًّا في العتمة، وحيدًا مع أشجاني. حفيف أوراق الشجر، وهدير المياه يضبطان إيقاع دقات قلبي. أحِسُّ بأنّني خفيف وكأنّني خارج من جلسة علاج

نفسي. غير أنّني في ذلك المساء، لم أكن لوحدي في الترام؛ فقد تحرّك شيءٌ ما في المقاعد الوسطى. أَصَخْتُ السَّمْعَ، فتناهى إليّ همسٌ مخنوق. تأكّدت أنّ هناك غيري في الترام. أخرجتُ بطارية جيب صغيرة أعلّقها على الدوام في حلقة مفاتيحي، أشعلتها، ثمّ مشيتُ على رؤوس أصابعي، مقتربًا من مصدر الصوت. رأيتُ أولًا شعرًا منفوشًا يتدلّى خارج المقعد إلى الجهة اليُمنى. وما إن أضاء مصباحي الصغير جزءًا من الجسد الممدّد على المقعد، حتّى أرعبتني صرخة ذُعرٍ، دافعةً بي خطوة إلى الوراء. كذلك الأمر، قفز الشخص الدخيل عن المقعد وذراعاه إلى الأمام يحتمي من الشعاع المنبعث من مصباحي الصغير. لقد كانت آنسة.

قلتُ لها، وأنا لا ازال أسلِّط الضوء على وجهها:

– ماذا تفعلين هنا؟

– ليس لي مكان آوي إليه.

عدّلت الشابّة من ثوبها وشعرها، واستعدّت للرحيل.

– يمكنكِ أن تبقي إن شئتِ.

نظرت من خلال زجاج النافذة إلى السماء وكأنّها تستشيرها:

– لا يهمّ. لن يتأخر الفجر عن الطلوع. أُفضّل أن أذهب.

– لكنّ الساعة ما زالت تُشير إلى الرابعة.

– ألا تستطيع إزاحة مصباحِكَ عن وجهي؟ الضوء يؤلِم عينيّ.

أطفأتُ ضوء المصباح.

جلست متفاديةً نظراتي وقالت:

– لم أكن أعلم أنّ هذه القاطرة محجوزة.

– أليس لديك من عائلة هنا؟

– كلّا.

– هل تهربين من أحد؟

– شابّة في عمري لا تهرب، بل ترحل.

خفضت رأسها وأخذت تقضم أظافرها بتوتّر، ثمّ قالت:

– وصلنا أخي وأنا إلى المدينة هذا الصباح، بحثًا عن عمل.

– أين أخوكِ؟

– لا أعلم. كنّا معًا في إحدى الحدائق، وأردتُ أن أشتري ما لقتات به. كان ينتظرني عند الرصيف، ثمَّ جاء شرطيان واقتاداه في سيارة عسكرية.

– متى؟

– قبل غياب الشمس. كانت أغراضي الشخصية في الحقيبة التي بحوزة أخي. لقد أخذاهما معًا. والآن، ليست لديّ أية ملابس بديلة. لم يبقَ معي سوى ثلاثة بيزوس من الفكّة التي أعادها لي البائع. كلّ ما نملكه كان في تلك الحقيبة: ملابسنا، نقودنا،... كلّ شيء. لا أعرف ما عساي أفعل الآن.

– أُقتيد أخوك من حديقة كوبيليا؟

– لا أعرف اسم المكان الذي كنّا فيه، لكنّ الحادثة وقعت فعلًا في حديقة. كان هناك بائع بوظة جعل كشكه في ظلّ أشجار عملاقة، وكان يصطف أمامه طابور طويل. كنتُ أنتظر دوري، عندما شاهدتُ الشرطةَ تعتقل أخي. لم أخَفْ في حياتي مثلما خفتُ في تلك اللحظة، فتواريتُ عنهم من دون أن أعرف حتّى إلى أين أتّجه.

– ألا يرتدي أخوكِ سترة حمراء، ويحمل حقيبة كرتونية؟

تشنّجتْ فجأةً:

– هل أنت شرطي؟

– أبدًا.. أبدًا.

تراجعتْ حذرةً حتّى التصقت بالنافذة:

– إن لم تكن شرطيًّا، فكيف عرفتَ إذًا أن أخي يرتدي سترة حمراء؟

– كنتُ أقف في مكان قريب من الحادثة، وشاهدت ما حصل.

حرّكتْ رأسها في إشارة إلى أنّها لا تصدّق ما أقول، وبحثتْ بعينيها عن طريقٍ للهرب منّي، لكنّها تبيّنت أنني أسدّ الممر بجسمي، ولن تستطيع القفز فوق المقاعد.

– لا أصدّقك. أنتَ شرطي. لقد اعترف أخي فأرسلوك للبحث عني.

– أنا لستُ شرطيًّا. أنا دون فويغو، المغنّي.

– إستغرق وصولنا إلى هنا أسبوعين قضيناهما أحيانًا سيرًا على الأقـدام، وأحيانًا أخرى نستوقف العربات لتقلّنا. نمنا في الإسطبلات، في الخنادق، تحت الشجر وتحت المطر. لا أريد العودة إلى ضيعتي. أرجوك.

هدّأتُ من روعها:

– لا تخافي. تستطيعين البقاء هنا ما يحلو لـكِ، لكن، خلال النهار، لا تخرجي إلى الشارع إلّا للضرورة القصوى. هل ترين هذا البناء الزجاجي في الخارج؟ إنّها محطة العبّارات.

– أيّ عبّارات؟

– الـ«لانشيتا»، الزورق الذي ينقل الركّاب من ضفة إلى أخرى، من الصباح إلى المساء. حاولي الرحيل من هنا قبل أن تفتح المحطة أبوابها. سأتركك الآن. عليّ أن أذهب.

لحظةَ وصولي إلى عتبة القاطرة، صاحت بي:

– هل سيُخلون سبيله؟ لم يرتكب أخي أيّ خطأ يُحاسَب عليه. ماذا سيفعلون به؟

– ربما يُعيدونه إلى ضيعته.

– لماذا؟

– للدخول إلى هافانا، يلزم ترخيص. أخوك لم يكن يملك ترخيصًا.

– أتينا بحثًا عن عمل.

– لا عمل في هافانا.

عندما ترجّلتُ من الترام، رأيتها تُلصِق وجهها بزجاج النافذة لتراقبني. لوّحتُ لها بيدي فلم ترُدّ. سلكتُ الطريق المؤدّي إلى المنزل، راجيًا الله ألّا يستفيق خافيير عند دخولي.

بانشيتو كان مرّة جديدة صاحب الفكرة: «لم ترَ ابنتك منذ دهر يا خوان. تقضي أيّامك وأنت تقضم أظافرك، آملًا أن يرنّ جرس هاتفك لتتلقّى مكالمةً تُخرجك من عتمة العزلة. ولكنّ شيئًا لم يحدث. لِمَ لا تذهب لزيارة ابنتك؟ لا بدّ أنها أصبحت آنسة صغيرة».

هاتفتُ ابن عمّي، فيليكس، وقلتُ له أن يعرّج عليّ ليقلّني إلى ريغلا. أجابني أنّ سيارته الدودج تعاني من عطل، لكن، إذا كان الأمر طارئًا، فسيطلب إلى زميله أن يعيره سيارته. فيليكس، عندما يلجأ إلى حكاية الزميل هذه، وإنّما يريد أن يقول مواربةً أنّه بحاجة لأن أدفع له تكلفة الرحلة. هو عادةً لا يلجأ إلى مثل هذه الألاعيب معي، لكن، إذا حدث، فهذا يعني أنّه مُفلِس تمامًا. فهمت ووافقت. ذهبتُ مشيًا إلى الحيّ المجاور لأشتري دميةً لابنتي، ووشاحًا لإيلينا، وطلبتُ من فيليكس أن يوافيني إلى المستديرة التي تؤدّي إلى مخزن الحبوب.

وضعت إيلينا الدمية على منضدة، وقالت:

– لقد تخطّتْ ابنتنا عمر اللهو بالدمى.

– لم أعرف ماذا أشتري لها.

– لديها كلّ ما يلزمها.

– لا شكّ في ذلك... هل يمكن أن أراها؟

– ستعود من المدرسة بعد قليل.

دعتني إيلينا إلى الجلوس في غرفة الاستقبال، وقدّمت لي زجاجة جعة. كنت أتوقّع استقبالًا جافًّا، وها أنذا أحظى بمراعاة لطيفة لم تكن لتخطر في بالي. زوجتي السابقة فرحة برؤيتي. المرّة الأخيرة التي زرتها فيها تعود إلى ثلاث سنوات. في ذلك الحين هددتني بأنّها سوف تقتلني إن عدتُ ثانيةً لأعكّر عليها صفْوَ عيشها.

– شكرًا على هذا الوشاح. ولكن، ما كان عليك تكبّد العناء.

– هل أعجبكِ؟

– يا له من وشاح رائع.

– قال لي البائع إنّه آتٍ من جزر الهند. هو بالتأكيد لا يقول الحقيقة، فقد كتب عليه أنّه صُنِع في تايوان. لكن، عامِليهِ وكأنّه مصنوع في جزر الهند.

ضحِكتْ بأسى:

– خوان، اللفتة هي ما يهمّ. هلّا بقيتَ معنا لنتغدّى سويةً؟

– لا أعتقد. أنتظر مكالمة، ولا أحبُّ أن أقوم عن المائدة على عجل.

– أخبرني راوول. ما أبشع ما يحدث لـ«بوينا فيستا».

– هي الحياة.

– قلقتُ عليكَ. آمل أن تخرج من هذه الضائقة.

– تعرفينني. أسقط على الدوام واقفًا على قدميّ.

صمتنا معًا دقائق طويلة كما لو أنّنا استنفدنا الكلام كلّه. أجلتُ بصري على قِطعِ الأثاث من حولي: التحف على الخزانة الصغيرة، البساط المفروش على الأرض،... وركّزتُ على لوحةٍ تُظهر موسيقيًّا يعزف السكسيّة داخل حانة خافتة الأضواء.

– إشتريتُ هذه اللوحة لأنّ العازف يُشبهك قليلًا.

– هل ترين أنني تقدّمتُ في العمر إلى هذا الحدّ؟

– ومن لا يتقدّم في العمر يا خوان؟ منذ أن اشتريتُ هذه اللوحة، لازمني الإحساس بأنّك في البيت.

– ما تقولينه يا إيلينا يؤثر فيَّ عميقًا.

– لزمني وقت طويل لأدرك إلى أيّ حدّ كنتُ أنانية وعمياء.

– بل كانت غلطتي أنا. لم أكن زوجًا صالحًا ولا أبًا يقوم بواجباته كما يجب.

– «الفنّان يتقاسمه جميع الناس.»

– بيْدَ أنني لم أكن عادلًا في توزيع حصصي. كنتُ أُعطي كياني إلى الجمهور، وأُهمِل عائلتي.

– مع ذلك، كنتُ قاسيةً جدًّا معك.

– كان هذا في الماضي. لقد ازددتِ جمالًا وفساتينك بغاية الروعة. ماذا تريدين أكثر؟

ضغطتْ على منخرَيْها لخنق الدموع الأولى.

– ألستِ سعيدةً مع رجلكِ موظف الجمارك؟

– راوول عذب كالعسل.

– إذًا، أين المشكلة؟ هل يخدعك ويخونك مع أخريات؟

أجابتني بابتسامة صغيرة غامزة أبرزَت جمال وجهها (عندما تبتسم إيلينا، تطرد من حولها أرواح الشرّ كما بتعويذة سحرية، فيشعّ كلّ ما حولها بهجةً وصفاءً).

– ليس بقدرك أنت. كنتَ تعود كلّ مساء تقريبًا برائحة عشيقاتك إلى المنزل، وحالما أحشرك لتعترف، كنت ترتمي على قدميَّ وتُقسِم بأنّك لن تُعيد الكرّة أبدًا...

– كنتُ في طيش الشباب.

– جميعنا نمرّ بمرحلة الشباب، ونرتكب حماقات.. لم أكن لأسامحك لأنني كنت أحبّك.

– وهل تسامحين موظف الجمارك؟

– هذا لا يُشبه ذاك. كنتَ مختلفًا.

إستدرتُ نحوها، فلم أجِدْ ما أقوله.

إستمرّت إيلينا بالابتسام، وقد علقت عينيها في عينيّ. كلّ ما قلناه حتّى هذه اللحظة إنّما كان مجرّد أحاديثَ جانبيّة. أخافتني ابتسامتها المليئة بالندم كما يبدو، وعيناها اللتان تتوسّلان ما لا أستطيع أن أُقدّمه لها، وأصابعها التي أمسكت بقبضتي.

– إيلينا، أودّ أن نبقى صديقَيْن، وأن تسمحي لي برؤية ابنتي أكثر.

– لم أمنعْكَ عنها أبدًا.

– هذا صحيح. لكنَّ استقبالك لي كان سيئًا للغاية.. أمّا الآن، فلكِ أن تتخيّلي كم أنا مسرور. لا يمكنك أن تقدّري مدى ارتياحي لأنّك استقبَلتِني في بيتك كصديق...

– خوان، أنتَ أكثر من صديق. أنتَ والد ولدَيَّ. لقد استغرقتُ وقتًا طويلًا لأدرك أخيرًا الخطأ الذي ارتكبته بحقّك.

– هذه أمور قد تحدُث. لا أكنّ ضغينةً لأحد، وبخاصّة لأشخاص أحببتُهم.

تركتني مسرعةً نحو المطبخ لتُخفي دموعها.

بالنهاية، كانت زوجتي طوال ستة عشر عامًا.

لم أرَ ابنتي.

عندما اتّصلتْ بها والدتها لتبلّغها بأنّني أنتظرها في البيت، ردّت إيزابيل بأنّها في رحلة مدرسية، ولن تعود إلّا عند العصر.

بدأ فيليكس يتذمّر من انتظاري في الشارع. أخذ يُطلِق بوق سيارته كلّ دقيقتين، ليذكّرني باحترام الموعد. إستمرّ على هذه الحال حتّى كاد يُفْقِد سكّان تلك المحلّة صوابهم، لو لم أستأذن من إيلينا التي قرّرت أخيرًا ترك يدي على مضض، بعدما أبقَتْها طويلًا بين يديها.

– عُدْ متى تشاء.

– أعدكِ بذلك.

10

ها أنا أكتشف كازا بلانكا من جديد.

أربع سنوات وأنا أتجاهلها.

أمّا الآن، بعدما أصبحتُ عاطلًا عن العمل، فقد صار الحيُّ شغلي الشاغل. لا حاجة لنفحة عبقريّة، ولا لضرب من السحر، لأفهم أنّني لن أعرف من كازا بلانكا إلّا الليالي الفارغة كالآبار الجوفاء، وبُسُط النوافذ الشبيهة أكثر بشرائط مهترئة متدلّية من الكوّات المسيّجة بقضبان، والصِبية الذين يسعون لاهثين خلف الطابة وكأنّهم يطاردون جِرذ المجارير. نهار كازا بلانكا كعبور في العدم. الكَلَل يسكن الوجوه، ما لم يعشّش في عتمة الزوايا كالعنكبوت. وإذا حدث أن احتشد الناس بين الحين والآخر أمام أحد البيوت، فذلك لمشاهدة كاهن بابالاوو قرَّر أن يحسب نفسه الإله، بعدما طمر معجزاته لدهر كامل تحت سبعة عشر قفلًا.

كازا بلانكا هي واجهات متصدّعة اشتاقت منذ زمن بعيد، إلى لمسة الكلس البيضاء الدافئة؛ خطوط مُشوَّشة حلَّت محلّ الأفق؛ طرقات مزيّحة بالحفر تصرّ تحت النعال من دون أن تقودها إلى أيّ مكان؛ أبواب مفتوحة على بؤس داخلي، يَرويه بلُغة أزلية، أثاث عتيق

مستعمل. ففي كوبا يُستَعاض عن كلّ ما لا يستطيع الفقر تأمينه، بالعتقيّات والأنتيكا؛ حوانيت ذات رفوف تكاد تخلو من كلّ شيء. عجائز لا يبارحون كراسيهم النائحة؛ فتيات يعْمَلْنَ كبائعات هوى فقط لتصريف الضجر، لقاء أجر زهيد، أقل تكلفةً من الواقي الذكري؛ شباب دعكته الموهبة فيكفي أن تُعطيه طبلًا حتّى يصنع لكَ حفلًا، أو ريشةً فيشكّل لك لوحة لكبار الرسّامين، على أيّة قماشة أو ورقة، أو يكفي أن تنصب له عارضةً حتّى يقفز إليها ويتعلّق بها ليؤدّي حركات بهلوانية خطيرة تقطع الأنفاس؛ يهزأون من أي شيء ويضحكون حتّى الثمالة ليقنعوا أنفسهم بأنّهم سعداء.

حفلاتي الغنائية وفّرت عليّ الانصهار مع واقع هذه الضاحية المميت. أتساءل عمّا كنتُ لأفعله بشبابي لو كان عمري أصغر بأربعين عامًا. على الأرجح كنت سأنتهي طعامًا للأسماك إن لم أنجح في الوصول إلى فلوريدا، على ظهر طوفٍ متهالك.

وَكَزَني بانشيتو بطرف عصاه، ونهرني قائلًا:

– في أيّ عالَم أنت سارحٌ؟.. عُد إلى الأرض. إصحَ من سُباتِك..

ثمَّ أشار إلى هاتفي الملقى على الصندوق الفاصل بيننا:

– رنّ جرس هاتفك. أظنُّ أنّك تلقّيتَ رسالة.

على شاشة هاتفي، قرأتُ اسم: أنشيا.

ثمَّ قرأت الرسالة التالية: «إذهبْ إلى خوليو لوبيز في فندق ناسيونال، وقلْ له إنّني مَن أرسلك. إنّه صديق».

إستقبلني خوليو لوبيز في مكتبه المشرِق الرّحب. إنه رجلٌ مكتهلٌ مهذّبٌ وأنيق. يرتدي بدلةً أجنبية الصنع ويضع في معصمه ساعةً عريضةً مطلية بالكْروم. صريح النظرة، دقيق الشاربين، أمّا قبضته فتدّعي المصافحة الخشنة تمامًا كالحطّابين.

– لا أرفض طلبًا لأوريمي، فأنا مَدينٌ له بالكثير. والحقُّ، إنه ليس لديّ شيءٌ يذكر لأقدِّمه، ولكن، هل يمكن أن أقول لا لصديق؟ في البداية، ستحلّ مكان عازفٍ غادر إلى سان كريستوبال ليزوّج ابنته. بتغيّب أسبوعًا كاملًا. بعد ذلك، سوف نرى. ربما تسنح لك فرصة ما.

– هذا العرض يناسبني تمامًا. لا أريد أن تمرّ الأيام وأنا قابع مكتوف اليدين.

– جيّد. ستغنّي على ترّاس الفندق صباحًا وبعد الظهر.

– ولِـمَ ليس في الصالة الكبرى في الطابق الأرضـي؟ لقد شاهدتهم أثناء دخولي يُعِدّون المسرح.

– هذا المساء نقدّم حفلة غنائية.

– ومن سيغنّي؟

– أيالا خونيور.

– أعرفه. غنّيْنا معًا. يمكن أن نكون ثنائيًّا رائعًا الليلة. منذ أقلّ من أسبوع غنّيتُ في الـ«غاتو تويرتو»، مع خوانا باكالاو. وقد حقّقنا نجاحًا ساحقًا، نحن الإثنين.

قاطعني بإشارةٍ من يده:

– كلّ شيءٍ في حينه.

– قُلْ لخونيور إنّ دون فويغو يريد أن يغنّي معك على المسرح.

سيقفز من شدّة الفرح.

لكنّ حماستي تهشّمت أمام تكشيرة فاعل الخير.

– إسمع يا خونافا. ما زلتُ حديث العهد في هذا المكتب. بالكاد مضى شهران على وجـودي هنا. ما زلـتُ أجهل كيفيّة إدارة مؤسسة بهذا الحجم، كما أجهل أيضًا نوع العلاقات وتفاصيلها التي يجب مراعاتها مع الفنّانين. قبل أن أتسلّم هذا المنصب، كنتُ أعمل في وزارة الثقافة، في مجال الكتب. لا أعلَم لماذا سلّموني إدارة فندق

ناسيونال. لا أريد أن أجازف باتّخاذ قرار قد لا يكون صائبًا. ولئن قبِلتُ أن أساعدَك، فلأنّني، ببساطة، أحترم صديقي أوريمي.

ها أنا، دون فويغو، المغنّي ذو السحر الذي لا يفنى، الفنّان الفتّان، مُلهِب المسارح والجماهير، وخاطف قلوب النساء، أتحوّل إلى مجرّد شخص يتنقّل بين المقاعد على ترّاس فندق ناسيونال، بلا ميكرو ولا أبّهة، بل يكتفي بغيتار غجري قميء، وبقلبٍ متلبّد. ينتظر بفارغ الصبر إشارةً من زوج عجائز، شبه غائبَيْن عن الوعي، بأن يؤّدي أغنيةً تهدهدهما ليغفَيا قريرَيْ العين.

إتّصلتُ مساءً بسيرينا لئلّا تقلق عليّ. ثمَّ توجّهتُ إلى حانة في عمق زقاق مُعْتِمٍ في سان كارلوس، لعلّ السُكْر يغرق همومي. كنتُ أخجل من نفسي إذا ظهر ظلّي في واجهةٍ زجاجية، أو مررتُ تحت مصباح من مصابيح الطريق. بعدما أنهكني التعب وأنفقتُ آخر بيزوس في جيبي، قفلتُ راجعًا إلى كازا بلانكا. سرتُ بمحاذاة ضفة الجون، أرمي من حين لآخر حصاةً في الماء لأشاهد انعكاسات أضواء الضاحية تتراقص على سطح المياه المتموِّجة، هذه الضاحية التي لا تنام على الرغم من كثرة الشرب والسكْر الذي يتعتعها. بعد ذلك، جلستُ على حافّة رصيفٍ عائم منخور أستمع إلى فقش الموج في عتمة الليل. عندما وصلتُ إلى الترام، إلى ترامي، سمعتُ صوت غناء ينبعث من خلف أكَمَةٍ صغيرة. لم يكن الصوتُ ساحرًا، لكنّ النغم كان مؤثّرًا وكلمات الغناء شاعرية.

رأيتُ شابّة تجلس القرفصاء على الضفّة. كان نور مصباح الطريق من فوقها يلهب خصلاتها الصهباء المنسدلة حتّى ظهرها. إنّها الشابّة الهاربة من الشرطة التي اعتقلتْ أخاها في حديقة كوبيليا. كانت تغسل ثوبها وتعكّه بيديها، عاريةً إلّا من حمّالة الصدر والسروال

الداخلي. إلتفتتْ حينما سمعت وقْعَ خُطاي، وَلَوَتْ رأسها قليلًا لكي تتأكّد من هوية القادِم. قلتُ لها:

– هذا أنا، دون فويغو المغنّي، لا تخافي.

وقفتْ متأهبةً لمواجهتي:

– لقد كذبتَ عليّ.

– أنا؟

– نعم أنتَ. ومن غيرك؟ أنتَ شرطي. حسنًا فعلتُ إذ أخذتُ حذري منك.

– لستُ شرطيًّا.

– وبرأيكَ، ماذا كان رجال الشرطة يفعلون هنا صباح اليوم؟ أنا واثقة من أنّكَ وشيتَ بي، فجاؤوا يبحثون عنّي. إضطررتُ إلى الاختباء بين الأشجار حتّى هبوط الليل.

– لم يأتِ رجال الشرطة للبحث عنكِ. لقد اكتشفوا جثة سكّيرٍ قتيلٍ مرميٍّ عند أسفل المنحدر على مقربة من هنا.

عادت إلى غسل ثوبها، من دون أن تشيح ببصرها عنّي.

– من النادر أن يقع حادثٌ من هذا النوع في المنطقة. ولكن، عليكِ أن تلزمي الحذَر. لا يعرف المرء من قد يعترض طريقه في الليل. سكر بعض الناس مسموم.

أجابتني بنظرة حادّة:

– ليس من مصلحة أحد أن يرفع يده عليَّ.

– أنا لا أنوي فعل ذلك.

– معلوم!!

بسطتْ ثوبها على طول ذراعيها لتعاينه، ثمَّ أعادته إلى الماء.

– لن يجفّ هذا الثوب قبل طلوع الفجر.

– ما عليكَ. لستَ أنتَ من سيرتديه.

تابعتْ فرْكَ الثوب بعصبية في الماء.

– ماذا كنتِ تغنّين قبل حين؟

– كنتُ أغنّي وحسب... لماذا لا تدعني وشأني؟

– أريد فقط مرافقتك.

– يكفيني ظُلّي رفيقًا.

إستندتُ إلى جذع شجرة، مكتوفَ اليدين، وأخذتُ أراقبها. هذه الفتاة تُشغلني. ثمة شيءٌ فيها يدهشني ويضعضعني في آن. لها جسدٌ يخطف الأبصار، لا مثيل له إلّا في الأحلام. لكنَّ سروالها الداخلي من النوع القديم، وحمّالة صدرها الفلاحيّة لا تنسجم قط مع نهدَيْها المصقولين. مع ذلك، هي أرقى من كلّ ما يُحيط بها.

– هل من أخبار عن أخيكِ؟

لم تُجِب على سؤالي، بل ابتعدت لتنشر ثوبها على غصن شجرة، ثمَّ وضعت يديها على خاصرتيها، منتظرةً أن أنسحب وأختفي من أمامها.

تأمّلتُها بنظراتٍ نهِمة، كمن سيفقد بصره بعد دقيقة. أعرف أنّ عمري لم يعد يسمح بأن أخوض مغامرات حمقاء، غير أنّ بعض المخاطر فيها من الإثارة والتشويق أكثر ممّا في الفتح والغزو. لو خُيِّرتُ بين الغناء في أعظم مسارح العالم، وبين قضاء عشر دقائق وأنا ألتهمها بناظِرَيَّ، لأحرقتُ هذا المسرح العظيم، فقط من أجل مشاهدتها بالكامل، في نورٍ اللهيب الساطع.

– حسنًا. كحّلتَ عينيك بجمال منظري؟ إرحل الآن.

كنتُ قد رحلتُ أساسًا، فأنا لستُ هنا الآن، بل في مكان لا يتّسع للعقل، وحيث يرفض الإنسان أن يصحو. إذا كان الليل بمثابة صديق حميم يغذّيكَ بالنصائح البنّاءة، لهرعتُ مسرعًا إلى المنزل وأقفلتُ باب غرفتي. لكنّ الليل، في هذا المساء المتأجّج، كان يصطفّ إلى

جانب وجهه المظلم، ليمنعني أن أتأمّلَ مليًّا في ما أظنّه أجمل جسد أُتيحَ لي أن ألمحه في حياتي.

– إرحل من هنا!

كان لصيحتها فعل الصدمة الكهربائية. رفعتُ يديَّ مستسلمًا، وسلكتُ الدرب المؤدّي إلى منزل سيرينا. في منتصف الطريق، عدتُ أدراجي، حريصًا على عدم فضح أمري، فتسلّلتُ من وراء الأشجار لأتلصّص على هذه «الهاربة». كانت لا تزال واقفةً حيث تركتُها ويداها على وركَيْها. بقيتْ فترةً من الوقت تصغي في سكون الليل وهي تحدّق في كلّ صوب، وكأنّها تخشى أن أنقضَّ عليها فجأةً. لكنّها سرعان ما اطمأنَّتْ فحملت ثوبها وتوجّهتْ نحو الترام.

ما إن وصلتُ إلى المنزل حتّى تناولتُ من الخزانة بطّانية، وأخذتُ من البرّاد قطعةً من اللحم وطبق الفاصولياء السوداء، ثمّ هرعتُ من جديد إلى موقع العبّارات.

لم تكن الحسناء هناك، لا في الترام ولا على الضفة. لم يغمض لي جفنٌ تلك الليلة. حتّى الفجر، ظلّ جسد تلك المجهولة الساحرة يسكنني وكأنّما التصق طيْفُها بأجفاني. للمرّة الأولى منذ زمن طويل، أحسستُ بنفس حارّ يُلهِب كياني برمَّتِه. أحسستُ بأنّ شيئًا ما استولى عليّ – من الآن فصاعدًا، لن أرمق النساء بالنظرة عينها.

11

تأرجح بانشيتو على كرسيّه الهزّاز وهو يروي:

– منذ زمن بعيد، عرفتُ رجل أعمال كان يملك مدينةً بأكملها جنوب الولايات المتحدة، ويريد أن يمتلك مدنًا أخرى. كان يؤكّد لخصومه: «لا يمكن لأيّ محيط أن يروي عطشي».

– وإذًا؟

– إذًا، مات غرَقًا في مغطس الحمّام.

– ليس عندي مغطس.

– في هذه الحال، حاول ألّا تغرق في كأسِك.

لقّنني بانشيتو درسًا، هو الذي لا يصحو من السُّكر إلّا نادرًا. خطر لي أن أجيبه بأنّه لو انتحر بشقّ شرايينه لفَقَدَ الذباب الذي يمتصّ دمه وعيَه على الفور. لكنّني أحجمتُ احترامًا لسيرته الأسطورية.

– أأنتَ من يقول لي ذلك؟

– بالضبط. عندما أشرب كأسًا، ألزَم منزلي وأبقى هادئًا، في مأمَنٍ من أيّ مخاطر. لا أتسكّع في الشوارع عند الثالثة فجرًا.

– حفلاتي الغنائية غيّرتْ توقيتي، أنا رجل الليل.

– أتكلّم عن حفلات شربِك. عليكَ أن تخفّف منها.

– ليست المسألة بهذه البساطة.

أعاد بانشيتو الكرّة، رافعًا صوته أكثر هذه المرّة:

– نعم، الأمر ليس بسيطًا. لكن، عليكَ أن تبذلَ جهدًا. لا أحِبُّ أن أراك تتهاوى في الأزقّة كشجرة هشّة تتقاذفها الرياح.

– لستُ في حالٍ جيّدة.

– لا أحد في حالٍ جيدة يا خوان. أمّا نوبات السُّكْرِ فلا تحسّن أيّ حال.

– لا يهوي التمثال عن قاعدته من دون أن يتحطّم ولو جزء منه. هل تتخيّل؟ أن أغنّي، أنا دون فويغو، تهويدات الأطفال، على شرفات شبه خالية من الحضور؟ لم أتصوّر يومًا أنني قد أهبط إلى هذا المستوى.

وجّه بانشيتو سمْعَه، أوّل الأمر، ناحيةَ داره، حيث كان كلبه يزمجر من حينٍ لآخر، وبعدما حَدَجَني بنظرة ازدراء، قال:

– لا تُكتسب الأمور لا مسبقًا ولا بالفطرة يا خوان ديل مونتي. وإلّا، فلن تكون هناك من عدالة لا في الجحيم ولا على الأرض. تعتاد سلوكيّاتك الروتينيّة اليوميّة، وتقنع نفسك بأنّ الوضع سيبقى على حاله، هكذا وإلى الأبـد. لكنّ الأيّـام كالذئاب الكاسرة. تحسَب أنَّك روّضتها، وإنّما، ذات صباح، تستعيد غريزتها فتفترسك ظنًّا منها بأنها تمازحك أو تلهو معك.

– وماذا تريدني أن أفعل؟ أن أشكر الله على بؤسي؟

– ألّا تفْرط في شرب الخمرة، وألّا تتسكّع كثيرًا في الشوارع والأزقة، في ساعات متأخّرة. هناك مجنون يقتل السُّكارى المنفردين. بالأمس أودى بضحيته الثانية.

– تلك مجرّد مشاجرات بين أشخاص أغبياء. تضخِّم الإذاعة الحدث، ويميل الناس إلى تصديق ما يُقال لهم.

– على أيّة حال، لقد نبّهتُكَ. ثمّ، ماذا تريد أن تُثبِت حين تُكثِر من الشرب؟ أنّك غير راضٍ بالنحس؟ أم أنّك غير متصالح مع ذاتك؟ يجب أن تُعطي لكلّ يوم حقّه وعلّته. بالأمس كنتَ تحتفل سعيدًا، واليوم تعاني ظرفًا عسيرًا. دع الغد إذًا يقرّر مصيرك.

– أنا أقرّر مصيري بنفسي.

– أرأيت؟ ينقصك التواضع وهذا أمرٌ سيّء يا خوان. أظنُّ أنَّ تدجين تمساح أسهل منه إقناع غبيّ بتغيير رأيه.

أثار اعتدادي بنفسي غضب بانشيتو. الغرور هو النقص الأسوأ، بنظره. كان يؤكّد كلّما واجه أحد المتبجّحين: «الغرور هو الوجه المظلم عند المرء. هو أن نظهر أسوأ ما لدينا ونعتبره موهبة». بانشيتو يعرف تمامًا قيمة ما يقول، فقد خَبِرَ تلكَ الأمورَ كلّها؛ لمس التحدّيات شبه المستحيلة، ركب الأوهام وأثار غيرة الملوك. هو يعتبر أنّ عليّ الإفادة من خبرته في الحياة. هكذا، عندما يُسدي إليَّ نصيحةً، يجدر بي تنفيذها حرفيًّا كما لو أنّها أوامر أو تعليمات. تستند فلسفته إلى معطيات ملموسة، لأنّه، وكما يردّد دومًا، عرف كلّ أمور الدنيا، القمم واللجج، الصواعق والفيضانات...، ولئن غدا فقيرًا بعدما بدّد ثرواتٍ طائلة، ولئن بقي له اليسير بعدما وهَبَ عشيقاته العابرات أطنانًا من الورود وبائع الورود معها كهديّة بيتيّة، ولئن بات حكيمًا وكسولًا (الكسل في نظر بانشيتو هو أرقى أشكال الحكمة) فذلك لأنّه على قناعة راسخة بأنَّ الحياة، بحلوِها ومرّها، بعجْرها وبَجرِها، لم تعد تخفي عنه أسرارها.

حينما رأى الإرهاقَ باديًا على وجهي، غيّر لهجته:

– من أجْلِكَ، ولِما فيه مصلحتكَ، أقول ذلك يا خوان.

– نعتَّني بالغباء يا بانشيتو.

– غير صحيح. إستعملتُ العبارة بمعناها المجازي، لكي أُعيدكَ إلى واقعية معيّنة. لا يُفيد الغضبُ في شيء. وغضبُكَ يحزنني... هل

تريد أن أترجم لكَ حكايات الدمى المتحرّكة؟ إذًا، فلتعلمْ أنَّ حكاياتها ليست المهمّة، بل الخيوط التي تحرّكها وتُلزِمها، رغم أنفها، بحركات وأعمال فظيعة.

كنتُ على وشك القول بأنني لست دميةً يحرّكها أحد، لكنني تحاشيتُ تسميم الأجواء.

لكنَّ بانشيتو استأنف قائلًا، وكأنّه يقرأ أفكاري:

– سوف تصرخ وتنادي حتّى الاختناق من أعالي السطوح أنّك لستَ بدميةٍ متحركة. وإثباتًا لذلك، تكشف أن لا خيوط في ذراعَيْك ولا في قدمَيْك. مع ذلك، فإنّك تثير الشفقة أكثر من أيّ دمية مسكينة، لأنّ من يحرّكها هو أنتَ، ولكنّك لا تفقه ذلك.

أدار رأسه منصتًا باتّجاه الدار، ثمَّ ختَم:

– لا يُرغِمكَ أحدٌ على أن تكون غبيًّا أو ذكيًّا. كلّه وقف عليك. مهما فعلتَ ومهما حدث لك، تبقى أنت من يصنعه.

حينما نفدت منّي جميع الإجابات، نهضتُ وأحضرتُ قنّينة جعة.

عندما وصلتُ أمام مدخل الدار، ناداني بانشيتو:

– خوان ديل مونتي خونافا...

إلتفتُّ إليه. قال:

– أن تحلُمَ لا يعني أن تنتظر، بل أن تسعى إلى بلوغ هدفك على الرغم من كلّ الصعوبات والعقبات.

في هذه اللحظة بالذات، توقّفتْ أمام البيت شاحنة صغيرة خضراء اللون تذكّر بسيّارات الإسعاف الأميركية خلال الحرب العالمية الثانية. أمّا الرجل الذي هبط منها، فيبدو هو الآخر كمن فرَّ من الحقبة نفسها؛ رفيع كالخيط، أشيب الرأس، ذو سحنةٍ مغبرّةٍ وأنفٍ

مدبَّبٍ كحدّ الفأس. كثيف الشعيرات حتّى في الأذنين. دفع البوابة الصغيرة المُفضِيَة إلى فِناء الدار، حاملًا بيده جعبةً رثّة.

بادره بانشيتو بالتحية، بعدما نجح في انتزاع جثّته الثقيلة من حضن كرسيّه، وسط حشرجة هرمة:

– أهلًا بالدكتور.

– آمَلُ ألّا أكون قد وصلتُ متأخّرًا.

– لا أظن. كان يئنُّ منذ دقيقتين.

لم يُعرِّج عليَّ الدكتور ليصافحني بل تبِعَ بانشيتو مباشرةً إلى داخل الدار.

فضّلتُ أن أبقى في الخارج، وأخذتُ أرْكل بطَرَف حذائي حصاة لصف مطمورة بالتراب.

من خلال زجاج النافذة، رأيت الطبيب يهزّ رأسه، وسمعته يقول:

– تُقلِقني حالة كلبِكَ.

– هذا ليس كلبي. إنّه رفيقي في السلاح.

– منذ متى وهو في هذه الحالة؟

– بدأ يتبوّل على نفسه مساء البارحة، قبل حلول الليل.

– آ... كم عمره؟

– لم أحسب عمره يومًا، حتّى لا يصاب بعين الحسد.

– أقترِحُ نقله إلى عيادتي. لا أحملُ الأدوات والمعدّات اللازمة لعلاجه.

رنّ جرس هاتفي: إنّه فندق ناسيونال.

كان مدير الفندق، خوليو لوبيز. تنحنح قبل أن ينطُقَ بصوتٍ أجشّ:

– آسف يا خونافا. عاد العازف الذي كنتَ ستحلُّ مكانه، وسيباشر عمله بعد ظهر اليوم.

– كنتُ أتوقّع ذلك.

– نبقى على اتّصال. إذا استجدّ شيء، أُبلِغُك فورًا.

أنهى المكالمة قبل أن أقول له شكرًا.

إستدرتُ نحو تمثال المسيح الساهر، من أعلى شامخته، على باهيا، وتساءلتُ لماذا يوليني ظهرَه.

12

في المساء، بعد العشاء، خرجتُ لاستنشاق الهواء النقي. كان ابني ريكاردو جالسًا على عتبة الباب الخارجي، لابِسًا صدريّة جلديّة وبنطالًا قصيرًا يصل حتّى الركبتين. كان ينتظر زمرة رفاقه حتّى يتحرّشوا بالفتيات في المنتزهات.

كنّا، ريكاردو وأنا، لا نتحاور البتّة تقريبًا. هو ينفر من كلّ سكّان الأرض، وأنا لا أعرف ماذا أقول له.

ليس ريكاردو صبيًّا ليّن الطباع، ولا سهلَ المِراس. هو كالكلمة على رأس اللسان، لا تنفكّ تفلت منّا دون أن نتمكّن من لفظها.

في السابق، كان أقلّ عبوسًا وتجهُّمًا. كانت لديه حبيبة أكبر منه سنًّا بقليل، وإنّما فائقة الجمال. تأتي لاصطحابه بعد الظهر، وتحنو عليه وتعتني بأموره كما يجب.

كان قد بدأ يتعقّل، لأنَّ رفيقته لا تُحِبّ المنحرفين، لا بل تكره الذين يتحرّشون بالبنات وهم لا يجيدون سوى إسناد قدمهم إلى الجدار والتلفّظ بألفاظ نابية عند مرور تلميذات الثانوية. إنقطع ريكاردو عن مخالطة زمرة الحيّ، بدأ يرتدي ثيابًا لائقة، ويعتني بمظهره. حينها، أفرَحَني أن أراه يتحمّل مسؤولياته، هو الذي كان

يرفض القيام بأيّ عمل. مع ذلك، لم نكن لنتحاور إلّا قليلًا، لكنّه كان يتنازل أحيانًا ويتكرّم بالاستماع إليّ عندما يكون لديّ اقتراح أو اقتراحان. لكن، بعد ذلك، ساءت حالُه كثيرًا، فأصبح أكثر تكاسلًا وخنوعًا ممّا كان، مثالًا مقزِّزًا من الفشل. ظنّت سيرينا أنّ حبيبته أدركت أخيرًا أنّ ابني ولد صائع لا رجاء منه، فهجرته وتخلّصت من عبءٍ يعيق انطلاقتها. كانت تلك الفتاة تتحلّى بالرقيّ والطموح، وهما فضيلتان تشكّلان نقيض ما يحفّز ولدي، هذا إن قرّر يومًا ما وبسحر ساحر، أن يتحمّل مسؤولياته.

لم يُفسِح لي ريكاردو المجال لأمرَّ، فقد كان يحتلّ كلّ المساحة باسطًا ركبتَيْه على امتداد العتبة.

– غدًا سأذهب إلى ريغلا. هل تأتي معي؟

– لماذا آتي معك؟

– لزيارة أمّك.

– سأزورها عندما تدفن ذاك الجمركيّ المحتال.

– عليكَ إذًا أن تنتظر طويلًا.

– لستُ أبالي.

حنى ظهره قليلًا وراح يلمّع حذاءه الرياضي بقطعة ممحاة. أزَحتُ رجْله كي أُفسِح لي مكانًا إلى جانبه. ما إن جلستُ حتّى راح يتململ قبل أن ينتصب واقفًا.

سألته بعصبية:

– ما بالك؟ هل أنا مصاب بالجرب أم ماذا؟ لماذا لا تُطيق أن أقترب منك؟ أنا والدك.

– غيّر هذه الإسطوانة يا بابا، لسنا في فيلم «حرب النجوم».

– ما هذه اللغة السوقيّة؟

– وهل تظنّنا نعيش في الجنة؟

– ولسنا نعيش في الجحيم أيضًا. وأمنعَك من التحدّث إليَّ بهذه النبرة.

قلَبَ ريكاردو شفتَيْه بتكشيرة استهزاء. كان بودّي أن أشدّ أُذُنَه، لكنّني خشيت أن يُبعِده ذلك عنّي أكثر فأكثر. قلتُ له، من باب المصالحة:

– سوف تُسَرُّ أمُّك بك.

– وأنا كما قلتُ لك وأكرّر، لا أريد أن أتقيّأ في وجه موظّفها المهرّج.

– سيكون في عمله غدًا، وغدًا يوم الأحد. وعَدَتني أمُّكَ باستبقاء إيزابيل في البيت. مضى وقتٌ طويل لم أرَ فيه أختَك. سوف يسعدها أن تُعانِقنا.

رفع كتفيه بلامبالاة، واستند إلى الحائط. سألته:

– ريكاردو، ألا تريد أن ترى أختكَ؟

أجابني متذمّرًا وبنبرة منفِرة:

– أراها باستمرار عند خروجها من المدرسة.

– وبماذا تتحدّثان؟

– بشؤوننا ومشاريعنا.

– هل تتكلّم عنّي؟

– لماذا تريدها أن تتكلّم عنك؟ فأنتَ غائب عن جميعنا.

قال هذا ونهض برشاقة مبتعدًا عنّي، ثمّ غاب وسط الظلام.

رجَوْتُ فيليكس ألّا يُطلِق بوق السيارة في حال تأخّرتُ عند زوجتي السابقة. فأنا لا تتسنّى لي رؤية ابنتي كلّ يوم. فإذا لم يُعِجبْه الأمر، فما عليه إلّا أن يعودَ أدراجَه إلى هافانا. أمّا أنا فأستقلّ باصًا للعودة. أجابني فيليكس بأنّه سيعاني مرارة الصبر وينتظرني، وقال إنّه مستعد

أن يقلّني كلّ يوم إلى ريغلا لكي تشتدّ الأواصر بيني وبين ابنتي، فبرأيه، لا شيء في هذا العالم أكثر أهميةً من العائلة.

إستقبلتني إيلينا بكثير من الحفاوة، وكأنّها تستقبل أحد وجهاء البلد. كانت بكامل زينتها وأناقتها وترتدي ثوبًا جديدًا يضفي عليها لمسةً من الغنج لم أعهدها لديها. كانت إيزابيل في حجرة الاستقبال تنتظر بضجرٍ وكَدَرٍ إذ حُجِزَت في البيت يوم أحدٍ، اليوم الذي تخرج فيه الفتيات إلى المنتزهات، للتسلية واصطياد الفتيان.

كانت ابنتي ترمقني بنظرات باردة. هي عاتبة عليَّ لأنني أفسدتُ عليها يوم العطلة. سألتْها أمُّها:

– ألن تعانقي والدك؟

نهضتْ إيزابيل متثاقلةً، وأمضت وقتًا أطول من اللازم لاجتياز المسافة الفاصلة بيننا، وهي مُطرِقة بالأرض، ومن ثمَّ، لم تُبدِ أيَّ جهدٍ لترفع بقامتها نحوي، ما اضطرَّني إلى الانحناء لكي أقبّلها. إرتعشتْ عندما لامسَتْ خدَّها شفتايَ.

قلتُ لها:

– جلبتُ لكِ كتابًا مصوّرًا.

لكنّها لم تُظهر أي ردّ فعل، فدَعَتْها أمُّها إلى أخْذ الهدية. تناولت إيزابيل الكتاب، ووضعته على أقرب قطعة أثاث، من دون أن توليه أي اهتمام. نهرتها أمُّها:

– قولي شكرًا لأبيك.

– شكرًا...

أسرّيت لها:

– يسرُّني أن أراكِ.

أومأتْ إيجابًا وعيناها في الأرض.

لقد كبُرَتْ إيزابيل بسرعة، تبدو أكبر من عمرها الفعليّ. إنّها فتاة جميلة – على الرغم من بدايات اكتناز – بعينيها الخضراوين كعينَيْ أمّها، والغمّازتين في خدّيها. في وجهها بعض ملامحي. شعرها الأجعدُ، المائل إلى الشُقرَة، يذكّرني بشَعر والدي. على الرغم من سُحنتها العابسة والتي تشي بطبعها الخاصّ، تبدو موضع اهتمام ورعاية. ثيابها جديدة، حذاؤها لمّاع، وعصابة شعرها كالتاج. أمّا قلّة حماسها تجاهي فلم تُقلِقني أبدًا. أفهم ذلك جيدًا؛ آخر مرّة رأيتها فيها تعود إلى زمن غابر. كانت تبكي وهي تحاول الإفلات من حضن أمّها حينما غادرتُ البيت. كانت تودّ أن ترافقني.

– كيف حالكِ يا عصفورتي؟

– لا بأس.

– هل تذكرين، كنتُ أناديكِ بهذا الاسم؟ كنتِ عصفورتي أنا، عصفورتي الصغيرة. كنتِ تريدين أن تختبئي في يدي، حتّى أنفخ برفق عليك، فتطيري.

– كان ذلك سخيفًا.

– كلّا، كان لطيفًا. كان ذلك... (أشارت لي إيلينا بحركة من رأسها، أن لا. لم تعُدْ إيزابيل تلك العصفورة التي كانت في الماضي. الأطفال اليوم أكثر وعيًا، وهم لا يُطيقون أن يَنسى أهلُهم أنهم كبروا. هذا ما حاول ريكاردو إفهامي مرارًا. مع ذلك، وإثر سحرٍ عاطفي أجهله، أعود لأقع في الفخّ كلّ مرّة.) جئتُ لأصطحبكِ معي إلى المدينة. عمُّك فيليكس ينتظرنا في الخارج. سنذهب حيثما ترغبين.

– لا أستطيع...

– لماذا؟

– لديّ موعد.

– ألا تستطيعين تأجيله؟

– كلّا.

تدخّلتْ أمُّها:

– إذهبي مع والدكِ، فأنتِ ترين رفيقاتك كلّ يوم.

– قطعتُ وعدًا.

قالت أمُّها بلهجةٍ عصبية:

– لكنّك لم تقسمي اليمين، على حدّ علمي.

– لماذا لا تحاولين أن تفهمي يا أمي؟

– وماذا هناك كي أفهمه؟ والدكِ يدعوكِ إلى المدينة. منذ سنوات وهو ينتظر هذا اليوم. لا يحقُّ لكِ أن تعانديه.

رفعتُ يدي لأهدِّئ إيلينا.

– لا بأس، لا بأس. إن كان لديها مشاريع لليوم، فيجب ألّا نمسّ بها. سنذهب إلى المدينة في يوم آخر.

خيَّمَ صمت ثقيل علينا، نحن الثلاثة، وكأنّه ضباب سميك. كانت إيلينا حانقة، تنظر إلى ابنتها نظرة قاسية، لكنَّ إيزابيل أبتْ أن ترفع رأسها. بعد لحظة حرج دامت طويلًا، طلبت الصغيرة الإذن بالانصراف. شبكت أمها ذراعيها على صدرها بيأس، ووافقت بحركة من رأسها. ما إن التقطتْ إيزابيل هذه الإشارة، حتّى هرعت إلى الطابق الأعلى لتأخذ حقيبة يدها من غرفتها، ثمَّ نزلت مسرعةً، ومن دون أن تنظر إليَّ، انطلقت إلى الشارع.

قالت لي إيلينا:

– آسفة.

– أوه! لا عليكِ. إنّها غاضبة منّي قليلًا، لكنّه غضب عابر. أنا واثق من أنّها ستتصرف على نحو آخر، في المرّة المقبلة.

– غاضبة منك لأنّها تُحِبّكَ. تحتفظ بصوَرِك في دفتر مذكّراتها. حتّى ولو لم تتكلّم عنك، فهي تُكلِّمك عندما تكون وحيدةً في غرفتها.

أمسكَتْ بيدي وأخذتني إلى المطبخ.

– تعال، أعددْتُ لك الحلويات التي كنتَ تعشقها.

– لستُ جائعًا، وفيليكس ينتظرني في سيارة التاكسي.

– دعْهُ ينصرف. سيقِلُّكَ جاري، لديه سيارة ولكنّه لا يستعملها سوى للنوم.

أجلستني على كرسيٍّ إلى مائدة صغيرة. كادت حبّات الـ«بيتي فور» التي حضَّرَتها على شرفي، أن تعلق في حلقي. لستُ حزينًا، لكنني قَلِق، ربّما تكون ابنتي قد أنكرتْني إلى الأبد. لم أتبيّن لديها مشاعر ولا قلبًا ينبض.

– كيف حال ريكاردو؟

– العالم هو الذي يتحرّك. أمّا ريكاردو فلا.

- لماذا لم يرافقك؟

– لديه موعد، تمامًا كأخته.

بأصابعها الحنونة لامسَتْ أصابعي، وهمست لي لاهثةً:

– حتّى هو، تلك حالة عابرة عنده. سيُدرك يومًا أنّ الولد عندما لا يكون واعيًا، عليه أن يسمع كلام أهله. أعلَمُ أنّه تعيس. هو ثمرة أحشائي، إذا تألَّم تألَّمتُ. مع ذلك، فقد نبَّهتُه، وقلتُ له إنّها لم تكن فكرة جيّدة.

– عن أيّة فكرة تتحدّثين يا إيلينا؟ وهل يحدث أن تراوده فكرة؟

– ألستَ على عِلْمٍ بالموضوع؟

– أيّ موضوع؟

– ريكاردو أرغم صديقته على الزواج من رجل إسبانيّ يعمل في القنصلية.

– ماذا تقولين؟

أبعدتْ إيلينا أصابعها فجأةً لتمطرني نظراتها بوابل من اللوم.

– طبعًا، فأنتَ تعيش على كوكب آخر. إبنكَ ينحرف وأنتَ تتلهّى بأمور أخرى. لِمَ أنا، من هنا، من ريغلا، عليَّ أن أعرف تمامًا ما يجري في كازا بلانكا؟ وأنتَ الذي تقاسمه الغرفة لا تعرف شيئًا؟

– حاليًّا أمرُّ في ظروف عسيرة. ذلك لا يعني بأنني أُهمِل ابني. إنّه صعب المراس ولكنّني أُراقبه. أعتقد أنّه ينوي الانخراط في الجيش وهذا أمرٌ لا بأس به. ليس هناك سوى الانضباط ليعيده إلى الطريق المستقيم.

– ما الذي يدعوكَ إلى الاعتقاد بأنّه ينوي الالتحاق بالجيش؟

– صباح كلّ يوم، ينتظر ساعي البريد. لا أرى مَن يمكن أن يراسله إلّا مكتب التجنيد.

مالتْ برأسها إلى الوراء، وأطلقت ضحكة قصيرة وقاسية:

– أرأيتَ؟ أنتَ دائمًا عند هامش المسائل. إبنك ينتظر رسالة من حبيبته السابقة التي أرغمها على الزواج من أحد الدبلوماسيين. هي لم تُرِد ذاك الإسبانيّ، لكنّ ابنك هدّدها بأن ينتحر إذا ما رفضت. ساورته خطّة حمقاء. كان مقتنعًا بأنّها ما إن تغادر كوبا حتّى تستطيع الاستحصال على أوراق هجرة أو تأشيرة دخول أو أي شيء من هذا القبيل يساعده على مغادرة البلاد، وبأنّها ستساعده على تثبيت وضعه متى انتقل إلى أوروبا. بعد ذلك تتطلّق من الإسبانيّ، وتتزوّج منه هو.

قدّني هذا الكلام قدًّا، لا بل شطرني كحدّ السيف. ذُهِلتُ وأنا حائر بين أمرين: نوبة ضحك هستيريّ أو نوبة انهيار عصبيّ. أمسكتُ رأسي بكلتي يدَيّ للحؤول دون انفجار دماغي.

– هل هو مجنون إلى هذا الحدّ، ريكاردو؟ كيف يقتنع بحماقة كهذه؟ إبن العشر سنوات لن يتصوّر سيناريو بهذا الغباء.

– دماغ إبنكَ هو أدنى من دماغ دجاجة.

– من أخبركِ بالأمر؟

– إيزابيل. يلتقيان عند الخروج من المدرسة. سألها ريكاردو إن كانت ترغب في السفر معه إلى الخارج. مرارًا وتكرارًا قالت له إيزابيل إنّ خطّته لن تنجح، لكنّه لا يتزحزح عن عناده، فالخطّة راسخة في ذهنه رسوخ الجبال. لهذا السبب، ومنذ سبعة شهور، ينتظر البريد كلّ صباح، مقتنعًا بأنّ حبيبته تركض من دائرة إلى أخرى ومن بلدية إلى أخرى، لتسهّل له عملية الهجرة.

خارَتْ قواي.

– هذا الصبيّ لا ينفك يفاجئني على الدوام.

– أمّا أنا فيُقلِقني. عِدْني بأنّكَ ستسهر عليه وتراقبه عن كثب.

مرّة أخرى، لامستْ أصابعها يدي، واستمرّت بمداعبة لطيفة على امتداد ذراعي. إرتجف صوتها وتسارعت أنفاسها وهي تسألني كيف أجدها:

– ظريفة كما كُنتِ دائمًا.

إقتربت منّي أكثر، ألصقت فخذها بفخذي، وتثاقلت أنفاسها وهي تقول:

– لقد تزيّنتُ من أجلك.

ثمّة شيء في نظرتها أثار حفيظتي.

– فيليكس ينتظرني في الخارج.

– خوان. لا تتصوّر كم أنا نادمةٌ على فراقك. أفكّر بك كلّ يوم. أتخيّلك معي في السرير بدلًا من راوول ومع ذلك لا ينجح الأمر. لأنّك فريد لا مثيل لك. (باتت شبه واقفة ومنحنية صوبي) لقد كنتُ عمياء يا خوان، عمياء ومغفّلة. أضعْتُ فرصةَ عمري.

كانت بأمانٍ في قبضتي، لكنّني أفلتُّها، فطارت منّي كفراشة الليل. (فجأةً فكّت أزرار قميصها فانبسط ثدياها على وجهي، مع

فيضٍ من العطر والارتعاشات المتّقدة). خُذني يا خَوان. خذني كما كنتَ تفعل في الماضي. خذني هنا على الطاولة، على الأرض، أو على درجات السُلَّم... أنا لك، كما تشاء، كما ترغب. منذ أشهرٍ وأنا لا أحِسُّ بشيءٍ على الإطلاق مع أيّ رجل آخر.

لذتُ بالفرار على الفور.

13

لعب خافيير مشهده الدراميّ أمامنا حتّى قبل أن نُنهي تناول غدائنا. حينما رأى هذا الجمع من الناس حول المائدة وكلّهم يأكلون ويشربون ويغتسلون وينامون في منزله وعلى نفقته، أصابته نوبة هستيرية فراح يتلفّظ بعبارات جارحة. دفعتُ طبقي من أمامي وغادرتُ المنزل، وقد شعرتُ بإهانة بالغة، بحيث أنّ سيرينا لم تجرؤ على تهدئتي.

ذهبتُ إلى بانشيتو، لكنّ العجوز كان منشغلًا بصحة كلبه فلم يُعِرني اهتمامه.

إنطلقتُ إلى الترام الأخضر. كانت هناك، تجلس على المقعد الخلفي، مُنهكةً صامتة.

عرفتُها على الفور، بفضل ضوء المصباح الخلفي الذي أنارَ شعرَها الأصهب وكأنّه بزوغ الشمس.

– ها أنتِ قد عُدتِ.

شهقتْ بغصّة وهي تطوي ركبتيها، وذراعاها تحيطان بفخذيها.

– أين كنتِ ليلة أمس؟ جلبتُ لكِ غطاءً وطعامًا.

كان كتفاها يرتجفان وهي تشهق بصوت مكتوم.

إقتربتُ منها بحذر وبطء لئلّا أُخيفها.

– أنتِ بخير...؟

حاولتُ أن أرفع ذقنها، فتراجعت إلى الوراء بسرعة كحلزون يعود إلى قوقعته. وإذ مال رأسها إلى الوراء، انكشف وجهها تحت ضوء المصباح، فلحظتُ دمًا على خدّها.

– هل هذا جرح؟

– دعني وشأني.

– ثمّة مستوصف طبي قريب من هنا، وأنا أعرف البوّاب هناك.

– لا يمكن أن أرى طبيبًا.

– من فعل بكِ هذا؟

– لا أدري. كانت الدنيا ظلامًا.

– لقد حذّرتُكِ وقلتُ لك إنّ الليل لا تُؤمَن عواقبه، ففيه السكارى يتسكَّعون في العتمة.. يجب أن أصطحبك إلى مركز الشرطة لرفع شكوى.

– كلّا.

– لقد تعرَّضتِ لاعتداء سافر. ما بالكِ؟

– لا أريد أن أذهب إلى الشرطة، سوف تعتقلني كما اعتقلَتْ أخي.

– ربما كان المعتدي مخبول الليل الذي يهاجم الأشخاص المنفردين. لا يمكننا أن نتركه وشأنه، يسرح ويمرح بحرية.

– قلتُ لك إنّ الجوّ كان معتمًا.

– هل حاول اغتصابكِ؟

لم تُجِبْ على سؤالي.

جلستُ القرفصاء أمامها وحاولتُ أن أمسك بيدها، لكنّها تراجعتْ مجدّدًا، وإنّما من دون عنف هذه المرّة.

– لقد ضقت ذرعًا، قالت وهي تتأوّه.

أخرجتُ من جيبي مصباحي الصغير، فلاحظتُ بقع دمٍ أخرى على ذراعيها، وعلى مقدّم ثوبها.

– ما عاد بإمكانكِ أن تبقي وحيدة. لئن نجَوْتِ هذا المساء، ففي المرّة المقبلة قد يكون الأمر أكثر خطورةً وسوءًا، ليس في كلّ مرّة تسلم الجرّة. لماذا لا تأتين معي إلى منزل شقيقتي؟ ستأويكِ عندها الوقت الكافي ريثما نتبيّن حلًّا لمشكلتك...

قبل أن أنهي كلامي، أجابت:

– موافقة.

فاجأتني موافقتها الفوريّة، لكنّني سُرِرْتُ جدًّا بها.

– تعالي إذًا.

مسحتْ وجهها بطرف ثوبها واستندت إلى مرفق المقعد لتقف.

سارعتُ إلى مساعدتها، فتفادتني:

– أرجوك لا تلمسني. ما زلتُ قادرة على المشي.

وتَبِعَتْني راضيةً هادئة. إستنتجتُ أنّها بائسة ويائسة حتّى أنّها قد تسير مغمضة العينين، خلف دبٍّ يقودها إلى كهفه.

كانت نوبة خافيير قد هدأت. عاد إلى أريكته في حجرة الاستقبال، وراح يشاهد فيلمًا على التلفزيون، مسمّرًا، بكلّ معنى الكلمة، أمام الشاشة. أمّا باقي أفراد الأسرة فقد عادوا للتموضع في غرفهم، كعساكر يذعنون لأوامر إطفاء الأنوار.

لم تتردّد سيرينا لحظةً واحدةً عندما رأت الشابّة تقطر دموعًا ودمًا. لم تطرحْ أيّ سؤال. بل قالت جملةً واحدة فقط: «يا للمسكينة!» قبل أن تقتاد تلك المجهولة إلى صالة الحمّام. بقيتُ مع صهري أنظر، من دون أن أرى، المشاهد بالأبيض والأسـود تتوالى على الشاشة المليئة بالتشويش.

حين سمعت صوت انفتاح باب الحمّام، عدتُ إلى البهو. خرجت الصبيّةُ متلحّفةً بمنشفة كبيرة، وشعرُها المبلَّل ملتصق بعنقها. لقد حمَّمَتْها سيرينا ودلّكَتْها وأخرجتها من الماء، نظيفة ناصعة، كما لو أنّها دمية جميلة موضَّبة في علبتها.

قالت لي شقيقتي بعدما أجلسَتْ الفتاة في المطبخ:

– لم تأكل منذ أيّام ما يسدُّ رمَقَها. سأُعِدُّ لها فراشًا وثيرًا. ستنام مع شوس ولورد. يمكنكَ أن تأخذ لك قسطًا من الراحة. سأعتني بها.

عدتُ إلى غرفة الاستقبال حيث كان خافيير يصيح بأحد أبطال الفيلم لكي يسرِع في الهرب، لأنّ رجال الأمن على وشك الوصول إليه. كان ذاك الممثّل مذعورًا. قَتَل للتوّ أحد المحامين المحتالين – ليس عن سابق تصوّر وتصميم، فقد انطلقت الرصاصة خطأً. والآن، وقد بدأت صفّارات الإنذار تلعلع من بعيد، بدأ خافيير الذي، بطبيعة الحال، تعاطف مع القاتل، يتململ في مقعده، قلِقًا ومضطربًا لرؤية بطله يقع في الفخّ. أمره خافيير صارخًا، وهو يقرع على مرفق الأريكة: «إقفز من النافذة، واهرب عبر السطوح». لكنّ القاتل لم يكن يدري إلى أين يفرّ. إندفع نحو درجات السُلَّم، وما إن وصل إلى بهو المدخل حتّى انفتح الباب بعنف شديد. دخل رجال الأمن المسلّحون، وبادر رئيسهم موجِّهًا مسدّسه نحوه: «إنتهى أمرك». بسرعة البرق، إستدار المجرم لكي يهرب، فاخترقته الرصاصات من كلّ صوب وسقط هامدًا على درجات السُلَّم. بقفزة واحدة انتصب خافيير واقفًا، كاد أن يسقط أرضًا بسبب ساقه المبتورة، ليعود ويسقط على أريكته وهو يُرغي ويُزبِد: «لقد نبّهتُه منذ بداية الفيلم. نصحتُه مرارًا وتكرارًا، حذارِ، هذا المحامي مجنون، سيوقِع بكَ. وهاكَ ما حصل. هذه عاقبة من لا يسمع النصح».

من باب التعقّل، فضّلتُ أن أذهب إلى سيرينا لأستكشف أوضاع الصبيّة.

لقد وضعتها سيرينا في السرير. ثمَّ أشارت وهي تقلّب الملابس في الخزانة:

– إنّها بحجم شوس تقريبًا. عندي الكثير من الملابس الداخلية، أمّا الفساتين فلا أملك إلّا القليل منها.

– سأشتري لها الملابس غدًا. هل جرحها بالغ؟

– مجرّد خدوش بسيطة في مفاصل الأصابع. ليس بالأمر المهمّ.

– كان على ثوبها بعض الدم.

– لا بدّ أنّها دافعت عن نفسها كاللبوءة.

– هل تفحّصتِها؟

أخرجَتْ سيرينا قميص نومٍ، مدّته أمامها، وقالت:

– ليس جديدًا، لكن، أظنُّ أنّه يفي بالغرض.

– سألتُكِ إن كنتِ تفحّصتِها.

– سمعتُ. سألتُها إن تعرّضتْ للاغتصاب، فلم تُجِبْني. علينا أن ندعُها ترتاح الآن. ما زالت تحت الصدمة... كم من الوقت تنوي إبقاءها عندي؟

– لا أدري.

طوَتْ سيرينا القميص على ذراعها، وبدفعة من ركبتها أغلقت باب الخزانة.

– لو عاد الأمر إليّ، لتبنّيْتُها على الفور وأبقيتُها عندي. لكنني لستُ الآمرة الناهية في البيت، أعادت تذكيري.

– سأجد لها مكانًا آمِنًا تأوي إليه.

– وهل ماينسي موافقة؟

– ومن هي ماينسي هذه؟

تعجّبت سيرينا من جوابي:

– ماذا تقول؟ لا تعرف حتّى اسمها، ومع ذلك تأتي بها إلى هنا؟ ربما كانت متورّطة مع العدالة.

– أُقسِم لكِ بأنّني لا أعرف اسمها. جاءت من الريف تبحث عن عملٍ في هافانا. إنّها فلاحة فقيرة تسعى إلى التحرّر.

– متى التقيتَها؟ وأين؟

– فاجأتُها وهي نائمة في الترام قرب المحطّة، منذ ثلاثة أو أربعة أسابيع. لم يكن لها من مكان تلجأ إليه. في البداية، لم أهتمّ. أمّا الآن، بعدما نجَت من اعتداء ذاك المهووس، أشعر بأنّني معنيّ.

– لكن يا خوانيتو، ربما كانت لصّة.

– سيرينا عزيزتي، وهل تبدو لكِ لصّة؟

– وكيف تبدو اللصّة عادةً؟

– أرجوكِ. إسدي لي خدمة.

– هذا ما لم أتوقّف عن فعله منذ نصف قرن. لكنّك الآن تغالي كثيرًا في طلبك.

حضنتها بتلك النظرة التي لم يحدُث أن قاومتها ولو مرّة واحدة، فزمَّتْ شفتيها وهزّت رأسها موافقة.

– حسنًا. سأُبقيها عندي بضعة أيام، ريثما تتعافى. لكن، ما عسايَ أقول لخافيير، حين يتبيّن أنّ هناك فمًا إضافيًّا عليه أن يُطعِمه؟ هل رأيتَ كيف يتصرّف في الآونة الأخيرة؟

– أَعِدُكِ بأني سأجد حلًّا لهذه المشكلة في القريب العاجل.

كبتَتْ سيرينا تنهيدةً، ونظرت في عينيّ نظرة طويلةً وعميقة. ثمّ قالت بصوت خافت:

– آه! أنتم الرجال، جميعكم سواء.

تحسّنتْ حال ماينسي.

وجبة البارحة الساخنة وليلة النوم الهانئة في فـراشٍ وثير وشراشفَ نظيفة ناعمة تعبق برائحة النشاء، أعادتا بعض اللون إلى خدَّيْها. لم تخرج كلّيًّا من تأثير الصدمة، ومع ذلك، لم ترتجف يداها وهي تشرب قهوتها الصباحيّة. كانت سيرينا تراقبها بصمت، تعلو شفتيها ابتسامةُ حُنوّ أموميّة، جاهزةً لاحتضانها إذا ما لمحت أيّ قشعريرة تسري في ذراعها البيضاء الرقيقة. أجد سيرينا تبالغ قليلًا في حركاتها. لكن، ولأنَّها تقدّم لنا المأوى والمأكل، فلست لأحرمها من بعض الامتيازات.

المهم في الوقت الحاضر أنّ ماينسي في مأمَن. أنبأتْني سيرينا:

– بخصوص وجبة الفطور، عليكَ أن تنتظر الدورة الثانية، روّاد النهوض المبكر قد التهموا كلّ شيء. وماينسي جائعة جدًّا.

– سأشرب قهوتي في المدينة.

لم ترفع ماينسي عينيها عن القصعة التي كانت تُمسِكها بعناية بين أصابعها الرشيقة. بل تمترسَت خلْفَ ستار خصلاتها المتناثرة، وراحت تتصرّف وكأنّني لستُ موجودًا.

– لا تبقَ مسمّرًا أمامها كالسجّان، همسَتْ لي أختي، وهي تطردني بحركة من يدها تحت الطاولة. أنت تربِكها.

إمتثلتُ على الفور، وانطلقتُ في الشارع وأنا أصفرُ لحنًا جميلًا كمراهق يكتشف ملذّات الشباب للمرّة الأولى.

عندما مـررتُ أمـام منزل بانشيتو، فوجِئتُ بالعجوز يـؤدّي تمارين رياضية قاسية، هو الذي لا ينهض من الفراش إلّا ظهرًا. وها هو يمارس الرياضة وتحديدًا حركات المضخّات الشاقّة، في الثامنة صباحًا، والعرق يتصبّب من صدره العاري، وقد ضمّ ساقيه، وبيديه المثبتَتَيْن على الأرض، راح يضغط صعودًا وهبوطًا، إلى حدّ انتفاخ

عـروق عنقه. دفعتُ بـاب المدخل، اتّجهتُ نحو الصندوق قبالة الكرسى الـهزّاز، وجلست. وجـدتُ بقيةَ قهوة فى الـقدْر، فسكبتُ لنفسي فنجانًا، وأخذتُ أراقب العجوز وهو يقرقع عظامه الواحدة تلو الأخرى، على ما تبقّى من أرضيّة خشبيّة. عندما نهض أخيرًا، منهكًا، لكن مسرورًا، راح يغسل وجهه ويديه وصدره بماء المطر المجمّع في برميل مازوت، ويفرك تحت إبطَيْه وحول عنقه. بعدما استعاد شيئًا من أنفاسه، توجّه نحوي وهو يجفّف جسمه بمنشفة بالية لدرجة تكاد تصبح مجرّد رقعة. مازحتُه قائلًا:

– تتهيّأ لخوض دورة المباريات الأولمبية للمعمّرين؟

– عليَّ الانـتظار لخمس عشرة سنة إضـافيّـة، ليسمحوا لي بالمشاركة في الدورة المذكورة.

– على مهل، على مهل... في سنّك، ممارسة الرياضة هكذا مرّة واحدة، ليست أمرًا محبّذًا. قد يتوقّف قلبك أثناء القيام بجهدٍ بسيط.

– أنا أنشّط رئتيّ بعد زمن طويل من تراكمات قطران السجائر وعكارة النبيذ الرديء.

أدّى بعض حركات التنفّس العميق، بين زفير وشهيق، مُحنِيًا رأسه إلى الوراء فالأمام، وقد اتسعت فُتحتا منخرَيْه حتّى بدَتا وكأنهما ستشفطان هواء الحيّ كلّه، ثمّ جلس يستريح في كرسيّه الهزّاز.

سألته:

– كيف حال الكلب؟

أجاب من دون أن تبدو عليه أيّ علامة من علامات التأثُّر، وكأنّه يتحدّث عن أمر تافه:

– أورفيو مصاب بالسرطان.

– وتقول ذلك بهذه البساطة؟

– وكيف تريدني أن أقوله؟ كنتُ أتوقّع ذلك. علينا ألّا نتعلّق كثيرًا بما لا نستطيع الاحتفاظ به.

صدمتني لامبالاته.

– هل يحدث لك أن تبكي أحيانًا؟

– بكيت كثيرًا حتّى استنزفتُ كلّ دموع كياني منذ خمسين عامًا. واليوم حتّى دمي قد جفّ في عروقي (قضم لقمة من قطعة الحلوى التي كانت في صينية إلى جانبه، وابتلع بعدها كوبًا من الماء، ثمّ تابع حديثه): لماذا تطرح السؤال؟

– خِلتُ أنّ كلبَك عزيز جدًّا على قلبك.

– لقد اتّكلتُ عليه كثيرًا، وهو أعطاني أكثر بكثير ممّا أعطيتُه.

– ليس هذا ما يبدو. حتّى أنّك لم تحزن عليه.

– تلك هي الحياة. لا نعلم لماذا جئناها ولا لماذا نتركها. والحزنُ لا يفسّر شيئًا.

– كنتَ تقول إنّك تُحِبّ كلبك أكثر ممّا تحب نفسك.

– أن تحبّ لا يعني أن تتملّك. في هذا النوع من العلاقة، يجب أن نعرف كيف نعيد ما لا نمتلك. منذ أن استضفتُ أورفيو وأنا أتوقّع أن أُعيده ذات يوم. يبدو أنّ هذا اليوم قد حانَ أو كاد أن يحين. تمامًا كالمباشر القضائي. يبلغك بالقرار الواجب تنفيذه، تطبيقًا لقوانين الطبيعة.

أسبَلَ بانشيتو جفنَيْه وأغمضهما على ذكرى أو على فكرة، وأخذ يهزّ رأسه ويتمتم من طرف شفتيه، وكأنه يكلّم نفسَه:

– كنتُ أستعدّ للقيلولة، هناك، تحت السقيفة، وحيدًا. منذ زمن طويل وأنا وحيد حتّى صرتُ أنا نفسي محدّثي الوحيد. لم أكن أريد أن أرى أحدًا. مع ذلك، كنتُ في قرارة نفسي أتمنّى لو يأتي أحدٌ لزيارتي. وجاء أورفيو. لم يكن آنذاك سوى جرْوٍ هزيل يكاد يموت

جوعًا، وهو ينكش التراب بحثًا عن رائحة أمّه. تسلّل من تحت البوّابة ووقف أمامي ينظر إليَّ بعينين حزينتين. لمّا رآني لم أُحرّك ساكنًا، تشجَّع ودنا مني وهو يئنّ، جثا عند قدمَيّ وجمد في مكانه لا يأتي بحركة. لم يفارق أحدنا الآخر منذ ذلك الحين. أورفيو وأنا بمثابة الصفحة الوحيدة التي تستحقّ الحفظ في كتاب سيرتي. كلّ ما عشته قبل لقائي به لا يعدو حبكة فاشلة محبوكة على عجل...

تناول صدريّة داخليّة كانت منشورةً على حبل فوق رأسه، فارتداها وغرق في كرسيّه الهزّاز.

– لا رغبة لديّ في البكاء يا خوان. لا رغبة لديَّ في الحزن. لا نفعَ من ذلك كلّه. أورفيو سيموت. لا يمكن لأحدٍ أن يَحولَ دون ذلك. أشكر القدَر الذي وضعه على طريقي. بَيْدَ أنّ الطرقات كلّها تنتهي في مكان ما. طريقنا ينتهي هنا. الأمرُ بهذه البساطة.

عندئذٍ، أخذ قبّعة منبعجة كانت مرميّة على الأرض، ألقاها على وجهه، وأخذ يتأرجح بهدوء، إشارةً منه إلى أنّ حديثنا قد انتهى.

14

طلبتُ فنجان قهوة وأنا على التّراس في أحد المقاهي، أنتظر أن تفتح الحوانيت أبوابها.

تعود معرفتي بألونزو فوينتيس إلى زمن الطفولة. كان يسكن في الحيّ الذي أقيم فيه. كان مخادعًا مكّارًا كالقضاء والقدَر. كان مستعدًّا لبذل مهجته من أجل عمليّة نهب. طوال حياته لم يَلْقَ سوى المتاعب. كان يهوى، وهو بعدُ ولدٌ بحجم العنقود، التعلّق بمؤخّرة الشاحنات وهي تسير. كان مولَعًا برجم الكلاب وحرمان الجيران من متعة القيلولة. كلّما كبُر، كبُرت معه اهتماماته الشيطانية وتوسّع نطاق مناوراته، حتّى غدا علّامةً في فنون النصب والاحتيال. كانت الشكاوى والدعاوى تُرفَع ضدّه، إن لم يكن من جارٍ ساذج، فمِن قريبٍ استغلّ ثقتَه به. غير أنَّ ألونزو الملقَّب بـ«المجنون» لا يكلُّ ولا يرتدِع، ويرفض أن يعتبر أو يستخلص الـدروس. لعلّه لم يكن يُطيق البقاء خارج السجن، أو العيش من دون دعاوى وشكاوى. إذا مضى شهرٌ واحدٌ ولم يرمِه أحد بشكوى، كان يفعل المستحيل ليرميها هو على نفسه. حُكِم عليه أكثر من مرّة بالسجن الإفرادي، فكان يستمدّ فلسفة من كلّ مرّة يُسجَن فيها. تعلّم أصول الرشوة، ابتداع الحجج واختلاق

الأعـذار لنفسه، وتنظيم شبكات من المتعاونين. حتّى أنّـه كسب تواطؤ القضاة ورجال الأمن، بحيث أنّ كلَّ من أراد أن يُقدّم شكوى ضدّه في قسم الشرطة، كان يجدُ مَن يُقنِعه بالعدول عن ذلك، وذلك لتجنيب عدد كبير من الموظفين الإجراءات الطويلة المتعبة والتي لا تُفيد شؤون الدولة ولا السجّانين.

لقد نجح ألـونـزو، بفضل ألاعيبه، في امتلاك متجَر، يستخدم كواليسه لتصريف بضاعة يشتريها من السوق السوداء. كانت الشرطة على علمٍ بذلك، وهي لئن كانت تغضُّ النظر، فلكي تُبقيه تحت مجهرها: الآن وقد بات تاجرًا معروفًا على نطاق واسع، لم يعُد هناك من حاجة لاستصدار مذكّرة جلب بحقه أو نشر ملصقات «مطلوب للعدالة» بغية القبض عليه. لا تعني دقة المواعيد شيئًا لصاحبنا تاجر المسروقات، شأنه في ذلك شأن أيّ وجيه. هو يأتي ساعة يشاء، ويغلَق متجره ساعة يريد، وحينما تلوح في الأفق صفقةٌ ما، يختفي عن الأنظار.

في اللحظة التي بدأتُ فيها أفقد صبري، رأيته يهبط درَجًا يُفضي إلى الشارع، معتمِرًا قبّعة كسكيت تصل حتّى أذنيه، كتفاه محدودبتان إلى الأمام وذراعاه مقوّستان، شبيهًا بتمساح يذرع أرجاء منطقته.

تركتُ له الوقت الكافي لكي يفتح متجره، ويزيل بعض الغبار عن سقط متاعه.

صـرخ عندما رآنـي قـادمًـا، وفـتح ذراعـيـه المفرطتيّ الطول لاستقبالي:

– خوان، يا لها من مفاجأة... ما الذي دفع بك إلى هنا، وأنتَ لم تقُمْ بزيارتي ولو مرّة واحدة في السجن لمؤاساتي؟

– خشيت أن تستعمل ضروبكَ الاحتيالية لتبديل موقعينا، فأجدُ نفسي مكانَكَ مطلوبًا من العدالة وقد عُلِّق على ظهري رقمك كسجين.

إنفجر ضاحكًا، ودار من حول منضدة دكانه ليعانقني.

– يبدو أنك طردت من بوينا فيستا؟

– من روى لكَ هذه الترّهات؟

– إبن عمّكَ فيليكس. يأتي إليّ أحيانًا ليبيعني ثيابًا يستحصل عليها من السوّاح. محتال مذهل ابن عمّكَ هذا. يوهِم أولئك الأجانب المغفّلين بأنّه سيُقدّم هذه الملابس للمعوزين. أحيانًا يأتي إليّ بملابس جدّ رفيعة لا تليق إلّا بالملوك. تعالَ اتبعني، سأريك كنوزي.

قادني إلى مخزنٍ صغير يعجُّ بأكوام القمصان القطنيّة ذات الأكمام القصيرة، والسراويل والقمصان المعلّقة على شمّاعات، والسترات والفساتين البرّاقة، وأزياء ما زالت موضبة في صناديقها، وكلّ انواع الأقمشة الجميلة التي يعشقها الشباب. فَلَشَ معطفًا من الكشمير الخالص، وصاح فرحًا:

– أنظر هذا! عُرِضَ عليَّ ثمن خياليّ لقاءه، لكنّني آثَرْتُ الاحتفاظ به لأقدِّمه هديّةً إلى صهري بمناسبة عيد ميلاده. أليس تحفة أنيقة؟ ثمّ أضاف وهو يُريني البطاقة المعلّقة بياقة المعطف:

– إنّه من تصميم بيار كاردان.

– ولكنّني أثير الشفقة أكثر من المعوزين.

– كلا، هذا ليس من فيليكس، بل من امرأة لعوب انتزعتهُ من أحد أثرياء بورتوريكو. قايَضَتْه معي بثلاثة قمصان نوم وبضعة سراويل داخلية رفيعة... وما رأيك بهذا؟ زيّ يليق بالممثّلين. رفأتُه قليلًا ولكنّه غير ظاهر. وهذا...

قاطعته:

– ألونزو، لسنا في متحف. أريد فستانين أو ثلاثة عادية، وملابس داخلية نسائية.

– ماذا تعني بـ«عادية»؟

– فساتين غير باهظة الثمن.

– في هذه الحالة، عليك أن تذهب إلى متاجر الدولة. هنا، أبيع الملبوسات الفاخرة، وهي ليست بمتناول الجميع.

لا أدري كيف استطاع أن ينتزع آخر بيزو من جيبي، إذ باعني فستانين وسروالين داخليّين وحمّالة صدر تكاد لا تكفي لتغطية صدر دمية صغيرة.

عدتُ إلى البيت في موعد الغداء. كانت النساء منهمكاتٍ في المطبخ بإعداد الطعام، والرجال يسترخون في البهو مكتوفي الأيدي. كانت ماينسي في حجرة الاستقبال تجلس قبالةَ خافيير الذي راح يروي لها مغامراته في أنغولا. لا يحبّ خافيير أن يبقى الضيوف مدةً طويلةً عنده، لكنّه لا يتوانى عن تقديم بيته وحتّى ما يتقاضاه من مساعدة كونه من معوّقي الحرب، إلى أيّ شخص يصغي إليه وهو يتحدّث عن مآثره الحربية. كان يروي بالضبط مجريات المعارك الطاحنة التي خاضها في غابات أفريقيا. كانت ماينسي تُصغي إليه باهتمامٍ بالغ. إنتظرتُها حتّى ترفع رأسها لأريها رزمة الأغراض التي اشتريتُها لها. تظاهرتْ أنّها لم تفهم ما أريده.

تمتمتُ:

– هذه لكِ.

بإشارةٍ من ذقنها، فهمتُ أنّها لن تنسحب ما لم ينهِ الجنديّ السابق حكايته. بما أنني أعرف تمام المعرفة هلوسات خافيير، لم أُلحّ عليها، بل انسحبتُ إلى البهو. كان أوغوستو زوج بيلار، أخت خافيير، وأبناء أختي، يتناقشون جميعًا في شأن المختلّ الذي أرعب الأحياء الشعبيّة. في نظر أوغوستو، لا يعدو الأمر كونَه مصادفةً محضة، فليس من دليل على أنّ الشخص ذاته قد ارتكب الجرائم كلّها. أمّا في رأي

أبناء أختي، بما أنّ الدولة لم تحرّك ساكنًا بعدُ لاعتقال القاتل، فذلك يعني بأنّ وراء الأكمة ما وراءها.

سأل أوغوستو بعصبية، وهو من المناضلين الملتزمين:

– أيّ سرّ؟ وأيّ أكمة؟ ليس لديكم إلّا هذه الكلمة على لسانكم، أنتم الشباب. كلّما أحاط بعض الغموض بأمر ما تسارعون إلى اتّهام الدولة. يجب أن تكفّوا عن هذا الذهان. أنا على يقين من أنّ هذه الجرائم ليست سوى مشاحنات بين سُكارى أسفرتْ عن سقوط ضحايا. لقد بيّنتْ التحاليل أنّ نسبة الكحول في عروق اثنين من الضحايا أعلى من نسبة الدم. هم مجرّد زمرة من الضالّين تقضي معظم وقتها في مضايقة المومسات في الطرقات المعتمة. أمنعكم من اتّهام الدولة، فأنتم بذلك لا تفعلون سوى دعم الدعايات الإمبريالية المغرِضة، والرامية إلى زعزعة استقرارنا.

إرتأى أولاد أختي أنّ من الحكمة أن يحتفظوا برأيهم لأنفسهم. أوغوستو قد يشي حتّى بأمّه، إن قدحت وذمّت بالمسؤولين السياسيين. من خلف سياج الفناء، شاهدتُ ابني ريكاردو. كان شبه مستلقٍ على قطعة من الكرتون وسط الرصيف، غارزًا مرفقه في الأرض، ولاويًا عنقه. هو إذ يبقى في منأى عن الجمْعِ، فلكي يجترّ همومه وأوهامه. لم يحمل إليه ساعي البريد شيئًا. غير أنّ ريكاردو لم يفقد الأمل بعدُ.

أتألّم حقًّا لرؤية ابني يهترىء تدريجيًّا كثمرة سقطت من شجرتها، دون أن أتمكّن من فعل شيء لإنقاذه. هذا ما يؤجّج عذاب ضميري. أحسّ بنفسي عاجزًا، ومذنبًا لأنّني عديم الفائدة. بطبيعة الحال، أُحِبّ أن أنصحه وأُريحه، أن أكسب ثقته ومودّته، وأن أُثبِت له أنني أحبه، ولكن، كيف لي أن أُقنِعه بأنني والده ما لم أستطع أن أكون حاضرًا لأجله في الأوقات العصيبة؟

لا يثق ريكاردو بأيٍّ من أفراد العائلة. يعيش في عالم لا تزوره الأحـلام، ينوء تحت ثقل مأساة جيل كامل من الشباب المتروك لمصيره، والواثق من أنّه لو طال القمر، فحرّاس الهيكل، خدّام النظام، سرعان ما سيصادرونه منه. ففي كوبا، كلّ ما لا يتبع الدولة يُصادَر، ما لم يتمّ قمعه. أحزن من أجله ومن أجل هؤلاء الشباب الذين لا يعرفون من العالَم إلّا ما تعرضه الأفلام «المقرصنة»، وبعض أصحاب الرتب الذين نصّبوا أنفسهم قادة ويرتدون البزّات العسكرية في أوقات السلام، ويسلبون السماء نجومها ليزيّنوا بها شارات أكتافهم... للأسف، الأوضاع تتجاوزنا جميعًا، قطعانًا ورعيانًا معًا. كنّا نتمنّى لو نفكّر إيجابيًّا، وننتظر راجين شابكي الأصابع عوضًا عن البقاء قاعدين مكتوفي الأيدي، ونبقى مؤمنين بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام. لكن، ما حيلتنا مع بلدٍ يتعامل بعملتين: البيزو الكوبي غير القابل للتحويل، ويتعامل به الضعفاء المحتاجون إلى إعانة، والبيزو الكوبي القابل للتحويل والمخصّص للأقوياء أصحاب الحيل؟ ماذا يُنتظَر من غدٍ عندما تغيب شمسه خائبةً عن هافانا، سوى الأيام المتتالية التي تستنسخ بعضها بعضًا وتـدور حول بعضها بعضًا كحلقة من الطيور الجارحة المترقّبة جيفتها، من دون أن تأتي بأيّ جديد؟

لطالما تساءلتُ وأنا خارجٌ من المقبرة، بعد دفن أحد الأقرباء، أو أحد الجيران، مَن مِن الأحياء أو من الأموات ينتهي في الجحيم؟ عندما أفكّر بهولاء الشبّان الذين يسعون جاهدين إلى الهرب سرًّا من الجزيرة، يتملّكني فجأةً خوفٌ شديد على ولدي، ويجمُد قلبي كقبضة يد يابسة، حين أتصوّر ريكاردو يستميت من أجل الوصول إلى فلوريدا على سطح طوفٍ بدائي.

في الليل، أثناء نومي، يحدث لي أن أستيقظ فجأةً والعرق يتصبّب مني، وأنا أغرق في كابوس بحر تطفو الجثث على أمواجه...

نادتنا سيرينا من النافذة للجلوس إلى مائدة الطعام. أومأتُ بيدي إلى ولدي كي يلتحق بنا. هزّ ريكاردو كتفَيْه، رافضًا، وبقي أسير مزاجه العَكِر.

بعد تناول الطعام في جوّ من الهدوء رسمتْه مزاجية خافيير المتقلّبة، ذهب أوغوستو إلى المَدينة حيث يعمل حارسًا ليليًّا. أمّا أبناء أختي فتوجّهوا إلى ميدانٍ مهجور على أمل أن يتدبّروا مباراة كرة قدم. غادر ريكاردو من جهته – لا أعرف إلى أين، ولجأت النساء إلى غرفة بيلار ليتبادلْنَ الثرثرة ويقِفْنَ على آخر الأخبار.

بقيتْ ماينسي لتساعد سيرينا في المطبخ. وقفتُ مع حزمة الملابس، وقلت لها:

– جلبتُ لكِ ثيابًا.

أجابتْ سيرينا وقد أزعجها وجودي:

– ضعْها على الكرسي في المدخل.

ردّيتُ بإلحاح:

– يجب أن تجرّبها الآن، فإن كانت لا تناسب مقاسها، فعليّ إبدالها. تعْلمين كيف هم البائعون، إن لم تُعيدي البضاعة في اليوم نفسه، رفضوا استرجاعها.

رمقتني سيرينا بنظرة قاسية:

– أليس لديك عمل آخر تقوم به؟

– بالضبط، أريد أن أعرف إن كان عليّ أن أعود إلى البائع، أو أنصرف إلى أشغالي.

كانت ماينسي منهمكةً بغسل الأطباق، وتتجاهلني عمدًا. مع ذلك، إن كنت لأقف هنا كالأبله محشورًا عند فتحة الباب وحاملًا رزمة الثياب، فلكي أفوز بحركةٍ أو إشارةٍ منها، أو أقلّه لأرى شفتيها تكشفان عن ابتسامة صغيرة.

غير أنَّ ماينسي أصرّت على إدارة ظهرها لي. خالطني شعورٌ مُحبِطٌ بأنّني رجل خفيّ، لا وجود لي.

جهّزتْ لها سيرينا حمّامًا، ثمَّ استغرقت وقتًا طويلًا في تسريح شعرها، ثمَّ في إلباسها، قبل أن تقدّمها إليّ، وكأنّها رسّام موهوب يعرض أفضل لوحاته على ذرّيته. كدت أفقد أنفاسي من روعة المشهد. ماينسي تشعُّ جمالًا ونورًا على كلّ زوايا المنزل. وكأنّ هذا الثوب خاطَتْه خِصّيصًا لها يَدُ أشهر الخيّاطين وأرقاهم. لقد صقل جسدها المسكوب، مبرزًا إنحناءات وركَيْها ورِدْفَيها التي تلهب الناظرين، راسمًا خطوط صدرها الدقيقة. أمّا شعرُها الأصهب فقد أضفى على وجهها ألقًا من الصفاء والشفافية، إلى حدّ تمنّيت لو أحبسه في مصباح سحري.

– إنصرف الآن إلى أشغالك.

هكذا نهرتني سيرينا وهي تستمتع برؤية نيران الهيُام تتراقص في حدقتيَّ، والتي ما لبثتُ أن رأيتُ انعكاسها في ابتسامتها النبيهة. كلا الثوبين يلائمانها على أفضل نحوٍ.

لم أتمكّن من قول كلمة واحدة، ولا من القيام بأي حركة، فدفعتني سيرينا برِفقٍ نحو باب المخرج، وهمست لي:

– لا تذهب بعيدًا في أوهامك، إنّها في سنّ العشرين، ولَك ثلاثة أضعاف عمرِها.

آلمتني ملاحظة أختي هذه. لكنّني أعذُرها لأنّها عاجزةٌ عن تصوّر الزلزال الذي يجتاح كياني ويزعزع قناعاتي برُمّتِها. ما أشعر به تجاه ماينسي لم يراودني من قبْلُ قَط. على الرغم من أنّها لا تبلغ من السنّ إلّا ثلثَ عمري، فقد امتلكَتْ الجزء الأكبر من روحي.

إذا حدث أن تمكّنتُ من انتزاع كلمة من ماينسي، أظلّ مبتهِجًا طوال النهار. ما زالت لا تبتسم لي، ولا لغيري أيضًا، وغالبًا ما تظلّ صامتة.

لقضي جلّ نهارها في ترتيب الغرف، وفي تصريف الأعمال المنزلية التي تكاد لا تنتهي، على الرغم من استنكار شقيقتي، لكنّها تفعله لقاء حُسْن الضيافة الذي تلقاه.

بعد أيامٍ قليلة، بدأ حضوري يضايق نسوة المنزل. كنتُ على الدوام في أعقابهنّ أطارد عينَي ماينسي التي أكاد ألتهمها بعينيّ. على المائدة، أنسى تناوُلَ طعامي، ولا أبالي بالهزء البادي في الوجوه من حولي، وحركات الحواجب الساخرة، والإيماءات، والابتسامات العريضة الساهية، كلما نبّهتني سيرينا إلى تناول حسائي قبل أن يبرد. وعيتُ بأنّني أصبحتُ موضع فضول الجميع، لكنّني لم آبه. كنتُ مبهورًا بهذه الشريدة ذات الشعر الشفقي، حتّى أنّني أرجىء وأتناسى كلّ ما ليس هي.

فَطِنتُ إلى أنني أُمضي كلَّ أوقاتي تقريبًا في المنزل. لا أغادره قطّ، وإن خرجتُ من الباب، عدتُ للدخول من النافذة. حتّى ولو جهدت سيرينا مرارًا وتكرارًا في تنبيهي إلى أنّني أتصرّف كـ«تلميذ مولَع بمعلّمته»، فقد كنتُ دومًا أجِدُ عُذرًا لأكون قريبًا من محظيّتي، كأنْ أُرمّم قطعة أثاث، أو أعمل على إصلاح عطلٍ كهربائي، أو أنشغل بترتيب ملابسي وكيّها. واقع الأمر، أنّني أدمنتُ رؤية ماينسي؛ لا أستطيع الابتعاد عنها أكثر من ساعة واحدة. أحيانًا، أضطرّ للخروج من المنزل، لسبب أو لآخر، فأُقفِل راجِعًا قبل أن أصل إلى آخر الشارع، وأعود لأحوم حول المنزل، أترصّد طيف جسدها الذي بات يسكنني جسدًا وروحًا.

15

عندما كنتُ طالبًا في الجامعة، كانت الفتياتُ جميعها في نظري، تُختزل بمغامرة تنقضي بليلة واحـدة، أي بلحظات تواصل محدودة في الزمان والمكان. مغامرات عابرة كنتُ أستمتع بها وكأنّها أغنية هذا الصيف، مقتنعًا بأنَّ «أغنية الصيف» بعد انتهاء موسمها، تصبح مملّة. خلافًا لأوريمي أنشيا الذي كان يعرف كيف يدلّل عشيقاته ويوسّع نطاق غزواته الليليّة، ليضيفها إلى كنوز طرائده، كنتُ مفعمًا بالغرور وحبّ الذات، حتّى أنّ أيّ جمالٍ كان يفشل في التفوّق على روعة زَهْوي بنفسي.

عندما كانت مرسيدس تلومني على سهوي وطيشي – لأنّني كنتُ أعاملها باستلشاء، فلا ألاحـظ الأزيـاء ولا التسريحات التي تبتدعها كَيْما تُغريني – كنتُ أهزأ بها بدلًا من محاولة كسْبِ رضاها.

كنتُ أعني لها الكثير، لكنّها لم تكن ما يعني لي الأكثر. ما أردتـه، وما حلمت به بلا هـوادة، هو أن أغنّي على أكبر مسرح في العالم، وسط منصّة عملاقة تغصّ بالمعجَبين السكارى بصوتي، يترنّحون يُمنةً ويُسرةً، على وقع أنغامي، مشعلين ولّاعاتهم، مردّدين في جوقة واحدة الكلمات التي أنطقُ بها. لهذا السبب، لم تنتابني

الغيرة عندما غافلني أوريمي أنشيا ودسَّ المحبس في إصبع مرسيدس. والحقّ أنّني كنتُ أعشق صوتي، فقد كان ملهِمي وإيماني وجنوني، حتّى أنّني بدلًا من الثأر بالسُّباب والشتائم، غنّيْتُ لصديقي الزائف وشريكتي الخائنة طوال ليلة عرسهما، مُمسكًا بالميكروفون كما يمسك الساحرُ بعصاه السحريّة، واثقًا من أنّ نجم السهرة لم يكن العروس الحسناء مرسيدس ولا العريس الأنيق أوريمي، وإنّما أنا.

في ما بعد، عندما تزوّجتُ من إيلينا، لم أفعل أكثر من أداء واجبي كمواطن صالِح. لم أتزوّج بحثًا عن الحُبّ، ولا عن دفء العائلة، فقد كانت الموسيقى ملاذي والسماء سقفي. لا أذكُر كيف قبلتُ بإحكام الطوق حول عنقي، ولا على أيّة نوطة من السُلَّم الموسيقي نطقتُ بكلمة «نعم». الميدان الوحيد الذي أسودُ على أدنى تفاصيله، وحيث أُقيس نبضَ تميُّزي، هو المسرح، حين تنتظم دقّات قلبي على إيقاع قرع الطبول. المسرح، ودائمًا المسرح، وليس سوى المسرح، هذا الهيكل الرائع – ولا مكان سواه – حيث أكون أنا، بالتمام والكمال.

مع ماينسي، اختلف الأمر كليًّا. أتعلّم كلّ يوم أكثر فأكثر كيف أكنُّ لها ما لم أشعر به تجاه أي امرأة من قبل. الخيمياء عجيبة تولَّدت في أحشائي، نبضة تلو رعشة، ولا تنفكُّ تتعاظم.

أُقِرُّ وأعترِفُ بأنّني في اللحظة التي رأيتها تلك الليلة على ضفّة النهر عاريةً إلّا من حمّالة الصدر والسروال الداخليّ الصغير، اجتاحتني هزّة مهولة هيمنت على كياني. إنتشرتْ تردّداتها الصادمة في أرجائي كافّة، من دون أن تلقى أيّة مقاومة، غازيةً، واثقةً من إلقاء مراسيها في أعماقي، واستقرارها فيّ إلى الأبد.

ذات بَعْدَ ظُهْرٍ قائظ، بينما كان جميع من في المنزل، صغارًا وكبارًا، مستسلمين لقيلولةٍ بعد الغداء، خرجت ماينسي تستنشق

هـواءً نقيًّا، في فِناء المنزل. كنتُ واقفًا عند نافذة غرفتي عندما شاهدتُها تجلس القرفصاء في ظلّ شجرة، ذراعاها مشبوكتان عند ركبتيها، وعيناها تنظران إلى الأرض، وهي تدندن أغنية.

هبطتُ درجات السُلَّم بسرعة كي أوافيها.

لم تعِ حتّى أنّني جلستُ إلىٰ جانبها.

كانت منهمكةً بتكرار لازمة أغنية وهي تتأرجح قليلًا على وقع اللحن. كان شَعرُها الناريُّ يحجب وجهها الذي استطعت أن ألمح فيه نفحة حزن.

– ماذا تغنّين؟

– أُغنّي وحسب.

– جميل حقًّا!

عادت تُغنّي، من دون أن ترفع ذقنها عن ركبتيها:

– كان أبي يعشق هذه الأغنية.

– لا أعرفها.

– لا يُفترَض بالمرء أن يعرف كلّ شيء.

ضمّتْ ساقيها بشدّة، أحنَت عنقها وصمتت.

– هل تشعرين بتحسّن الآن؟

– لماذا؟ وهل كنتُ مريضة؟

– أسألكِ فقط إن كنتِ تستطيبين الإقامة بيننا.

– ليس هناك ما أشتكي منه.

بادرتُها في محاولة لمتابعة الحديث:

– هل اشتقتِ إلى بلدَتِكِ؟

– ليس هناك مرفأٌ دائـم لأرسـو فيه. وإنّما مرساة تستبقيني رغمًا عنّي في مكان ما.

– هل لديكِ عائلة؟

أخيرًا، التفتتْ إليَّ بنظرة كئيبة وقالت:

– لا أريد أن أتكلّم في الموضوع.

– بالتأكيد...

عادتْ لتغرس ذقنها بين ركبتيها، وغاصت في صمت مُزعج.

لم أحسّ بالعزلة والوحدة في حياتي كلّها، كما أحسستُ بهما في تلك اللحظة.

– ماذا كنتِ تفعلين من قبل؟

هزّتْ كتفيها ولم تُجِبْ. فسألتها ثانيةً:

– لا بدّ أنّه كان لديكِ مشروع ما، أليس كذلك؟

– مشروع؟ ولماذا؟

– لكي تنشغلي بـه. هـذا طبيعي. يجب أن يـراودنـا حلم ما في الحياة.

– حلم؟ وما هو الحلم؟

– لقد أكَّد لي رجلٌ مخضرم أنّ الحلم وليد المِحَن.

– لقد نسِيَ ذاك المخضرم أن يُخبِرك كم مؤلمةٌ هي اليقظة بعد ذلك.

– هي مؤلمة فقط للّذين ضَعُفَ أملهم.

– مات أملي.

– لا تقولي ذلك. أنتِ يافعة، جميلة، وفي صحّة جيّدة.

– لم أكن على علم بأنّك فحصتني.

– لا أحتاج أن أكون طبيبًا لأفحصك. يكفي أن أنظر إليكِ.

أجابت وهي ترمقني بنظرتها الكئيبة الغامضة:

– إيّاكَ والمظاهر، فالمظاهر خدّاعة.

أردتُ أن أُقول شيئًا، لكنّها قاطعتني بحركة من يدها. صمتنا معًا برهةً طويلةً. أحسستُ وكأنَّ حركة الهواء وضجيج الشارع قد عُلِّقا في الزمن. لم يعُد هناك سوى الفراغ المطلَق مِن حولنا. حتّى أوراق الشجر صمتتْ عن حفيفها المعتاد.

رحتُ أراقبها من طرف عيني. إنحنى عنقها، وراحت أصابعها تجوب العشب كأرواحٍ تائهة.

– ما رأيكِ بمرافقتي إلى المدينة؟

– لكي تعتقلني الشرطة مثلما اعتقلت أخي؟

– لن يعترض أحدٌ طريقك، ما دمتُ إلى جانبك. ألم تسمعي بدون فويغو يومًا؟

هزّت برأسها أن لا....

– الساحر الذي يُلهِب المسارح.

– أنا قادمةٌ من منطقة معزولة. هناك، وسط تلاطم الأمواج وضجيجها، وصخب السُكارى ومشاجراتهم، لا أحدَ يسمع أحدًا.

– يوم تستمعين إليّ وأنا أغنّي، ستزول كلّ الهموم عن رأسِكِ، كما لو بلمسةٍ سحرية.

إخترقتني نظرتها هذه المرّة، كحدّ السيف:

– ولماذا تفترض أنَّ ثمّة همومًا في رأسي؟

– أقول ذلك وحسب. من دون أي نيّة مبيَّتة.

ظلّتْ تحدّق بي ثوانٍ خلتُها لن تنتهي، قبل أن تشيح بوجهها عني.

– جولة صغيرة في المدينة ستحسّن من حالك. إذا أردْتِ، نتناول شيئًا في أحد المطاعم. أودُّ أن أُريكِ أماكن خلّابة.

– أنا ابنة البحر. فتحت عينيَّ على الموج العاتي، وانتظرتُ على الشاطئ عودةَ الصيادين كلّ مساء.

– ثمّة شواطئ كثيرة تُحيط بهافانا.

بحركةٍ من عنقها، أمالتْ شعرها إلى الجانب، ونظرتْ إليّ:

– أودّ أن أسبح على شاطئ رملي أبيض، تُظلّله أشجار جوز الهند.

في اليوم التالي، وافق فيليكس على أن يقلّنا إلى شاطئ البحر. بحثنا ساعات عن شاطئ مناسب. كانت ماينسي ترغب في موقع منعزل، لها وحدها. عثرنا في نهاية المطاف على خليج صغير لا تعكّر هدوءه أيّة نسمة. جلسنا على تلّة رملية صغيرة نتأمّل الأمواج.

سألني فيليكس الذي لم يعد يُطيق الانتظار داخل سيارته الحارقة، ما إذا كنّا ننوي البقاء مطوّلًا. أمام صمتنا، تَذرَّعَ بحجة الذهاب لابتياع بعض الحاجيات الضرورية، ووعدنا بأنّه سيعود ليقلّنا متى انتهينا.

بعدما انصرف ابن عمّي، توارت ماينسي وراء جذع شجرة لتخلع ثيابها. رؤيتها وهي تتعرّى من ملابسها، قطعةً تلو الأخرى، كوريقات زهرة فردوسية، لحظةً لا تُضاهى. بلمسات الخريف الحمراء الدافئة في شعرها، وزرقة البحار في عينيها، وجسدها الخياليّ، ماينسي هي الجمال المُجسَّد. أجمل من الشمس وكلّ ما يدور حولها. لأول مرّة، لعنت الزمن الذي ذهب بعمري بعيدًا عن نداء القلب، وحقدتُ على نفسي إذ سِختُ على غفلةٍ مني، في حين أنَّها بهذا الرونق من الشباب والجمال. عندما استدارت، فاجأتْني أشتهيها بكلّ كياني، فاضطربتْ وأحسَّت بالإطراء في آنٍ معًا، ثمّ ركضت ترتمي في أحضان البحر.

في ذلك اليوم، سبحتْ وسبحت وسبحت حتّى الإنهاك التام، وكأنّما كانت تجهد لتستعيد ما سلبته منها الحياة.

وكأنّما البحر قد غسلها من كلّ عذاباتها.

خرجت ماينسي من البحر كما لو أنّها ولدت من جديد من رحم طاهر، نقيةً، عذراء، أصليّة.

لو كنتُ أملك سيارة لحملتُها إلى كلّ شواطئ الجزيرة، وجلستُ على الرمال أراقبها وهي تسبح وتعوم، وأنتظر خروجها كالحوريّة من الماء وكأنّني أشاهد ولادة معجزة جديدة.

منذ ذلك اليوم، لم تعُدْ ماينسي مُضطرّةً لتحمّل تقلُّبات خافيير المزاجية، أو القيام بأعمال منزليةٍ وخدمة الآخرين، أو ملازمة سيرينا كظلّها. باتت تشعر بأنّها في بيتها حيث الجميع يحتضنها ويحنو عليها. صار أبناء أختي يعودون من المدرسة قبل الوقت المعتاد كي ينْعَموا بكل دقيقة يقضونها معها، حتّى أنهم بدأوا يُغيظونني ويثيرون حَنَقي. إنفردتُ بهم مرّات عدّة لأُنبّههم إلى ضرورة التزام الهدوء. وعدوني بأن يخفّفوا من تعلّقهم بماينسي. ثمَّ بعد فترة من الهدوء، عادوا إلى ما كانوا عليه، يروون لها النوادر والطرائف، ويُسَرّون سرورًا عظيمًا لرؤيتها تضحك من أعماق قلبها. لم أرَ يومًا ضحكة بعظمة السمفونية الموسيقية، مثل ضحكتها.

من موقعي المنزوي حيث تحوّلتُ إلى مجرّد ممثل صامت، شخصية ثانوية، كنت أغتاظ لأنّني لم أحفظ نوادر وطرائف مضحكة أرويها لماينسي. فوجئتُ بأنّني صرتُ أكره أبناء أختي لحسِّهم الفكاهي ولفتوَّتهم وصفاقتهم، وتلك السهولة الطبيعية التي يتمتّعون بها في اجتذاب الآخرين. تنبّهتُ إلى أنّني صرتُ أحسدهم وأغار منهم، كما كنتُ أحسدُ مشاهير الروك الذين ينعمون بهتاف وتبجيل الجماهير.

عندما أنظر إلى وجهي في المرآة، وأمرِّر أصابعي على الجيوب المتورِّمة حول جفنَيّ، وأكتشف تجاعيد جديدة ما بين تجاعيد الأمس، يتعاظم الشكّ لديَّ، تتفاقم مخاوفي، وأتساءل: ألستُ أقود نفسي بنفسي إلى فخّ مغامرةٍ لا مستقبل لها، وهي لن تعود عليّ، وأنا في هذه السنّ، إلّا بأحزان لا جدوى منها؟

مع ذلك، عندما تنظر ماينسي إليَّ، وتشرق عليَّ ابتسامتُها السخيّة، أستعيدُ حبّ الحياة. ففي الحبّ، كلّ تراجع أو تنازل أو تخلٍّ هو نوع من الموت المجاني. حتّى ولو كان حظّي في الفوز بقلب هذه الحسناء لا يتعدّى الواحد في الألف، فلن أتراجع ولو جابهتني صعوبات الدنيا كافّة.

ذات ليلة، وقد جفا النومُ جفنيّ، خرجتُ إلى فِناء الدار أروي ظمأ أفكاري الملتهبة. لم يَعُدْ بوُسعي أن أطرح على نفسي أسئلةً أجهل إجاباتها. جلستُ على كومة تراب، ورُحتُ أستمع إلى صرير الأجمة المجاورة. من بعيد، كان طبل باتا تشاتشا يجهد لطرد الأرواح الشريرة، من دون أن يقلق هواجسي. قريبًا مني، كانت الأصوات الآتية من صوب الجون تبعث على الطمأنينة، وأريج الرابية يتصاعد ببطء نحو المدينة، متضائلًا، شبيهًا بنفحات الضباب الصباحي التي سرعان ما تتلاشى تحت ضوء الشمس.

رغبتُ في أن أُغمِضَ عينيَّ، وأُطلِقَ العنان لصوتي فيسمعني سكّان الطرف الآخر من العالم.

ولماذا أُزعِج شعبًا غارقًا في سُباته؟

إستسلمتُ لوشوشات النسيم تُجرّح الجدران، تنفّستُ، وتنفّستُ وتنفّستُ...

لم ألاحظ الظلّ الذي انحنى عليَّ. أحسستُ إحساسًا طفيفًا بنفَسٍ خافتٍ على عنقي. قبل أن أعي حتّى، أن أتحقّق من أيّ شيء، شعرتُ بشفاهٍ تنطبع على رقبتي من الخلف. لم يتسنَّ لي الوقت إلّا لأرى ماينسي وهي تعود إلى المنزل، رشيقة خاطفة، شبيهةً بجنيّة تهرب من جانبها الضعيف، عائدةً إلى الغبش لاستعادة قدراتها. لبضع لحظات، خِلتُ بأنّني أهلوس أو أرى سرابًا، لكنَّ أثر القبلة ما زال يزيّن

عنقي بلسعته الجميلة. لقد قبَّلتني ماينسي. حقًّا قبَّلتني. حفاظًا على الدليل الدامغ، لمستُ لمس اليد ذاك الحرق الواخز الحبيب المبارك وضغطتُ عليه طويلًا لمنعه من الزوال.

16

كنّا ماينسي وأنا في فِناء المنزل، وظلّ الشجرة يحنو علينا برِفْقٍ.

كان طنين الذباب من حولنا وكأنّه شظايا حلم. سلام رائع كان يسكنني. كانت ماينسي تتأمل صفحة الماء تتلألأ تحت أشعّة الشمس. على بُعد نصف المسافة من الضفّة، كان الـ«لانشيتا» يتمايل وهو يشقّ المياه محمَّلًا بالركّاب.

إنّه يوم رائع لكي نؤمن بالحياة.

لم نَجِدْ بعدُ، ماينسي وأنا، إهتمامًا مشترَكًا، أو موضوعًا يهمّ كِلَيْنا لكي نعمل على تنميته وتطويره. لكن، كنّا نجلس جنبًا إلى جنب، وفي هذا وحده ما يُرضيني ويُسعِدني.

اليوم، عادت إليَّ شجاعتي كاملة، وفسّرتُ لماينسي لماذا اخترتُ أن أكون مُغنّيًا. أصغَتْ إليّ بانتباه، وهي تختبئ وراء طيف ابتسامة حالمة، حتّى خُيّل إليّ أنَّها سارحة في عالم آخر.

وصل الزورق إلى المحطة. نزل الركّاب إلى اليابسة، وتفرّقوا عند جانبَي القطار الأخضر. هناك وقفت شاحنةٌ متهالكة تأبى الإقلاع في حين يحاول عامل ميكانيكي إصلاحها وقد اختفى نصفه تحت

غطاء المحرّك. على الرابية، أولادٌ يلهون. كان صياحهم يصل إلينا على دفعات تدور في الهواء كالدوامة.

سألتني ماينسي:

– ماذا يعني هذا الرقم الموشوم على ذراعك؟

– ليس رقمًا، بل تاريخ: 24-4. يوم 24 نيسان (أبريل) هو تاريخ ميلاد ابنتي إيزابيل. حفرتُه في جلدي لأظل أتذكّره. المشكلة هي أنّني على الرغم من ذلك، أنساه في كلّ مرّة.

– كم عمرها؟

– 12 أو 13 سنة.

– أين هي؟

– تعيش مع أمها، على مسافة قريبة من هنا. تطلّقنا زوجتي السابقة وأنا منذ أربع سنوات. لكنَّ علاقتنا بقيت جيّدة. في السابق، لم تكن العلاقات بيننا على ما يرام. كنتُ أغنّي كلّ مساء، وهي تبقى وحيدةً طوال الليل تنتظر عودتي إلى المنزل...

– ما زلتَ تفكّر فيها؟

– بابنتي أو بزوجتي؟

تظاهرتْ ماينسي بأنّها تراجعتْ عن السؤال:

– لعلّني أتدخّل في ما لا يعنيني.

– لا يزعجني أن نتحدّث في الموضوع.

– لا بأس... هل غنّيتَ حقًّا لفيديل؟

– ليس له فحسب. مرّ زمن حيث كنتُ مطلوبًا في الأوساط الراقية على الدوام.

– كيف هو فيديل؟

– حيويّته لا تُقهَر. عندما ينظر إلى أحد، يرى ما في داخله... لقد أَبدى لي إعجابه الشديد بغنائي في ختام الحفلة.

– إنّه لأمر مُرضٍ أن تعاشر الطبقة الراقية.

– مُرضٍ، لا أعرف. إنّما مهمّ، بالتأكيد. كان بوُسعي أن أستغلّ علاقاتي لأفرض نفسي في عالم الفن، غير أنّني لستُ انتهازيًّا. أعتبر الموهبة المعيار الوحيد للوصول إلى الشهرة.

فجأةً اكتسى وجهها بتعبيرَ غريب، وسألتْ بشيء من الحنق:

– وما الشهرة؟ مجرّد غبارٍ يذرّ في العيون.

أجبتُها:

– هذا ليس رأيي. تصوّري للحظة العالم بلا فنّانين، بلا مغنّين، بلا ممثّلين. ألن تصبح الحياة حزينة ومضجِرة حتّى الموت؟

– وحدهم الشعراء يستحقون الاحترام.

– أنتِ قاسية في حكمك.

صدمتها كلماتي هذه.

– من أين تعرفني حتّى تحكم عليَّ؟

– لا أحكم عليكِ. هي مجرّد طريقة في التعبير، لا أكثر.

– أراها خرقاء، طريقتك هذه. ليس هناك مِن حَكَم على وجه الأرض؛ فلا يمكن لأيّ شخص أن يجعل نفسه في مكان الآخرً.

صعقني انقلابها السريع.

– أسحب كلامي.

ظلّت تحدّق بي بازدراء لبرهة، قبل أن تستعيد رباطة جأشها:

– ربما كنتَ على حق. أنا لا أذهب إلى السينما، ولم أُدعَ يومًا إلى حفلة موسيقيّة، ولا أذكر أنني صادفتُ فنانًا في طريقي. أعيش معزولة في قريتي الصغيرة، مع بعض الكتب وديوان شعر. ذلك لا يكفي ليؤنِس وحدتي، لكنَّ ضيقي لم يكن يتّسع لأيّ أمر آخر.

بحركة عفويّة استهلّيتُ فكّ شريط حذائي. لم أجرؤ على رفع ناظري، خوفًا من خدش حساسيتها التي بدت فجأةً بغاية التعقيد

بقدر ما هي صادقة وبريئة. تابعتُ بحذر وكأنّني أسير وسط حقل من الألغام:

– أنتِ مجحفة بحقّ نفسِكِ. عليكِ أن تأملي بغدٍ أفضل. كلّ الناس قد يمرّون بظروفٍ صعبة وفترات عصيبة، لكن، ما من أحدِ يفقد أهليّته إلى حدّ الإقصاء الكامل. الحياة هي في الأساس أن نتعلّم النهوض من جديد.

– لكنني امرأة. علّموني أن أطيع وأصمت.

– أعرف نساء كثيرات حقّقن النجاح.

– أمّا أنا، فلا.

– عمَّ جِئتِ تبحثين في هافانا؟

نفخت خدّيها، وجَّهت نظرها إلى السماء، بحثت عن إجابة ولم تجدها. تردّدت قليلًا، ثمّ قالت:

– لم تكن هافانا وجهتي الأساسية. أخي هو الذي أصرّ على المجيء.

– ألم يَرِدكِ أيّ جديد عنه؟

– لا. يا ليته سمِع كلامي. كان يعتقد أننا قد نبني أنفسنا من جديد في المدينة. أظنّ أنَّ المرء لا يستطيع إعادة تكوين ذاته، إلّا في ذهنه.

– هذا صحيح نوعًا ما.

شبكت يديها بين فخذيها وعادت تتأمّل مياه الجون.

– أين تقع قريتك؟

– أف! ليست قرية بمعنى الكلمة، بل بعض الأكواخ الفاحمة والمجمَّعة حول مرفأ صغير للصيد، على بُعدِ بضعة كيلومترات من مانزانيللو. هناك بقايا قلعة إسبانية على الشاطىء، حيث كان يروق لي أن أطالع. ما عدا ذلك، كان الضجر يأكلني.

– ليس هناك أفضل من هافانا للتسلية. سأُريكِ أماكن رائعة حافلة بالملاهي والكباريهات.

– لم آتِ إلى هافانا لأتسلّى. لو عاد الأمر إليَّ، لاخترتُ الذهاب إلى مستنقعات زاباتا.

– ليس هناك سوى مياهٍ آسنة مليئة بالجراثيم. لدغة واحدة من حشرة سامّة تقضي عليكِ أو تصيبك بالمرض طوال حياتك.

– سبَقَ لي أن فارقتُ الحياة مرّات عدّة.

نظرَتْ إليَّ بطريقة غريبة، وأضافت:

– إذا سمحتَ، فلنغيّر الموضوع.

ظهرتْ قبّعة ساعي البريد لتضع حدًّا لحديثنا. رأيتها تعبر من خلف الجدار المحيط بالمنزل، وتتوقّف عند البوّابة. ساعي البريد شابّ هزيل، قصير القامة إلى حدّ أنَّ جعبة الرسائل التي تتدلّى من كتفه تكاد تلامس الأرض. أخرج منها مغلّفًا أبيض وهو يصفر مسرورًا، لأنّه جاء أخيرًا برسالة إلى ولدي الذي كان عند الرصيف المقابل، وهو لا يصدّق ما تراه عيناه.

عندما لَمَحَهُ ساعي البريد، صرخ به ممازحًا:

– هيه! هل تريد أن أُعيدَها إلى المُرسِل؟

بقفزةٍ واحدة، اجتاز ريكاردو الرصيف. كاد يمزِّق الرسالة وهو ينتزعها من يد الساعي. كان يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وهو يُخرِج من المظروف بطاقة بريدية، وإنّما سرعان ما جَمُدَ في مكانه. لقد صعقه ما قرأه. بقي برهةً طويلة مشدوهًا كالأحمق. بان الغضب الشديد في عينيه، وهو ينظر إلى السماء. ثمّ أسقط البطاقة والمظروف من يده، وارتدّ على أعقابه مُنهَكًا مذهولًا وكأنّه يسير وهو نائم.

أسرعتُ إلى التقاط البطاقة البريدية. كُتِبَتْ فيها أربعة أسطر بخطٍّ عريض، مقتَضَبة وسريعة:

لم أستطع شيئًا بشأن أوراقك يا ريكاردو.
أنا حقًّا آسفة.

إعتنِ بنفسِك.

ماريا.

نظرتُ إلى ولدي وهو يبتعد، جسدًا بلا روح. لمستُ حزنه بوضوح، ولكن لم تكن لديَّ الشجاعة ولا القدرة على اللحاق به. لم أتقن يومًا التفاوض مع التعاسة.

الحمد لله.

لن ينتهي ابني طعامًا للأسماك في عرض البحر نحو فلوريدا، ولن يقبع في السجن جرّاء دخوله غير الشرعي إلى البلاد. لقد كان ريكاردو حكيمًا في خياره، فآثَرَ التخلّي عن الشهوة والشره المادّي والجنسي. قرّر أن يصبح «إيّاوو»، أي رجلًا فاضلًا.

في صباح اليوم التالي، وصل مرتديًا ثوبًا أبيض يغطيه من قمّة رأسه حتّى أخمص قدميه، طبقًا لتعاليم هذه الطائفة التي رحّبتْ به وتبنّته وقبلتْ به عضوًا بين أعضائها. من دون أن يكلّمَ أحدًا منّا، صعد إلى الطابق الأول، جمع أغراضه الشخصية، ثمَّ نزل حاملًا حقيبته. قبّل سيرينا في جبينها وغادر المنزل. لم يُعِرْني أدنى اهتمام. مع ذلك، لستُ عاتبًا عليه أدنى العتَب، فقد قرّر أن يتدبّر أموره بنفسه، ومن دوني. يعتقد كلّ جيلٍ أنّه بحاجة إلى مثالٍ أعلى لكي ينمو ويسمو، وينسى أنَّ الزمن يتكفّل بذلك على أفضل نحوٍ. لا بل شعرت ببعض العزاء، فقد كنتُ أتخوَّف من أن يرمي ولدي نفسَه في المخاطر؛ لقد اختار أن يسلِّم أمرَه إلى كاهن سوف يعزله في صومعة ليلقِّنه طقوس الطاعة. على ريكاردو أن يلتزم تعليمات الزعيم الروحي، وينفّذ أوامره بحذافيرها. عليه أن يمتنع عن أكل البيض، وألّا يرتدي إلّا الأبيض، وألّا

يجامع امرأةً قَط، وألّا يُعاشر إلّا أفراد جماعته الجديدة، وأن يمارس، طَوالَ سنة كاملة، تمارين الطهارة والتعبُّد.

بُعَيْدَ الظهر، اتّصلت أمّه بي هاتفيًّا. كانت في حالة هستيرية، كعادتِها. غالبًا ما كنتُ أتساءل من أية طينةٍ جهنميةٍ جُبِلَتْ هذه المرأة التي كانت زوجتي. ما إن تَسنَحْ لها أدنى فرصة حتّى تستغلّها لتُلهبَ أعصابي. في رأيها، أيّ مصيبة تُصيب العائلة تكون لا محالةَ بسببي ومن تدبيري. إذا ما أشرقت الشمس من الغرب ذات يوم، فسوف تُقسِم بأغلظ الأيمان بأنَّ لي ضلعًا في الموضوع.

صَرَخَت في أذني عبر الهاتف:

– ماذا فعلتَ بولدي أيها الوغد؟ لقد حشوتَ رأسه بما يكفي ليقتنع بأن يتركك بسلام، كي يخلو لك الجوّ، أليس كذلك؟ إنَّك لا تصلُح لشيء. لا تفكّر إلّا بنفسك، ولا ترى إلّا ذاتك. لا تهتمّ إلّا بما لن تحصل عليه أبدًا. متى ستتعلّم حسّ المسؤولية؟ لا يُضاهيك أحدٌ في إنجاب الأولاد، ولكن، أن تربّيهم؟ هذا ما لا تستطيعه أبـدًا. ريكاردو إيّاوو؟ منذ متى؟ واحسرتاه، هذه الجماعة النتنة سوف تنهشه لحمًا وترميه عظمًا. لئن أصابه أدنى سوء، سأنتزع أحشاءك كالخروف، وألقي بقلبك إلى الكلاب، أيها العاجز الانتهازي الطفيلي، يا بذرة الشر، أيها المُخنَّث الخامل. يا أسوأ مُنجِبٍ على وجه الأرض. أكرهكَ، ألعنكَ...

تركتُها تُفرِغ مرارتها، ولم أنبُس ببنتِ شفة. ما الجدوى؟ لن يفعل ذلك سوى زيادة حنقها. لستُ ألومُها حقًّا. ولدي تراجع عن فكرة الهجرة. كلُّ ما عدا ذلك لا يهمّني.

أبلغني لويس، البوّاب، بأنَّ إدارة الـ«غاتو تويرتو» راغبةٌ في أن أفتتح أمسية السبت. وافقتُ على الفور ومن دون طرح أيّ سؤال. آن الأوان لتكتشف ماينسي أيّ مغنٍّ رائع أنا. غير أنَّها رفضت الدعوة، بحجّة

أنَّها لا تريد أن تعرّض نفسها للخطر في المدينة. عرضتْ عليها سيرينا أن ترافقنا، وكذلك فعل أوغوستو وبيلار، إبنة أختي، شوس وأكبر أبناء أختي، غارثيا. ألحّوا عليها بحماسة ولهفة، فوافقت في النهاية.

كان الـ«غاتو تويرتو» يغصُّ بالحضور. كان نجمَ حفلة الغناء في تلك الأمسية، شابّ واعد، يشبّهه الناس بمارك أنطوني. مرَّ بي، وأنا في مقصورتي، وألقى عليَّ التحية. تأثَّرتُ لاهتمامه. عندما أُزيحت الستارة وشاهدتُ ماينسي، وسْطَ أفراد عائلتي، ترمقني بنظراتها، بتكتّمٍ وخِفية في الظلّ، تناولتُ الميكرو وأطلقتُ لصوتي العنان، كمَنْ يزفر روحه كي ينبعثَ أسطورةً. إجتاحت الصالةَ موجةٌ من الهيجان، ما إن بدأتُ خطواتي الراقصة الأولى. بينما كان الجمهور يجنُّ صخَبًا وانفعالًا، لم أكن أرى سوى ماينسي مختبئةً وراء وشاحها. لم أكُنْ أغنّي إلّا لها، ولها وحدَها، واثقًا من أنَّها تعرف ذلك. في كلّ مرّةٍ تُنعِم عليَّ بابتسامة، كان صوتي يعلو درجة.

قالت لي ماينسي، في طريق عودتنا إلى المنزل، إنَّها لم تسمع يومًا مطربًا يغنّي بهذه الروعة.

تلك الليلة، عددتُ كلّ نجوم السماء.

17

صاحت بنا سيرينا:

– إسمعوا...

توقفتْ ضوضاء المائدة، ثمَّ انقطع صوتُ قرقعة الملاعق على الصحون. أصَخْنا السمعَ، ونحن نحاول أن نبتلع بتؤدة ما كنّا نمضغه. كاد خافيير يغصُّ بلقمته. رفعتْ ماينسي أخيرًا نظرها عن صحنها.

أصاختْ سيرينا السمع أكثر فأكثر، ودعتنا إلى الإصغاء مثلها. من النافذة المفتوحة، انْسابَت إلينا، من وراء حفيف أوراق الشجر وأصداء ضجيج الشارع، نفحة من الفضاء الكونيّ: لحنٌ يبعث به عازف ترومبيت. نغم رائع، نافذ ودقيق انتشر في أرجاء الحيّ وكأنَّه سحر.

تركنا المائدة وخرجنا من المنزل، وكأنَّما اجتذبنا مغنطيس عملاق. كان النسيم اللطيف كبساط ريح يحمل كلّ نغمة ويعلو بها، يتصاعد ويرتقي ليُذكي لألأة النجوم فيزيدها بريقًا. كنّا مذهولين، نُدير رؤوسنا في كلّ الاتجاهات بحثًا عن المكان الذي تنبعث منه الموسيقى. كانت رعشة التأثر تخترق أجسامنا وتقشعرُّ لها أبداننا؛ الجميع يتساءل: أما زال في العالم كائنٌ يجيد أداء قطعة موسيقية رائعة كهذه، بهذه البراعة؟ حتّى الأولاد الذين كانوا منهمكين

بالركض خلف الكرة على الطريق، أوقفوا اللعب والصياح ليصغوا إلى نداء الترومبيت الجليل. ثمَّ بدأ الجيران يخرجون الواحد تلو الآخر من بيوتهم، فالأمّهات وأطفالهنّ على أذرعهنّ، فالكهول والمسنّون بسراويلهم المترهّلة، وبعدها الفتيان والشبّان بقمصانهم الداخلية يستعرضون بها عضلاتهم المفتولة. في غضون دقائق، بات الشارع كلّه واقفًا في الخارج، ميمِّمًا وجهه شطْرَ هذه الموسيقى الرائعة التي تخترق جسد الإنسان وروحَه بآلاف الشرارات.

كان الليل يحتضن عازف الترومبيت بحنوٍّ وهو ينفخ في بوقه، كما تُنفَخ الروح في الأجسام الميتة لتعيد إليها الحياة. كان اللحن على قدر من السحر والعطاء ليصمت الكون إلّا من رعشات قلوبنا النابضة على إيقاعات المعزوفة. كنتُ مبهورًا بصفاء الأصداء الراقصة المنبعثة من العتمة، حتّى أنَّ دمعة حارةً تدحرجتْ على خدّي، حارقة كسيل من الحِمَم.

أبدًا وقطعًا، لم أسمع تقسيمًا موسيقيًّا كهذا. وإنّي لواثق أيضًا أنَّ كلّ جمهرة الشارع لم يسبق لها أن شنَّفت آذانها بأداءٍ خارقٍ كهذا. فجأةً، لم يَعُد الليلُ سوى نبض؛ لمس النسيم العليل وجوهنا بنوطات من حنان لا يمكن لأيّ أمّ، لأيّ امرأة في الدنيا أن تمنّ بمثله، لشدّة ما انسكب في حواسنا، كما لو أنَّ الله عزّ وجلّ هو الذي يلمسنا ببركته.

طرحت سيرينا السؤال بِحِيرةٍ، وهي في حالٍ من النشوة العارمة:

– تُرى، مَن يمكن أن يكون؟

لم أقُل لها من هو.

كان عليها أن تعرفَ من هو.

وكيف لا؟

ليس على وجه الأرض سوى كائنٍ واحدٍ يمكنه أن ينتزع من آلةٍ موسيقية شهقات مؤثّرة بقدر «تنهُّدات الربّ»: بانشيتو. إذا

كان بانشيتو قد استعاد آلته الموسيقية بعدما هجرها سنينًا طويلة، فمعنى ذلك أنَّ كلبه قد نفق.

سارعتُ عند الصباح للوصول إلى بيت صديقي لكي أواسيه في مصابه الأليم. كان هناك حشدٌ من الناس أمام كوخه الصغير. مجموعات متباعدة، نساءً ورجالًا، تقف في ظُلّ جدار السور، على امتداد الرصيف، شبيهة بمجموعات الدواري التي تصطفّ على أسلاك الكهرباء. خفق قلبي بشدّة داخل قفصي الصدري. أيكون بانشيتو قد انتحر؟ تُرى، هل يقف هؤلاء الناس بانتظار وصول رجال الشرطة، أو بانتظار إخراج الجثّة للسير في جنازتها؟ حثَثْتُ الخطْوَ، قبل أن أبدأ بالركض. وقفتُ بالضبط أمام البوّابة: بانشيتو يتأرجح على كرسيّه الهزّاز، وقبّعة القش تغطّي وجهه.

بادرته بالسؤال، وأنا أجتاز الفِناء في اتّجاهه:

– ماذا يحدث هنا؟ ما هذا الحشد؟

– يريدون أن أعزف لهم على الترومبيت. وأنا لا أريد سوى أن يغربوا عن وجهي.

رفعتُ القبّعة عن وجهه. غمزَ العجوز بعينيه بسبب نور الشمس الذي داهمهما. كان ثملًا لدرجة بدا وكأنَّه تلقّى ضربة شمس. سألتُه:

– هل أنتَ على ما يرام؟

– ولمَ تريد ألّا أكون على ما يُرام؟

بدفعة مفاجئة، انتصب على كرسيه، قرَّبَ قنّينة الروم من شفتيه، وأفرَغ في فمه جرعة أَخرجتْ من صدره خرخرة.

– قُل لهم أن ينصرفوا. لا أريد أن أرى أحدًا.

– لئن أتوا إلى هنا، فلأنَّهم معجبون بموسيقاك.

– لم أعزف لهم. عزفتُ لراحة روح أورفيو.

– وجودهم هنا دليل على أنَّهم يشاركونك حزنَك.

– لم أطلب منهم شيئًا. ليذهبوا في حالهم ويتركوني في حالي. لستُ من عجائب الدنيا السبع ليأتي الناس ويتفرَّجوا عليَّ.

أفلتت القنّينة من يده وانكسرت. فهِمتُ الآن لماذا أخذ في الآونة الأخيرة، يمارس بعض التمارين الرياضية. كان يحاول أن يُنعش رئتيه بعض الشيء، ويعيد تأهيل تنفّسه، لكي يتمكَّن من العزف لكلبه عندما يحين أجَلُه.

– بانشيتو...

– دعني وشأني، من فضلِك. إذهب، وقُلْ لأولئك المتخلِّفين أن يذهبوا في سبيلهم. وإلّا فسأنادي الجيش.

من وراء البوّابة، صاحت امرأة:

– لن نبارحَ هذا المكان.

عقَّب عجوز أسود، رافعًا قبضته في الهواء:

– بالتأكيد. نريد أن يعزف لنا بانشيتو لحن ليلة أمس.

سَرَت بلبلة بين حشد الناس، عَلَت الأصوات، سادَ هرجٌ ومرج، وزادت الحماسة. تركَ الصبية رصيفهم ليحوموا أيضًا حول البوّابة. أكثرهم حماسًا جلس على الجدار، مُسدلًا قدميه في الهواء.

صاح بعضهم:

– من فضلك يا بانشيتو، إعزف لنا شيئًا. هربنا من المدرسة وأتينا إلى هنا لنستمع إلى عزفك.

عَلَت الضوضاء مجدّدًا، وأخذ الجميع يُطلِقون النداءات والتوسُّلات إلى بانشيتو، لكي يأتي بالترومبيت من جديد. أمّا أنا فقلتُ له:

– لو كنتُ مكانك، لعزفتُ بكلّ سرور وحبور.

– لكنَّك لستَ مكاني.

– هل سمعتَ ما قاله هؤلاء الفِتْيَة؟ تركوا الدراسة وجاؤوا إليك.

عادت المرأة لتُصِرَّ، وهي ممسكة بقضبان البوّابة:

– لن نذهب من هنا، بانشيتو، قبل أن نُشنِّف آذانَنا بعزفِكَ العذب.

علَتْ صيحات من بين الجموع:

– لن نذهب من هنا. سنبقى هنا، وإذا ما جاءت قوى الأمن لتفرّقنا بالهراوات والغاز المسيّل للدموع، فسنعود مرّة أخرى.

خيَّم على الشارع صمتٌ جليل. لم يعُدْ أحدٌ يأتي بحركة. إنصبَّت الأنظار كلّها على بانشيتو.

غمغمَ بانشيتو قائلًا:

– سأدخل وأنام. هؤلاء الرُعْن يُثيرون أعصابي.

علا الصخب والضجيج عندما نهض بانشيتو عن كرسيّه ودخل كوخه وهو يترنَّح. تضاعفت صيحات الفرح والهتافات. إنَّما مع مرور الثواني فالدقائق، وفيما لم يخرج أحد من الكوخ، أخذت الفرحة تذوي، والصيحات تخبو، ليحلَّ مكانها صمتٌ من نوع آخر، مُثقلًا بالحيرة والخيبة.

في اللحظة التي كنتُ أستعدّ فيها للنهوض والانسحاب مخذولًا من موقف صديقي، عادت هتافات الحماس بين الجموع التي تحرّكت كأنَّها كتلة واحدة؛ ها بانشيتو يخرج من عرينه وفي يده الترومبيت.

صرخ في الحشد:

– فلنتَّفق. هذه آخر مرّة. بعدها، لا أريد أن ينتصبَ قبالتي أحدٌ ليعكِّر عليَّ المشهد المطلّ على البحر.

يصعبُ، لا بل يستحيل عليَّ أن أصف ما أتحَفَنا به بانشيتو ذلك الصباح. قد تبدو كلّ الكلمات تافهة إذا ما تجرَّأتْ على ترجمة المد العاطفيّ الذي شحنه عزفُه فينا.

في اليوم التالي زحفتْ كلّ كازا بلانكا إلى بيت بانشيتو.

عرّفتُ ماينسي ببانشيتو. وَجَدَها لطيفة و«ذات جسد مثير» بحسب عبارته. ثمَّ نسيَ أمرها.

حرصتْ ماينسي على التعبير له عن مدى تأثُّرها بموسيقاه، فاكتفى بهزّ رأسه، قبل أن يتصرَّف وكأنَّها غير موجودة.

لقد هبطَ الليل منذ هنيهة. خرجنا، ماينسي وأنا، نتمشّى قليلًا في الشارع. لم يحدُث لنا أن تمشّينا، جنبًا إلى جنب، حول المنزل.

سألتني ماينسي:

– هل هو صديقك حقًّا، الرجل الذي عزف أمس؟

– نحن صديقان منذ زمن بعيد.

– سأكون سعيدة جدًا بلقائه.

تبنّيتُ طلبها على الفور، تمامًا كما فعلت هي ليلة اقترحتُ عليها أن ترافقني إلى منزل شقيقتي.

أحزنني استقبال بانشيتو لنا. كنتُ أتمنّى لو أبدى الحدّ الأدنى من اللياقة تجاهها، لكنَّه كان من الفظاظة المقيتة، حتّى أنَّني كدتُ أكرهه.

لم نُطِلْ الزيارة عند عازف الترومبيت. كيف نبقى بعدُ ولو دقيقة واحدة، في هذا الجوّ المُقرف؟ لم يتوقَّف بانشيتو عن التجشّؤ، عامدًا متعمّدًا، فقط ليبدو بالمظهر القبيح أمامنا. أحسَّت ماينسي بالضيق والانزعاج، وتحوّل إعجابها بالفنّان إلى اشمئزاز ونفور. أرادتْ أن نغادر على عجل.

قلت لها ونحن نتمشّى على امتداد الضفّة، ألّا تمقته وألّا لكرهه. بانشيتو متوحِّش فظّ، لكنّه لا يعضّ ولا يؤذي. أجابتني بقرف:

– عرفتُ أسوأ منه.

– ثمّة ملهى على مقربة من هنا يقدّم حفلات موسيقية رائعة. ما رأيكِ بالذهاب؟ لعلَّ ذلك يُروِّح عَنّا. أؤكّد لكِ بأنَّهم موسيقيون بارعون. فإذا لم يُعجِبْكِ الجوّ، نغادر فورًا إلى المنزل.

أجابتني وهي تفرك يديها:

– أريد أن أعود إلى المنزل. لقد بدأ البرد ينال مني.

رافقتُها مُكرَهًا إلى منزل شقيقتي.

عادت الكآبة لتغزو ماينسي. لم تودّعني بـ«طاب مساؤك» وهي تجتاز باب المنزل. ندِمتُ ندمًا شديدًا لأنَّني عرّفتُها ببانشيتو. لقد أفسد علينا أمسيتنا، ذاك العجوز العنيد الذي لا يفارق بيته، ولا يتمتَّع بأدنى شروط اللياقة واللطف.

دفعتْني الحاجة إلى التخلُّص من التوكسينات التي بعثها بانشيتو في عروقي، نحو الملهى. لعلَّني أجد في الموسيقى ما يعوِّضني عن فظاظة وبشاعة البشر. في منتصف الطريق، غيّرتُ رأيي. لم أعد أرغب بالاحتفال. إنتقلتْ إليَّ عدوى كآبة ماينسي. قررتُ أن أعود إلى المنزل لمؤاساتها.

كانت العائلة كلّها في صالة الحمّام. ظننتُ لوهلة أنَّ مكروهًا أصاب خافيير، لكنَّني اكتشفتُ أنَّ ولدَه هو المُصاب بجرح بالغ في رأسه. كانت سيرينا تستكمل تضميده. لكنَّ نظرات الجميع القاسية صوّبتْ نحوي وكأنَّني المجرم. كانت آثار الدم تغطّي وجهَ غارسيا، وعينه متورِّمة وعلى خدّه خدوشٌ عميقة. سألتُ:

– هل دَهَسَته شاحنة أم ماذا؟

إلتفتت إليَّ سيرينا وهي تنتفض غضبًا:

– لستَ ظريفًا يا خوان. على الإطلاق!

– ماذا حدث لابن أختي؟

– أأنتَ واثق من أنَّ تلك المتسوِّلة الشحّاذة التي أتيتني بها ليست بمجنونة؟ أُنظر ماذا فعلَتْ بولدي. أهذا جزاء الإحسان؟ أهذا الامتنان؟ آويتُها، نظّفتُها وأطعمتُها، وهكذا تكافئني؟

خاطبتُ ابن أختي:

– لقد نبَّهْتُكَ يا غارسيا، الفتاة ما زالت تحت تأثير الصدمة جرّاء ما لاقتْه من ذاك المُعتدي الأثيم. فهل سَمِعتَني؟

مسح غارسيا شفته المشقوقة بطرف لسانه، ثمَّ تنهَّد وقال:

– بالكاد لمستها.

صرختْ سيرينا:

– كادت أن تقتلع عينيه.

– لقد حـذّرتُ أبناءكِ مـرارًا. نصحتُهم ألّا يلعبوا بالنار، وإلّا أحرقوا أصابعهم. هذه هي عاقبة من لا يسمع النصيحة.

في الرواق انتفضتْ بيلار استنكارًا:

– ومَن تَحسبُ نفسها؟ الشمس؟ لقد آويناها وعطفنا عليها. لم تكن سوى حطام وشتات، أُودّ أن أُذكّـرَكَ. عاهِرتكَ هـذه مجرّد حثالة جاحدة.

صدمتْني عبارات بيلار المُشينة. بقيتُ أحـدِّق فيها إلى أن خفضَتْ عينيها. قلتُ لها:

– ماينسي لا تحسَبُ نفسَها الشمس. إنَّها الشمس عينها. من يقترب منها يحترق حتّى قبل أن يصِل إليها.

ردّتْ سيرينا بغضب شديد:

– إذا كان الأمر على هذا النحْوِ، خُذها إلى مكان آخر، قبل أن تلتهم النار منزلي.

– هذا ما كنتُ عازمًا عليه منذ البداية. أين هي؟

– لا بدّ ذهبتْ تُشعِل المدينة بأسرها.

18

ركضتُ بسرعةٍ لا أذكر أنَّني ركضتُ بمثلها يومًا.

كان خيال كلّ شخص ألمحه يدعوني إلى الإسراع أكثر فأكثر.

بحثتُ عنها في كلّ الخليج، في كلّ ناحيةٍ وزاوية. بحثتُ في البراري وبين الأشجار وفي كلّ مكان يمكن أن يأويها. لا شيء.

عندما خارتْ قواي، عدتُ إلى الترام الأخضر، ودعوتُ ربّي أن يُعيدها. كانت أدنى حركةٍ تجعلني أقفز من مكاني، راجيًا أن تكون هي.

ماذا يحدُث لي؟ خَلْفَ من أسعى؟ صرخةٌ واحدة فقط كانت تدوّي في رأسي: جِدْها ولا تسَلْ عن شيء. لا تُحاول أن تفسّر الأمور بالمنطق. ليس ثمّة شيء قابل للفهم. عندما يُبدِع القلب حكايةً، يخرس العقل. أنا كالمجنون. كنتُ أخال حياتي ملكي؛ وها فتاة أكاد لا أعرف عنها شيئًا، تصادرها مني. كيف أمكنَ لمجهولة أن تسكنني، أن تحتلّ روحي؟ لقد بات غيابها أشبه بهاويةٍ أو بعدَمٍ يبتلعني. أحِسُّ بنفسي غريبًا عن أرضي ودخيلًا في ميداني. لم أُعُد أعرف نفسي. كالضفدع الأرعن أخوض في وحول شتاتي، في مسالكَ وعِرة بمحاذاة شخصي المجهول. أعزل، ضائع. هشٌّ وعارٍ كغصن تحت صقيع الشتاء، حزين كالمهرّج. لا أملك إلّا أن أصفق يديّ، علامة عجزي وانتحابي،

وأن أهذي عند منعطَفِ كلّ شارع، واهِمًا أنَّني رأيتُها. ضاعتْ منّي ماينسي، شفطت كلّ الهواء الذي أتنفسُّه، وتركتني في فراغٍ تامّ.

طلع عليَّ الفجر وأنا مُكوَّمٌ في وضعيّة الجنين على المقعد الخلفي في الترام. من الصباح الباكر حتّى هبوط الليل، أبحث عنها في أزقَّة كازا بلانكا وفي أنحائها المأهولة والمُقفرة، ولكن، عبثًا. حاولتُ مرارًا أن أعود إلى رشدي، أن أفهمَ لِمَ أبعثر نفسي على هذا النّحو. ما إن آخذ قسطًا من الراحة، حتّى أعود إلى البحث من جديد. لا أرغب في العودة إلى المنزل، خوفًا من أن أرتكب حماقةً لا تُحمَد عُقباها، لأنَّني ما عدتُ أُطيق الوقوف قبالة سيرينا، أو قبالة الأسوأ منها، كلّ تلك الوجوه الشاحبة بنظراتها الحاقدة، وتلك الأفواه التي تلفّظت بأقذع العبارات المُهينة بحقّ ماينسي.

قضيتُ ليلةً أخرى في الترام قبل أن أعي الواقع. لن تعود ماينسي. على أيّةِ حال، هي لن تعود في القريب العاجل. تكاد الرغبة بأن أكلِّم أحدًا تخنقني. ما عاد بوُسعي أن أسردَ لنفسي حكاية قلقي وحزني، ممدَّدًا على مقعد بارد قاسٍ كأنَّه بلاطة قبر، بانتظار اليوم الذي ينتهي به حظّي العاثر. لو أنَّني بقيتُ قرب محبوبتي، بدلًا من التوجُّه إلى ذلك الملهى، والذي لم أذهب إليه في نهاية الأمر، لما حصل ما حصل. لم أعُد أعرف إلى مَن ألجأ. ها أنا أعود إلى بانشيتو. هو لا يكذب ولا يُمالِق، ولا يلبس قفّازات مخمليّة. كلامه الصريح، حتّى عندما يجرحني، يلائم حالتي كشرٍّ لا بدَّ منه.

لم يتناول عازف الترومبيت لقمةً واحدةً من عشائه. كان قد غطّى الصندوق الذي يستخدمه كطاولة، بشرشفٍ مشمّعٍ، تحت ضوء المصباح، ووضع صحيفتين وكأسَيْن وملعقتَين وسكّينين من جهتَي

قِدْرٍ معدنية كبيرة مليئة بالفاصولياء السوداء. كان ينتظر وصولي. بادرني بالقول:

– كنتُ أعلَمُ أنَّك ستعود زحفًا.

بدا ودودًا، وكأنَّه يدعوني مُسبَقًا إلى الصفح عن سلوكه في ذلك المساء. كان ذلك دأبُه على الدوام. كلَّما أدرك أنَّه ارتكبَ خطًّا بحقّي، يعتذر على طريقته، فإمّا أن يقدِّم لي وجبةً، وإمّا أن يقدِّم لي سكرةً، لتفادي الاعتذار «الوضيع».

– هل يمكن ان أقضي الليلةَ عندك؟

– بإمكانك أن تنام في سريري، إن أردتَ.

قطَّبَ حاجبيه وأضاف:

– ما هذا الوجه المُتجهِّم؟ هل تخاصمتَ مع سيرينا؟

– بتُّ لا أُطيقُ رؤيتَها.

– هل الأمر خطير لهذا الحدّ؟

إستبدَّ بي إرهاق شديد أحنى ظهري. معدتي شبيهة بوِكرِ أفاعٍ في غليان. حتّى ذراعاي لم تعودا تعرفان ما تفعلان بهذا الفراغ الذي تحاولان معانقته. من بين كلّ المصائب التي عشتُها في حياتي، غياب ماينسي أشدُّها إيلامًا. تملَّكتني رغبة خانقة في الإشفاق على نفسي من هذا المصير العسير. أخيرًا، أجهشتُ بالبكاء.

– لقد رحَلَتْ.

رفع بانشيتو ذقني بطرف إصبعه، مُشفِقًا عليَّ ومُستمتعًا بانفعالي في آن.

– مَن؟

– الشابّة التي عرّفتُكَ بها.

بانتْ على وجهه الدهشة. تراجع قليلًا إلى الوراء وقال:

– لا؟ ألهذا تبكي؟ أكاد لا أُصدِّق. أَتُحِبُّ هذه الصغيرة؟ أهذا ما يجعلك حزينًا وفي هذه الحال؟

إستوى في مقعده. تكتَّف شابكًا ذراعيه عند صدره، وأخذ ينظر إليَّ شَزرًا، رافعًا حاجبًا وخافضًا الآخر، بإمارات تعبِّر عن الأسف وعدم الرضى.

– أرجوك، لا تنظر إليَّ هكذا.

– ولماذا؟ تجعل من نفسك موضع سخريّة، وتريدني أن أُغمِضَ عينيّ؟

– ليس لها من مكان تأوي إليه، وقد سبقَ أن تعرَّضتْ لاعتداء.

كانت نظرته مليئة بالاشمئزاز والازدراء.

– أنتَ تخيِّب أملي يا خوان. أقول لك بصراحة إنَّك تبالغ كثيرًا وكثيرًا جدًّا. إسمع جيّدًا، أنتَ في عمر جدِّها.

– أنا في عمري، وأفعل بسنوات عمري ما يحلو لي. أنا سليم الجسم والعقل.

– ربما كنتَ سليم الجسم، ولكنَّني أشكُّ في سلامة عقلك.

– من فضلك يا بانشيتو، لا تُعامِلني كما لو أنَّني متخلِّف عقليًّا.

– لن أذهب إلى هذا الحدّ. لكن، قد أقول إنَّ بعض عصبات دماغك انتهت صلاحيّاتها. إصحَ يا رجُل. عُدْ إلى الواقع. أنتَ تدفع ثمن نوبة التوق إلى فترة الصبا. أجِدُكَ، والحقّ يُقال، مثيرًا للشفقة.

إستنفرتُ فيليكس أسبوعًا بطوله. بحثنا على الشواطئ، في الضواحي، في جميع مرافئ الصيّادين، وسألْنا البحّارة والمارّة والفلّاحين والشبّان العاطلين عن العمل والرابضين عند الجدران... ولكن عبثًا، بلا جدوى.

كنت على شفير الانهيار العصبيّ.

تلميحًا إلى أنَّنا نهدر وقتنا في البحث، قال لي فيليكس:

– لعلَّها عادت إلى قريتها.

في الليلة السابعة، بينما استودعني فيليكس عند مدخل كازا بلانكا، أعلمني بأنَّه لن يتابع البحث معي، ونبَّهني ألّا أتَّصل به هاتفيًّا، لأنه لن يردَّ على مكالماتي:

– بصدقٍ أقولُها لك، آسفُ يا خوانيتو. لم أرفض لَك يومًا أيَّ طلَب، لكنَّ الأمر يتجاوزني. عليَّ أن أكسب قوتي اليومي. يجب أن أعيل زوجتي وأولادي.

أغلقَ باب السيّارة وأقلع، تاركًا إيّايَ وسط الطريق العامّ.

إستقبلني بانشيتو بكياسةٍ ممزوجةٍ بالإزدراء. هو لا يُحِبُّ أن آتي إليه كشريدٍ نسيَ روحه في أحد الخنادق.

قلتُ له بغصَّة:

– لم نَجِد لها أثرًا.

أطلقَ حازوقةً، وأطبَقَ قبّعتَه فغطَّت نصف وجهه.

– لئن كنتُ قد فشلتُ في حياتي، فلأنَّني لا أصلُح لشيء. لستُ سوى وهم تافه، كذبة جميلة، هذا أنا. أطارد ظلّي، ولا أقبض إلّا على الريح.

رفع بانشيتو قبّعته إلى قمّة رأسه وحدَجَني بنظرة ازدراء:

– إنك تجنِّنُني يا خوان، كما لم أجنّ من قبل على الإطلاق. لستُ طبيبًا نفسيًّا. أقدِّم لك ضيافتي، فلا تبالغ في استغلالها.

– أنتَ بلا قلب. لا شفقةَ لديك ولا رحمةَ.

– هيا أرجوك! أورفيو أبدى عزّةً وشجاعةً أمام الموت أكثر ممّا تُبدي أنتَ أمام حبٍّ عابر لا مستقبل له.

– لأنَّه لم يكن يعرف ما هو مُقدِم على خسارته. أمّا أنا، فأعلَم تمامًا مدى خسارتي. أرسلَ لي الله ملاكًا، ولم أستطِع حتّى أن أحافظ عليه.

– لم يُرسل لكَ الله إلّا العماء. لستَ نبيًّا ولا الحبر الأعظم. إلتقيتَ بفتاة في الطريق، وهي واصَلَتْ سيْرَها. هذا كلّ شيء. واصِلْ سيْرَكَ أنت ايضًا وكفَّ عن النحيب. كلامك هذا يجعلني أرغب بالتقيّؤ (جَثا بانشيتو على ركبتيه أمامي، وقبض على معصمَيَّ بشدّة، حتّى كاد يسحقهما. المفارقة، أنَّ صوته كان ودودًا وهادئًا). خوان ديل مونتي، يا صديقي العزيز، كآبتكَ تُقلقني. تمالَك نفسَكَ يا هذا. لقد رحلَت الفتاة. ليست نهاية العالَم. لربّما هذا أفضل. وإنَّما الأمور فهي ما هي عليه. لا تقدِّم أيَّ ضمانات. تأخذها كما هي، كما تأتيك، وتتكيَّف معها. وإلّا، فإنَّك تعقِّد حياتك بأمور تافهة.

– تقول ما تقوله لأنَّك استَقَلْتَ من كلّ شيء وتخلّيتَ عن كلّ شيء.

– أَبمفردكَ عثرْتَ على تملّصكَ هذا؟.. لقد لبستُ أرقى أنواع الفرو، حملتُ ساعات مرصَّعة بالماسّ، وخواتم من ذهب حُفِرت عليها أحرف اسمي ممّا قد يثير غيرة الملك سليمان. تبادلتُ الأنخاب مع الآلهة، وعاشرتُ فنّانات كالحوريّات. حتّى في أحلامك لن تتخيّل كم من مرّة أمسكتُ بالنجوم... لكن متى انتهى الأمر، فقد انتهى حقًّا. يجب ختمه بالشمع الأحمر. هذا أكثر عقلانية. ليست الحياة بريقًا ومجدًا وغنًى وحسب، وإنَّما هي أيضًا أن تتلقَّى اللكمة تلو الأخرى وأن تظلَّ باسمًا. إبتسم إذًا، ابتسم! لأنَّك على قيد الحياة.

بحركة عصبية انتصبتُ قائلًا:

– ما أصعب الحوار معك. تريد أن تكون لك الكلمة الأخيرة على الدوام. إذًا، أتركك بكلّ طيبة خاطر... أريد أن أنام.

– هذا أفضل ما يمكنك فعله.

إرتميتُ على ما يُشبه الفراش في زاويةٍ من الكوخ، وحدّقتُ إلى فوق حتّى كاد نظري يثقب السقف. إلى مَن أشكو همّي؟ إلى الأموات أو إلى الأحياء؟ الأمواتُ لا يسمعون، والأحياء لا يستمعون.

كان وقعُ أنفاسي يتردَّد ثقيلًا في أرجاء الغرفة. كنتُ أستشيط غضبًا. لا يحقُّ لبانشيتو أن يعاملني على هذا النحو. ربّما تنقَّل من قارةٍ إلى أخرى بمغامراته الكثيرة، لكن، ما زال أمامه الكثير للاكتشاف. عرف شيئًا وغابت عنه أشياء. لقد تصلَّب قلبه بسبب إخفاقاته المتتالية. لا يُخيفه شيء. لا يتأثَّر لشيء. لم يتأثّر حتّى لموت كلبه. تتكسَّر عليه الأحداث كما تتكسَّر الأغصان الهشَّة على الدروع. لا يُبالي سواء أتناول طعامًا أم صام، فالأمر سيّان عنده. هو صدى عصر مضى وانقضى، وكلّ ما لديه استسلام وتخلٍّ. نظرته هائمة إلى ما وراء البعيد كالأيّام الجميلة الخوالي. تُكلِّمه، يُزمجر؛ بالكاد ينتهي من تحريك شفتيه حتّى يعود ليهيم في عالم موازٍ، حيث ترك أفضل جزء منه، مع لائحة جوائز النوابغ والليالي البيضاء. كان بانشيتو، قبل خمسين عامًا، النجم الموسيقيّ الذى لا يُضاهيه أحد، المعبود المطلق للجماهير. مُلهب الهواة وربّات الأُسَر، وشَقيّ الحفلات والأمسيات المجنونة، وكانت ابتسامته المشرقة تُنيرها بأفضل ممّا تفعل الأضواء الكاشفة. كيف استطاع أن يستمرَّ في العيش بعد سقوطه المُريع؟ ببساطة: تجاهلَ الأمر أو تناساه. لا أريد أن أكون شبيهًا به، فأنا أُعطي قيمةً لأدنى الأمور، وأهتمُّ بدقائق التفاصيل، وأتشبَّث بكلّ لحظة لأنَّني – تحديدًا – حيّ. أمتنع عن إدارة الظهر لأيّام الغد. أريد أن أرتشف ندى كلِّ فجر، أن أنتظر كلَّ فصلٍ من الفصول كالمجيء الثاني. أريد أن أحبَّ وأعشق حتّى حدود العار، فليس من مأساة أسوأ من عدم وجود حبيب.

قضيتُ الليل أسائلُ السقف، أقتفي أثر ماينسي وأتعقبُّها بفكري، وأومِن بالمعجزات. فكّرتُ بأولئك المساكين أبناء الضواحي

الفقراء الذين شاهدتُهم على ضفاف النهر مُنهمكين بمسح أيديهم على العشب الطري، لإزالة آثار الدماء بعد ذبْحِهم طيور الأضحية. ماذا يرجون؟ ولِمَن يرفعون صلواتهم؟ أهو إيمانهم أو يأسهم ما يدفعهم إلى الجنون؟

ما مِن أحدٍ يبقى على مسافة كافية للتعقُّل والامتناع في حال الشكّ، وإنَّما كلٌّ منّا على مسافة كافية للانطلاق والقفز في الهاوية. المهمّ هنا ليس قفزة الملاك ولا صحوة الشيطان، وإنَّما أن نجرِّب كلَيْهما معًا. أرغب في القفز إلى الهاوية، فقد ينتشلني السقوط من أبخرة السُّكر. إن أظهرَ خطأي، فليس هذا بالأمر الخطِر. ليس من خطر إلّا في الخطأ الذي نرتكبه. الحبُّ هو الاختبار الوحيد الذي يستحقّ عناء المشقّات. نجاحه نصرٌ مطلق على مجموع الخيبات والإخفاقات؛ وفشله نعيشه كفرصةٍ لم تكتمل، فتظلُّ تدغدغ أرواحنا رغم أنف المصيبة. أحتاج إلى الحبّ، ولا تهمُّني أفخاخه.

عند بزوغ الفجر، أسرعتُ – أنا الذي ما آمنتُ لحظةً بقصص السحر والشعوذة – إلى خُمِّ الدجاج في بيت بانشيتو. أمسكتُ بدجاجة، وهرعتُ لأذبحها تحديدًا في المكان حيث سمعتُ ماينسي تغنّي وهي تغسل ثوبها في مياه الجون.

لم يسبق لي قطّ أن قتلتُ حيوانًا. خجلتُ من نفسي، لأنَّني آلمْتُ هذا الطائر المسكين، ولعنتُ السكّين الذي امتزج بقبضتي والدم الذي لطَّخني، والرعب الذي أمسك بعنقي؛ مع ذلك، وعلى الرغم من فظاعة الفعلة، فإنَّني إذا اقتضى الأمر، أعيد الكرّة مرارًا وتكرارًا، حتّى إبادة آخر طائر عن وجه الأرض.

فيما بدت الدجاجة تُصارع الألم إلى ما لا نهاية، ركعتُ ورفعتُ يديَّ إلى السماء. لا يهمُّني إلى أيٍّ من الآلهة، أو إلى أيٍّ من الأجداد أقدِّم أضحيتي. كلُّ ما أبتغيه هو أن تعود إليَّ ماينسي.

وعادتْ ماينسي حقًّا. عند هبوط الليل.

كانت هناك، جالسة عند عتبة الترام الأخضر، يُنيرها المصباح وكأنَّها علامةٌ من علامات السماء.

أقسمتْ سيرينا أنَّ هذه الشابّة ليست طبيعية. بالفعل، لم تبالغ في ما قالت. ماينسي ليست عادية، وإنَّما هي كاملة الأوصاف. لا تُشبه أيَّ امرأةٍ أخرى. هي فريدة. هي الحقيقة الساطعة بين كلِّ حقائق الوجود؛ لأنَّني أحبُّها.

ولئن كان بانشيتو، من جهته – وهو الذي لم يتألَّم لفقدان كلبه، والذى زَهد فى كلّ ملذّات الحياة ومسرّاتها – يؤكِّد أنَّنا لسنا ثنائيًّا مقبولًا، وأنَّ ماينسي لا تناسبني، وهي من جيل لا يعرف جيلي ولا يعترف به، ولئن كان الجيران يعتبرونني مُصابًا بعمى الألوان حتّى أنَّني لا أستطيع تمييز الخطّ الأحمر الذي لا يجوز تخطّيه، ولئن كانت ألسنة السوء والنميمة تزعم أنَّني أسير مغمض العينين إلى شرك شقائي، فليكن الشقاء إذًا، لأنَّ أيّة معاناة، أيّة مكابدة وأيّة شعوذة لن تستطيع إيلامي، الآن وقد عادت ماينسي إليّ.

لا آبه بالجمهرة التي لا تحتفل بعودتها، ولا بالنصر الذي لا يكرِّمها – فلتبصقني الدنيا إن شَخَصَ نظرُها إلى سِواي، ولأكُنْ ملعونًا إلى الأبد ما لم تكن هي بوّابتي إلى الجنّة.

19

لم أذكر أنَّني رأيتُ البحرَ أكثر بهاءً ممّا هو عليه اليوم. صفحة الماء الواسعة الملتمعة تحت الشمس الغاربة تتلألأ بملايين الشرارات المتراقصة، في حين تستعدُّ السماء فوق رؤوسنا لذرِّ غبار نجومها السحريّ. الأمواج تترقرق بهدوء عند الشاطئ وكأنَّها تسجد بخشوع مطلقةً تنهيداتها الناعمة. زورق صيد يدخل مرفأه، كما لو أنَّه سراب حلم، تحت انعكاسات الغسق الملوّنة. جلست ماينسي تحت شجرة جوز الهند، ذراعاها حول فخذيها، وركبتاها تستندان إلى صدرها، تصغي إلى فقش الموج، تائهةً في أفكارها. كانت تبدو كهديّة من السماء أرسلتْها العناية الإلهية، ووضعتها هنا أمامي، لأمتلىءَ بالنعمة العظيمة التي حُبيتُ بها. كنتُ أتأمّلها من خلال النافذة وكأنَّها نقطة استدلالي الوحيدة. ألونزو فوينتيس هو الذي نبش الملاذ الذي نأوي إليه، ماينسي وأنا، منذ ثلاثة أيام؛ فقد عرَضَ علينا شقّةً بغرفة واحدة رائعة في المدينة القديمة، على مقربة من الكابيتول، وشقة أخرى بغرفتين في محلّة فيـدادو حيث ضيق المساحة يقتضي التدافع بالأكواع والأكتاف للعيش معًا. لكنَّ ماينسي فضَّلَت ناحيةً هادئةً بعيدًا عن الجموع والصخب، وعلى مقربةٍ من البحر. لا يهمُّ إن كانت

فيللا جميلة أو كوخًا قذرًا، بل الأهمّ أن تستطيع النهوض صباحًا على زقزقة طيور النورس، وتغفو مساءً يُهدهدها هدير الموج.

أقلَّنا ألونزو بسيّارته إلى جانبٍ من الشاطئ تغطّيه الأعشاب البرّية، في الجهة الغربية من هافانا، بين مارينا همنغواي وسانتافي. يقع المسكن الصغير على رأس لسان صخريّ، وراء صفٍّ من الأجمات. وافقت ماينسي على الفور، فهذا بالضبط ما كانت تتمنّاه. لصحيحٌ أنَّ المسكن في حالة شبه مزرية، بجدرانه المتآكلة بملح البحر، ونوافذه ذات المصاريع الخشبيّة المتفسِّخة، لكنَّ ميزته هي أنَّه بمنأى عن الطريق، ويبقي الجيران على مسافة. البيت ملكُ أحد أبناء عمّ ألونزو، وكان قد سافر مع زوجته وأبنائه إلى فنزويلا ليمارس مهنته كطبيب، في إطار اتفاقية التعاون التي تربط بين البلدين. كان ألونزو يؤجِّر هذا المنزل لمدّةٍ لا تزيد عن الأسبوع، وللسوّاح حصرًا، ويتقاضى بدل الإيجار بالعُملة الكوبية القابلة للتحويل. لكنّه أجَّره لي استثناءً، شرط ألّا أتخلَّف ولو دقيقة واحدة عن الدفع، وأن أكون مستعدًّا لإخلاء المسكن على الفور، في حال أبلغَ أحد الجيران الشرطة بأنَّنا نقيم فيه على وجه غير مشروع.

يضمُّ المسكن غرفةً واسعة، وأخرى صغيرة يعترضها سريرا أطفال، وصالونًا مُجهَّزًا بأريكة بالية وطاولة خفيضة وكرسيّين. كما يشمل مساحةً ضيّقة تكاد تُشبه المطبخ مع برَّادٍ متقطِّع الأنفاس، ومراحيض مزوَّدة بمَنْفَذٍ للتهوئة، تُطيِّنه أوساخ الطيور. لكنَّ المسكن مُطِلٌّ على البحر، وفي هذا ما يكفي لإسعاد ماينسي.

في المساء الأول، تناولنا العشاء في المطبخ، على ضوء الشموع، بسبب انقطاع التيار الكهربائي. كنتُ أرتعد كالمصاب بالحمّى. إنَّها المرّة الأولى التي أجد نفسي لوحدي معها تحت سقفٍ واحد. مرارًا وتكرارًا تعثَّرتُ بالأشياء من حولي. عليَّ الاعتراف بأنَّ موقف ماينسي

يُربكني. كانت يقِظةً حريصةً على إبقاء مسافة بيننا، وكانت النظرات التي تُسدِّدها إليَّ كالسهام، آمرةً كالإنذار.

ما إن انصرفَ ألونزو عائدًا إلى بيته، حتّى ابتعدتْ ماينسي وتموضعت فوق صخرةٍ صغيرة، واضعةً قدميها في الماء، وسَرَحَ بصرُها في عرض البحر لساعات. رأيتُ من الحكمة ألّا أُزعجها. هي لم تعُد إليَّ إلّا البارحة ومنذ ذلك الحين لم تفلت من لسانها كلمة واحدة.

في ذاك المساء الأوّل إذًا، ونحن نتناول العشاء على ضوء الشموع، دفعتْ صحنها من أمامها، وأخذت تعقد أصابعها بتوتُّر. كان بَرَمُها أكثر إحراجًا لي من حذرها.

أخيرًا، قالت لي:

– أنا آسفة جدًّا لما تسبّبتُ به من مشاكل مع عائلتك.

– أوه! المشاكل هواية العائلات المفضَّلة. ما لم يكن هنالك من مشكلة، يخترعون واحدة.

– نبَّهتُه أن يكفَّ عن ملاحقتي ومضايقتي.

– تعنين غارسيا؟

– نعم. لم ينفكّ يزعجني كلّما خلَوْتُ بنفسي... (غاصت إلى عمق أعماقها تستمدُّ نفَسًا لتتابع:) لقد قبَّلني مرّتين في فمي، قبل أسبوع من وقوع الحادثة.

– كان عليكِ إخباري. لَكُنتُ اقتلعتُ أذنَيْه.

أغرقَتْ ملعقتها في كوبها وشرَعَتْ تُحرِّكها بلا هدف.

– لا أدري كيف استطعتُ تمالك نفسي. فكَّرتُ في سيرينا التي كانت بمنتهى اللطف والكرم معي، وفي خافيير الذي تبنّاني، وفي بيلار التي كانت تُحيطني باهتمامها اللطيف، وفيكَ... منذ أبصرتُ النور، لم أحظَ بحياة سعيدة. كنتُ أظنُّ أنَّ السعادة غير موجودة إلّا

في قصائد الحبّ. لكنَّني شعرت بالارتياح في كنف عائلتك. أحسستْ بأنَّني بدأت أخرج من النفق المظلم. هل فهمتَ؟

– طبعًا.

– لم تكن لديَّ النيّة في أن أؤذي غارسيا. عندما قبَّلني على الرغم منّي، بكيتُ. طوال الليل. في المرّة الثانية عاد يُزعجني، وأدخل لسانه في فمي. ذلك المساء، تقيَّأْتُ كما لو أنَّني ابتلعتُ فاكهةً ينخرها الدود. في الصباح، رجَوْتُه وتوسَّلته ألّا يقترب منّي ثانيةً.

– إنّه عنيد كالتيس.

فجأةً احمرّ وجهها، توتَّر خدّاها وضاقت شفتاها. تملَّكها غضبٌ شديد. راحت تحرِّك الملعقة بسرعةٍ متزايدة.

– عندما رافقْتني تلك الليلة التي زرنا فيها صديقك الموسيقي الفظّ، لحق بي غارسيا وأنا في المراحيض. كان يرى بوضوح أنَّني مكتئبة، لكنَّه لم يُبالِ. أسندني إلى الجدار، فدفعته متوسّلةً إليه بصوتٍ خافت. لم أشأ أن يسمعنا أحد، وإلّا لاستاءت سيرينا من سلوك ابنها. كنتُ أريد أن أتجنَّب المتاعب. فهمتَ قصدي؟ لكنّ غارسيا أبى الانضباط. مدَّ يده إلى ما تحت ثوبي، فلم أستطِع تحمُّل ذلك. لم أعُد أذكر ما حصل بعد ذلك.

– وبَّختِه بكرم ووفرة.

– لم أكن أرغب في أن تصل الأمور إلى هذا الحدّ. كان ذلك أقوى مني.

– لا تلومي نفسَكِ. كان ردُّ فعلك سليمًا، وكما يجب.

فجأةً، لم تعد ترتجف على الإطلاق.

كنت أقدِّر حقًّا مبلغَ ألمِها، ومدى الصدمة التي أصابتها.

صرختْ وهي تدعك فوطةً بيدها:

– لا أريد أن يمسَّ جسدي أحد. جسدي لي أنا. ليس غرضًا أو مكسبًا يُقتنى ليُرمى به بعد إفساده، في سلّة المهمَلات. يحقُّ لي ألّا أكون مُلكًا إلّا لنفسي. أليس كذلك؟

– حتمًا.

– لا يفكِّر الرجال إلّا في ذلك. يثيرون قرفي. لا يحترمون شيئًا. يخالون أنَّ بؤسعهم فعل كلّ ما يحلو لهم بلا حسيب أو رقيب.

– ليس جميعهم يا ماينسي. ليسوا جميعًا كذلك...

توقَّفتْ عن تحريك الملعقة. من جديد عادت تلك النظرة الحزينة.

– لستُ عاهرة.

دوَّى صوتها كالرعد، فهزَّني من رأسي إلى أخمص قدميّ.

– لم يخطر ببال أحدٍ أن يعاملك على هذا الأساس. أيُّ رجلٍ مهما كان فحلًا، قد يخرُّ عند قدمَيْكِ ليقبّلهما.

– لا أريد أن يقبِّلوا قدميّ. أريد أن أسير في طريقي من دون أن يضطهدني أحد، أو أختلي بنفسي من دون أن يزعجني أحد، وعندما لا أكون راغبةً في أمر ما، لا أريد أن يضايقني أو يشتمني أو يضربني أحد.

– هذا حقُّكِ.

– هذا الحقّ لا يمنعهم شيء من أن يدوسوه. الرجال متوحشون، مهووسون، حيوانات ضارية.

– غير صحيح.

– بلى، صحيح. الرجل، حينما يقارِبُ امرأة، لا يُبالي إذا ما تخطّى الحدود.

– أنتِ تبالغين يا ماينسي. أنتِ فقط امرأة جميلة. لا بل جميلة للغاية. من الطبيعي أن ينجذب إليكِ بعض الشبّان. لا أوافق على ما يفعلونه، بل أدين جرأتهم المفرِطة، ولكن...

– ولكن ماذا؟ انتفضتْ مستنكرة.

فطِنتُ إلى أنّني أغامر في أرضٍ محفوفةٍ بالمخاطر.

– ليس هذا ما أردتُ أن أقوله.

– إذًا، لا تقُلْ شيئًا.

بعد فترة صمتٍ مخدِّر، غيَّرتْ لهجتها على نحو مفاجئ زعزع كياني:

– أنتَ مختلف عن الآخرين. هي المرّة الأولى التي أكون فيها لوحدي مع رجل، ولا أحاول الهروب إلى الطرف الآخر من العالم.

– ...

– أحتاج أن أصدِّق أنَّ العالم لا يخلو من الرجال الطيّبين. هل فهمتَ؟ هذا مهمٌّ جدًّا بالنسبة إليّ.

– ليس لديكِ أيّ سبب للخوف منّي يا ماينسي. هذا وعد وعهد أقطعه لك.

– ما يشفع بالوعود أنَّها مطمئنة، لكنَّها تبقى مجرَّد وعود. ليس هناك ما يُرغِم على الالتزام بها... يجب أن نتفاهم مرّة واحدة ونهائيًّا. إن أردتَ أن أبقى هنا، عليكَ ألّا تُرغمني على شيء، ألّا تفرض شيئًا، وألّا تَلحَّ على شيء. بخاصّة، وبالتحديد، لا تُحاول أن تعانقني، ولا حتّى أن تريحني. لا أريد أن أُلحِقَ بك أيَّ أذى.

كيما أُثبِت لها أنَّ نواياي خالية من أيِّ لبسٍ، عرضتُ عليها أن تشغلَ الغرفة، وتُغلِقها من الداخل. لكنَّها آثَرَتْ أن تنام على الأريكة.

كنتُ أراقبها من النافذة وإنّما بشيءٍ من الكآبة. إنَّها رقيقة، شديدة الحساسية، سريعة العطب. إمرأة من خزفٍ هشّ. أتخيَّل المعتدي الذي شوَّه طبيعتها الصافية، وأتصوَّر نفسي، أنا الذي لم أتَّسم بالعنف

يومًا، ولطالما كنتُ دَمِثًا، بشوشًا وأنيسًا، أُلقِّن هذا الخسيس السافل درسًا لن ينساه ويُلحِق به أضعاف ما ألحَقَه بها من ألمٍ وأذى.

إلتفتَتْ تلقائيًا وفاجأتْني متلبِّسًا بمراقبتها. أرسلتُ لها إشارةً من يدي، والتحقتُ بها حاملًا سندويشًا كنتُ قد أعدَدْتُه لها.

– ألا ترغبين في السباحة اليوم؟

– ليس الماء باردًا بما فيه الكفاية.

– هل يُعجِبكِ المكان؟

– نعم.

وانتهى الكلام.

بتنا نقضي معظم الوقت صامتين، بدلًا من تبادل الأحاديث التافهة.

ماينسي فتاة صموتة. تكون بغاية الجذل والارتياح حينما تنفرد بنفسها قبالة البحر. أحيانًا أشعر وكأنَّني أزعجها. لكن، كيف لي أن أتركها ولو لثانية واحدة؟ وهي العالم الذي يناسبني ويُلهِمُني.

– ستُمطِر.

– السماء صافية.

– المظاهر خدّاعة. ستهبُّ الريح. قبل هبوط الليل، ستصطفّ أرتال الغيوم مثقَلَةً بالأعاصير.

أجابتني، مرخِيَةً شعرها الناريّ على ظهرها:

– أعشق المطر. عندما كنتُ طفلةً، كنتُ أخرج إلى فِناء الدار، ولا أعود إلى المنزل إلّا مبلّلةً حتّى العظم. كان ذلك يريحني.

– أنا أكره المطر. لطالما أفسدَ حفلاتي الغنائية في الهواء الطلق.

أمسكتْ حصاة، وزَنَتها في راحة يدها، ثمَّ ألْقَتْ بها في الماء.

– بالمناسبة، يوم الثلاثاء، سأغنّي في حفل زفاف. أكون سعيدًا إذا رافقتني.

– لستُ على استعداد لذلك.

– أرجوكِ.

– سيضايقني الناس.

– سأكون إلى جانبك.

إنهمكت بتجريد الصخر من طحالبه. كانت حركاتها مشوبة بالعصبية.

– أرجوكِ تعالَي معي، سوف أُلهِب الصالة.

فجأةً وافقت:

– حسنًا. أحتاج إلى شعر أسود مستعار ونظّارتين.

– وما الغاية منها؟

– لا أريد أن يتعرَّف عليَّ أحد.

– إنَّه حفل زفاف. سيكون مكتظًّا بالناس. لن يأتي أيُّ شرطيّ ليسألك إن كنتِ تحملين ترخيصًا بالدخول أم لا.

عادت إلى تأمّل عرض البحر.

إتّصلتُ بألونزو لأطلب منه أن يزوِّدني بشعر مستعار ونظّارتين شمسيتين.

أحبَّتْ ماينسي الحفل كثيرًا. وجدتْني «رائـعًـا». طبعًا لم ترقص. إكتفت بالجلوس مكانها والنظر إلى المحتفين يلهون ويتسامرون. أفرحها ذلك للغاية. عُدنا مع طلوع الفجر، ورأسُنا يعجُّ بالنغمات الصاخبة. نمْنا على الأريكة جنبًا إلى جنب، تقريبًا، حتّى ساعات ما بعد الظهر.

دعوتُها في المساء إلى مطعمٍ عائليٍّ هو كناية عن حانة ومطعم في آن، وقد راج كثيرًا هذا النوع من المطاعم في هافانا منذ أن سمحت الدولة لبعض المُستأجرين أن يحوِّلوا مكان سكنهم إلى

مطعم. وضعت ماينسي شعرها المستعار الأسود – الذي أضفى عليها جمالًا فاتنًا، مع أنَّني أفضِّلها صهباء مشرقة كلهيب النار – ونظّاراتها الشمسية التي غطَّت نصف وجهها، وارتدَتْ ثوبًا من عند ألونزو صقلَ جسدها الخلّاب، فجذبت انتباه الرجال الذين صادفناهم في الطريق.

كانت لا تزال تمتنع عن الإمساك بيدي، لكنَّني كنتُ فخورًا بالسير إلى جانبها.

ذات مساء، لدى عودتنا من حفلة موسيقيّة، أفضيتُ لها بمكنون قلبي.

كانت تستعدُّ لدخول غرفتها عندما أمسكتُها من معصمها، بكلِّ الحذر الذي يتوخّاه خبير تعطيل الألغام.

سَرَتْ فيها ارتعاشة خفيفة فقط، لكنَّها لم تسحب يدها.

– هل لي أن أكلِّمك ولو لثانيتين؟

– عمَّ؟

رجوتُها أن تجلس.

– ماينسي، لقد بدَّلتِ حياتي.

كدتُ لا أتعرَّف على صوتي، وهو يرتجف شجنًا.

– كنتُ أظنُّ أنَّ الموسيقى هي الحياة. وهبتُها جسدي وروحي. أهملتُ أصدقائي، لم أهتمّ بزوجتي، ولم ألحظ نموَّ ولدَيّ. كنتُ أقول في نفسي إنَّهما سيسامحانني يومًا ما، فأنا أكافح من أجل أسمى قضية: الغناء.

جثوْتُ على ركبتَيّ أمامها، وأمسكت بيدها الأخرى، قائلًا:

– لستُ صفقة مربحة، ومع ذلك، فأنا استثمار ناجح. صحيح، هناك فارق العمر الذي يعرقل العلاقة بيننا. لكنَّ العمر ليس بالمعيار القاطع. الشباب لا يضمنُ شيئًا. كم من أزواجٍ شباب رأووا عشقَهم يُدمَّر أمام أعينهم إمّا بمرضٍ، أو بحادث سَير، أو بسوء تفاهم. لا يعلَمُ

أحدٌ كم بقي له من أيّام للعيش. المهمّ هو الوقت الحاضر، واللحظة التي نحياها.

– إنَّك تؤلِمني.

تخدَّرتْ يدُها في يدي.

– إعذريني.

– ما زلتَ تؤلمني، وأكثر من ذي قبل.

أرخيتُ قبضتي حول معصمها لكنَّني لم أتركه. جُنَّ قلبي، وبات دمي يقرع في صدغَيَّ كالمطارق. تردَّدتُ مرّات عدّة قبل أن أُبوح:

– منذ أن التقيتكِ، اكتشفتُ أنَّ لديَّ عضوٌ أكثر أهميةً من صوتي وأثمن منه، وأنَّني أكثر سعادةً حين أكون معكِ ممّا أكون عليه وسْطَ حشودٍ من المُعجَبين... ماينسي...، لقد أيقظتِني من جديد على أجمل إيقاع: نبضات قلبي. أنا مستعدٌّ لنكران الموسيقى إذا طلبتِ منّي ذلك.

– لن أفعل ذلك.

– من أجْلِك، أفعل أيَّ شيء.

– إنَّ أحدًا لا يستحقّ أن نفعل أيَّ شيء من أجله.

شيئًا فشيئًا سحبت يديها منّي، وإنَّما عيناها لم تتركاني. إنتظرتُ ردَّها برهبةِ المتَّهَم الذي ينتظر حُكمَ القاضي.

بعد صمتٍ كاد يقضي عليّ، قالت:

– لا أستحقُّ أيَّة تضحية.

– ليس في الأمر تضحية... أنا أحبُّكِ. أودُّ أن أعيش معكِ، بقربك، من أجْلِكِ.

لم تنبس ببنت شفة. كانت تتوقَّع ذلك تقريبًا. فقط ارتعاشةٌ صغيرة حرّكَت وجنتيها.

– دعنا لا نستعجِل الأمور.

– عمري لا يسمح لي باتِّخاذ وقتي يا ماينسي.

– لكنَّني بحاجة إلى وقت.

ماينسي هي نوري.

لستُ بحاجة لأن أُضيء منزلي، فهي تُنير كلَّ زواياه.

لا أتعب من السُّكْرِ برائحتها، ومن الالتحاف بظلّها، ومن ملاحقة جسدها.

عندما تركض لترتمي في البحر يكون ذلك بمثابة دعوة إلى كلّ ملذّات هذا العالم. إرتماء خصرها، هِبَةُ نهدَيْها، تموُّج ردفَيْها، كمالُ استدارة فخذَيْها، كلّ ذلك يجعلها كأرض موعودة أودُّ أن أشتعل فيها بآلاف ألْسِنَة اللهب، ثمَّ أنطفئ إلى الأبد.

أحبُّ حتّى العشق أن أقتعِدَ الرمال وأتأمَّل ماينسي تعرض جسدها للشمس فتستحيل بشرتها كالذهب الخالص. كم من مرّة تخيّلتُ نفسي أمدُّ يدي نحوها لأتأكَّد أنّها من لحمٍ ودم. لا تنفكُّ الشهوة تنبع من داخلي كشلّالٍ لا ينضب. في الليل، حينما ترقد بجوار أحلامي ونزواتي، أجد نفسي متلبّسًا بحركات سرّية لم أمارسها حتّى عندما كنتُ مراهقًا يعشق معلِّمته.

حدث لي أنَّني تماديت في عدم اللباقة إلى حدّ التلصُّص عليها من ثقب الباب، وهي تغتسل في الحمّام، أو في الغرفة وهي تبدِّل

ثيابها. سألتُها مرّة لماذا قبّلتني في عنقي ذات مساءٍ عند سيرينا. أجابتْني: «لا أذكر أنَّني فعلتُ ذلك». تُرى، هل كنتُ أحلم؟ لا أظنّ. ما زالت نار قبلتها تكويني حتّى الآن.

مضى أسبوعان على إقامتنا معًا في منزل الشاطئ الموحش. في ساعة متأخِّرة من الليل، حينما يختلط البحر بالظلام، أجلس عامدًا متعمّدًا عند عتبة المنزل، منتظرًا أن تعود ماينسي لتلتفّ من خلف ظهري، وتطبع بشفتَيْها قبلةً على عنقي...

لكنّ ماينسي تفضِّل الانفراد في الغرفة مع كِتاب. تُمضي أمسياتها في قراءة كتبٍ تجدُها منسية هنا أو هناك، في هذا الدُّرج أو على ذاك الرفّ. أمّا أنا فأقضي الوقت بطوله مسمَّرًا عند العتبة أُصغي إلى الأمواج المتهلِّلة وهي تتلاطم مع صخور الشاطئ.

ذات يوم إثنين، تلقّيتُ اتّصالًا من أوريمي أنشيا:

– ميغيل سوناتا سيكون سعيدًا جدًّا إن وافقتَ على افتتاح الأمسية التي يُحْييها يوم الأحد المُقبل في فندق ناسيونال.

لبسْتُ ثيابي بأسرع ممّا يفعل البحّار ساعةَ يدق نفير الخطر. إرتدتْ ماينسي فستانًا عاديًّا أبيض اللون، كنتُ قد اشتريته لها من حانوت عامّ، ثمّ وضعتْ شعرها المستعار ونظارّاتها الشمسية واستقلّينا على الفور سيّارة أجرة للوصول بسرعة إلى الفندق.

كان البهو يعجُّ بالناس. صفٌّ طويل يقف أمام مكتب الاستقبال، في حين انهمك الحمّالون بنقل الحقائب، والمصاعد بنقل الأمتعة. لحسن حظّي، عرفني بعض السوّاح، فتسابقوا لالتقاط الصوَر معي. وضعتُ نفسي في خدمة حماستهم، عين على آلة التصوير، والأخرى على ماينسي لأتبيَّن إن كانت فخورة بي.

قلتُ لها:

– إنتظريني عند بار المشروبات. سأصعد للتحدُّث مع المدير بشأن برنامج الأمسية وأعود على الفور.

لم يَطُلْ حديثي في مكتب المدير لأكثر من عشر دقائق. عند عودتي، كاد قلبي يتوقف عن النبض. لم أجد ماينسي عند البار ولا على الشرفة. إجتاحني الخَوف، ورُحْتُ أبحث عنها في البهو والردهات والممرّات والسطيحات، وأسأل عنها الموظَّفين والنزلاء. مع كلّ جواب سلبيّ، كانت أعصابي تزداد توتّرًا. لم أكنْ أتنبَّه للناس الذين أدفعهم من حولي، ولا لصرخات الاحتجاج التي تُلاحقني وأنا أشقُّ طريقي بين الجموع. ثمَّ لمحتُها واقفةً خلْفَ مجموعة صغيرة في صالة ضيافة، حيث جلس على كرسيّ عالٍ، رجلٌ في السبعين من العمر، يفتن مستمعيه، وهم عبارة عن عشرين طالبًا تقريبًا، يحيط بهم أستاذان أو ثلاثة. إنَّه مانويل ب. هارفاس؛ شاعر على طراز بابلو نيرودا، ثائر على الدوام، نصف نبيّ ونصف زعيم روحيّ، تحبُّه وتُجِلُّه شرائح الكوبيين من الفقراء والمناطق المحرومة. مدافعٌ عظيم عن الحريات، شاعر القضايا المحقّة، نزيل السجون والإقامات الجبرية، وجالب المتاعب للغوغائيين الديماغوجيين.

تَجْمعُ ندواته ما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف شخص، سواء داخل الجزيرة أم خارجها في جزر الكاريبي. يُحكى أنَّ مناصريه يحفظون تواقيعه وأقواله في لوحات زجاجيّة بأُطُرٍ مُذهَّبة قبل عرضها في صالوناتهم، بين شمعدانين وكأنَّها ذخائر مقدَّسة. كانت ماينسي مسحورة بشخصه. لقد نزعت النظّارات، وتلك كانت المرّة الأولى التي تجرؤ فيها على الظهور علانيّةً بين الناس. وقفتْ على رؤوس أصابعها، مترنِّحةً خلف الجمع، حتّى لا تفوتها كلمة واحدة ممّا يقوله الشاعر. كانت مأخوذةً بكلامه حتّى أنَّها لم تسمعني أناديها.

قد أدفع حياتي ثمنًا لترمقني بذات النظرة التي وهبَتْها مجّانًا لهذا العجوز الذي أمطره الطلّاب بالأسئلة وفلاشات الكاميرات.

– ... حينما أرفع عينيَّ إلى السماء وأتأمّل نجومها، أقول في سرّي إنَّ مهندس الكون الأعظم يقف حتمًا وراء هذا كلّه. لكنَّني لا أراه في أيِّ مكان. أمر مؤسف للغاية. لذا، أعلنت نفسي بنفسي الإله المطلق. جعلتُ من النجوم أنـواري، ومن الرياح ألحاني، ومن البحار منابع وحيي وإلهامي. هكذا، أصبحتُ شاعرًا. قلبي عاشقٌ لكلّ النساء، وفكري يحرص على تلمُّس الجمال في كلّ شيء. تتفتَّح الزهور من أجلي، وتذوي ما إن أنظر إلى سواها.

بنزقٍ، أبعدتْ ماينسي يدي عن كتفها وكأنَّها شعرت بالإهانة إذ أتيتُ أعكِّر صفو تساميها.

طرحَتْ إحدى المعلّمات السؤال التالي:

– هل سامحتَ روبرتا ماي، وهي التي كانت تزعم أنَّها صديقتك الأكثر إخلاصًا ووفاء؟

لبِثَ الشاعر بضعة ثـوان، مُطرِقًا يفكِّر، وكأنَّما السؤال قذفه بعيدًا عن موضوعه. ملَّسَ شعرَه الطويل الشبيه المُسرَّح على طريقة الشامان والحكماء، يفرقه إلى قسمين متساويين خطٌّ مستقيم. ثمّ نظر إلى المعلّمة، بينما كان جمهور المستمعين يحبس أنفاسه متسائلًا إن كان الشاعر قد شعر بالمهانة، ويعتزم إفساد بهجة اللقاء برحيله. لم يكن حضور مانويل ب. هارفاس في الفندق إلّا عابرًا، وهو لم يوافق على مقابلة الطلّاب إلّا من باب اللياقة واللطف.

بدا الارتياح على وجه ماينسي حين ارتسمت على وجه الشاعر ابتسامة رقيقة، وأجاب:

– زمن الأصدقاء الأوفياء وغير الانتهازيين قد ولّى. من قبل، كان وجودهم مفيدًا، أمّا اليوم فهم لا ينفعون إلّا أنفسهم، ولا يتركون كسرة للغائبين. تلك هي الحال، ولا يمكننا فعل أيّ شيء بهذا الشأن.

فكّر وقد عضّ بعض الشيء على إصبعه، ثمّ عاد إلى المعلّمة:

– التسامحُ هو أن نُعيد إلى أعدائنا الشرّ الذي ألحقوه بنا، ولا نبالي كيف سيتصرّفون به.

ترطيبًا للأجواء، صاح أحدُ المؤيِّدين، ملوِّحًا بدفتر وقلم:

– لماذا لا يتبنّى الموسيقيون قصائدَك ويلحِّنونها، أيها المعلّم؟

– أنا شاعر ولستُ مؤلِّف كلمات تُغنّى. الموسيقى تستدعي الجسد، أمّا الشعر فيحاكي الروح.

– مع أنَّ بعض القصائد لُحِّنَت واكتسبت شهرة واسعة.

– قد يحدث ذلك، لكنَّه لا يعنيني. لستُ من هذا النوع من الشعراء.

أجبتُه بالكثير من الجرأة والعدوانية والغيرة، حينما رأيتُه يستأثر باهتمام ماينسي:

– هل الموسيقى تقلِّص أو تدنّي من مستوى القصيدة؟

– أبدًا، أبدًا، هما الدواء نفسه. غير أنَّ المنهجيّة التي يقترحها الشعر تختلف عن منهجيّة الموسيقى. الشاعر يُلهِمنا، والمغنّي يتنفَّسنا. الشاعر يُنير عقولنا، والموسيقيّ يلهِبُ مشاعرنا. في هذا التفصيل الدقيق تكمن فرادة مَن يقول، ومَن يغنّي. تلك مسألة سمَع، أو بالأحرى، مسألة تعديل السمع، ضبط وتيرة التركيز. لا نُصغي بالانتباه نفسه إلى من يُلقي قصيدة وإلى من يعزف لحنًا. لا نعمد إلى الاستماع لكليهما بالحافز نفسه، وللسبب نفسه، حتّى ولو كانت الغاية نفسها في كلتَيْ الحالتين: البحث عن ملاذ بعيد عن الهمّ والغمّ. العلاقة بالشعر أكثر حميمية، فهي السعي الهادئ إلى الذات.

مع الموسيقى، ننضَمُّ إلى الآخرين، فنحن في الزخم، لا في التحفُّظ، وفي عطاء الـذات لا في البحث عنها. لا يذهب الناس إلى حفلة موسيقيّة بحثًا عن الحقائق، بل هربًا منها. ينشُدون كلامًا يحثّهم على الرمي بالتعقّل جانبًا، والانتشاء بالسُكْر حتّى يخالوا البعوضة الكريهة بجعةً جميلة، ويتعرّون بالكامل وهم يصرخون عاليًا: فلتذهب الثورات والمسيرات المهنيّة إلى الجحيم. مع الشعر، يعود المرء إلى طبيعته وسجيّته، يتساءل حول معنى الحياة، يعود إلى حقيقة العالم، ويحاول أن يَستجلي أسرار تلك الحقيقة، وأن يُدرِك تعقيدات الكائنات والأشياء، البشر والحجر...

فجأةً، توقَّف الشاعر عن الكلام. إستقرَّ نظره على ماينسي فارتعشت حرَجًا. بدا الشاعر للحظات في عالَمٍ آخر وعيناه ثابتتان على رفيقتي، ثمَّ عاد إلى أرض الواقع.

– ما اسمُكِ أيتها الفاتنة؟

سبقتُها وأجبتُه على الفور، كي يعرف أنَّ الجميلة محجوزة:

– ماينسى.

لم يُعِرْني الشاعر أدنى اهتمام. شقَّ له طريقًا وسطَ مُعجبيه، واتّجه مباشرةً نحو رفيقتي. بعدما نظر إليها نظرة تودُّد، أمسك يدها وطبَع قبلةً على جبينها. توقَّعتُ أن تدفعه ماينسي، أو أن تتراجع، أو تجفل... لكنَّ شيئًا من ذلك لم يحصل. لقد استسلمتْ بكلّ ثقة، وبرضى لم أستطِع أن أُصدّقه. إستسلمت كليّةً للشاعر، فأسبَلت جفنَيْها كما لو أنَّ القبلة على جبينها امتصَّت مجموع الصدمات والجراحات الملتصقة بلاوعيِها.

قال لها الشاعر:

– لا أستطيع مقاومة الجمال الطبيعي والنادر جدًّا في أيّامنا هذه. إعتبري قبلتي هذه بمثابة بركة من عجوز لا يستسلم لخيانة العمر. أنتِ جميلةٌ إلى حدٍّ أنَّني أشتهي أن أعود شابًّا على الفور.

عبَّت ماينسي كلامه كما يرتوي العطشان وسط شظف الصحراء من نبع ماء أرسلته العناية الإلهية.

تابع الشاعر الشيخ كلامه، من دون أن يحوِّل نظره عنها:

– أرى حزنًا في عينيكِ. لا يحقُّ لكِ أن تكوني حزينةً. أنتِ في هذه الحياة لكي تُسعِدي أتعسَ رجلٍ على وجه الأرض.

من شدّة التأثُّر، تدحرجت دمعةٌ على وجنتها، ولم تستطِع النطق بكلمة واحدة.

إلتفتَ الشاعر إلى جمهوره:

– فليبارككم الله جميعًا. عليَّ أن أعود الآن لآخذ قسطًا من الراحة. لكن، فلتعلَموا فقط ما يلي: يأتي البؤس والتعس من الخطأ الجسيم إذ نرى العالَم كما نتمنّى أن يكون، لا كما هو في الواقع. خُذوا الأمور كما هي، وحاولوا أن تُروِّضوها، لأنَّ الحقيقة الوحيدة المهمّة هي أنتم. لا نصادف السعادة هكذا، بالضرورة، على دربنا، وإنَّما نصنعها أيضًا صُنعًا بأيدينا. (إلتفتَ مجدَّدًا إلى ماينسي:) هناك دومًا وفي مكان ما، مَنْ يُحِبُّكِ. لئن كنتِ لا ترَيْنَه، فهو يراكِ. لا تبحثي بعيدًا عمّا هو في متناول يدكِ.

بناءً عليه، ألقى التحيّة على الجميع وترك مستمِعيه، يرافقه رجلان بزيٍّ أنيق سارا خلفه.

كانت ماينسي آخر من أدركَ أنَّ الشاعر عاد إلى مقرّه، وأنّنا، هي وأنا، الوحيدان الباقيان في الصالة المهجورة.

عندما ترجَّلنا من التاكسي عند الدرب المفضي إلى المنزل، قلتُ لها:

– تركتِ لديه انطباعًا شديدًا.

– يصيبني الدوار جرّاء ذلك.

– هل تعرفينه؟

أجابتني وقد التمعت عيناها بومضة بلّورية:

– حفظتُ شعرَه عن ظهر قلب.

– كنت أجهل أنَّك تحبّين الشعر.

– أُحبُّ شِعرَه. أحبُّ شعر مانويل ب. هارفاس. أخبِّىء قصائده تحت وسادتي، بجوار أحلامي.

إعترفتُ لها:

– لم أعتَد القراءة، ولكنَّني سأعتادها بالتأكيد.

ما كان عليَّ أن أقول ذلك، فقد حدجتني بنظرة سحقتني وحوَّلتني هباءً منثورًا.

– أعرف عن ظهر قلب أغنيات مجموعة...

قاطعتني:

– هذا مختلف. مانويل ب. هارفاس أسطورة. كنتُ أظنُّ أنَّه ليس موجودًا إلّا في مخيّلتي. أمّا الآن وقد لمسَ وجهي بيديه، فأُحِسُّ بأنَّني وُلِدتُ من جديد.

توقَّفَتْ ونظرَتْ إليّ وجهًا لوجه. أشرق محيَّاها امتنانًا:

– لا تستطيع أن تتصوَّر أهمية الهديّة التي قدّمتَها لي اليوم. ألفُ شكرٍ لا تكفي لأُثبِتَ لك كم أسعَدْتَني.

– إن كنتِ سعيدةً، فأنا سعيدٌ أضعافًا مضاعفة.

وقفت على رؤوس أصابعها وقبَّلتني على خدّي.

قضَتْ بقيّة النهار في السباحة، وكأنَّها حورية مظفَّرة يهتف لها الموج ابتهاجًا. ثمَّ انسحبت إلى فيء شجرة جوز الهند، حتّى غروب الشمس.

بين الفَيْنَة والفينة، كانت تلتفتُ وتنظر إليَّ بحدَّة. قلِقتُ من صمتها وإصرارها على البقاء بعيدة عنّي، فوجَّهتُ إليها إشارةً من يدي، لأتأكَّد من أنَّها يقظة. لم تلحظ إشارتي لشدّة انشغالها بالتحديق

فيَّ باستمرار وعلى نحوٍ مزعِج. حاولتُ أن أحزر ما يدور في رأسها، لكنَّني لم أُفلِح. أعرف أنَّ أسئلةً كثيرةً كانت تجول في ذهنها، وأنَّ بعضها متّصل بي – تبيَّن لي ذلك من نظراتها – إلّا أنَّني كنتُ أفتقر إلى الشجاعة الكافية لأنضمَّ إليها.

في المساء، بعد العشاء، إقتربتْ منّي وهي ترتجف من رأسها إلى قدميها. كانت نظرتها واضحة لا لُبس فيها. لقد تعلّمتُ أن أفكَّ أسرار تلك النظرة المتظاهرة بالغنج والتراخي، والمتوثِّبة الحادّة في آن، كمُنحنى زلازل يكشف النبضات العميقة، بشائر الطوفان العاطفي، والنداء المهول للجسد الذي ينشد النشوة، ضاربًا عرض الحائط بالمخاطر التي تحفُّ بها.

منذ أسابيع وأنا في انتظار هذه اللحظة. أمّا وقد آن أوانها، فقد تملَّكتني الرهبة. لم أعْتَدْ رؤية ماينسي في مثل هذه الحال. عادةً ما تحرص على حفظ مسافة من الحذر، عنيدة، خائفة، منيعة في قوقعتها الحصينة.

زعزعتني جرأتها. خِفْتُ أن أعجز عن مجاراتها، وأن تذهب إلى أبعد ممّا أستطيع، فتدمغني بعدم الكفاءة إلى الأبد.

قلتُ لها بصوتٍ متهدِّج:

– إن كنتِ غير مستعدّة، فلستِ مضطرّة.

ليست مستعدّة. يبدو ذلك بوضوح. والدليل؟ ثوبُها الذي لا ينفكُّ ينتفض على كتفيها، وإمارات وجهها المشدودة كوتر القوس. لكنَّها قرَّرت المجازفة بالكامل، فقد أنهكها أن تنتظر ما يجدر بها هي اقتناصه. أحسستُها تجالد بلا هوادة شكوكَها ومخاوفها المعنوية وهواجس خَفَرِها وحيائها. كانت تُريد أن تتأكَّد من سلامة ما تفعله. لم يعد باستطاعتها أن تتلطّى خلف مخاوفها. لقد منحتْها بركَة الشاعر جسارةً لم تعهدْها في نفسها من قَبل. كانت تريد أن تولَدَ حقًّا

من جديد. أمسكتْ يدي وجعلتْها خلْفَ ظهري، تنفّستْ عميقًا وكأنَّها تستعدّ للغطس في عمق أعماق صدماتها وعقدها النفسية لكي تنزع فتيلها. أغمضتْ عينيها ووضعت بحذر شفتيها على شفتيّ. كان فمها باقة من الاختلاجات وكانت تتنفَّس وكأنَّها تلفظ أنفاسها الأخيرة. ثمّة شيء يموت فيها، ليتحرَّر ما كانت تحبسه داخلها. لم أشعر بجسدها بقدر ما شعرتُ بالفظائع التي تسكنه والتي لا تريد سوى تصريفها. بذراعي الأخرى طوّقتُ خصرَها. تراجعتْ كي تتفلّت من قبضتي، مغمضةَ العينين، فاغرة الفم:

– أرجوكَ. أتركني أصل بمفردي إلى ما أريد.

صار فمانا فمًا واحدًا، وجسدانا التحما ليكوِّنا جبهةً واحدة أمام كلّ ما ظلَّ يقرِّبنا الواحد من الآخر، وإنَّما يُبقينا رغم ذلك، على نقيض رغائبنا.

أطَعْتُ واستسلمتُ. كانت ماينسي تدير وتقود أدنى حركةٍ ورعشة. تُحكِم السيطرة على كلّ شيء وتتولّى كلّ شيء. فهي التي جرَّتني إلى الغرفة. هي التي نزعت ملابسي وكأنَّني طفل بين أحضانها، عيناها مغمضتان بإصرار وفتحتا أنفها ترتعشان ونفَسُها متسارع في لهاث مجنون. كانت تتقدَّم على مساحة جسدي كما يتقدَّم الجيش في أرضٍ محتلّة. إستسلمتُ لها مُنهزمًا بكلّ رضى وطيب خاطر، مستعدًّا لتوقيع الهدنة بكلتي يديّ، حتّى ولو أنَّني تخلَّيت مسبقًا منذ تلك الليلة على الضفّة، عن مآثري القتاليّة وهالتي الكاريسميّة، لأتحوَّل إلى أحد رعاياها الأكثر طاعة.

كلَّما حاولتُ أن أُجازيها بما تُجازيني هي من متَعٍ، كانت ترفض بحركة من رأسها.

– أرجوك، يهمُّني جدًّا أن أبلغَ أقصى مبتَغاي، من دون مساعدة.

21

كانت ليلة رائعة.

أمّا الليالي التي تلتها فأشدُّ روعةً، كما لو أنَّ ماينسي تسعى إلى تطهير نفسها من كامل السموم التي تُفسِد روحها، لتتعلَّم من جديد أن تؤمن بنفسها، وتضحك بملء جوارحها، كما كانت تفعل عند سماع طرائف ونكات أبناء أختي والتي تفوق فنون الهزل براعةً.

مرّةً واحدةً فحسب حدث ما عكَّر صَفْوَ حبِّنا: كانت ماينسي تغادر موج البحر إلى رمال الشاطئ، كزمرّدةٍ معروضةٍ تحت نور الشمس، فالتقطتُ لها صورةً. لم يَرُق لها ذلك على الإطلاق، بل غضبت إلى حدٍّ لم يعد بإمكاني تهدئتها وكادت أن تُلقي بهاتفي الخلوي في الماء. لم تهدأ إلّا بعدما تظاهرتُ بمحو الصورة من ذاكرة جهازي. قالت وهي تهدِّدني بإصبعها المصوَّب نحوي: «لا تفعل ذلك ثانيةً. أكره أن يصوِّرني أحد».

بعد ساعة، عاد إلينا الصفوُ فتعانقنا من جديد ومارسنا الحبَّ حتّى الإنهاك.

ماينسي لي أنا.

أنا سعيد إلى حدٍّ أنَّ أيّ شيء في العالم لا يبدو لي مزعجًا.

ولئن كان فرحي يتجاوز كلّ الحدود، فإنّي أرى أنَّه ما زال غير كافٍ، لأنّني أجرؤ على الاعتقاد بأنَّ الأيّام الآتية تخبّئ لنا، لماينسي ولي، مباهج وأفراحًا جديدة، وتَعِدنا بآفاق يزهر فيها الغناء والصمت كلاهما مباركَيْن بالمقدار نفسه، ولا يحدث لنا من مكروه.

مساء حفلة فندق ناسيونال، اصطحبتها معي إلى المدينة، إلى متجَر ألونزو. إبتعتُ لها حذاء جديدًا وفستانًا رفيع النوعية ودفعتُ ثمنهما بالعملة الكوبية القابلة للتحويل، ومن دون مساومة. إتّصلتُ بابن عمي فيليكس كي يجلب لي أزيائي المسرحيّة والتي كنت قد تركتها عند سيرينا. ضربتُ له موعِدًا في الـ«تروبيكانا» لأنَّني لم أشأ أن يعرف أين أُقيم، ولا مع مَن أُقيم. بينما كنتُ أنتظره، قدَّمتُ لماينسي وجبة شهيّة في أحد مطاعم الساحة. تناولنا الكركند المزيَّن بمقبِّلات لذيذة تـذوب حـلاوةً في الفم، ثـمَّ حلوى بالكريما أمتعَ أريجها ونكهتها حليمات مذاقنا. هناك أيضًا دفعتُ بالعملة القابلة للتحويل.

إستغرق فيليكس ساعتين لكي يصل. رَكَنَ سيارته عند زاوية الشارع، وتـرك أضـواء التحذير كما لو أنَّ السيّارة تشكو من عطْل. رجَوتُ ماينسي أن تنتظرني في المطعم لئلّا يراها ابن عمّي.

صرخ ابن عمي عندما شاهدني:

– أين كنتَ يا رجل؟ بحثنا عنكَ في كلّ مكان.

– ولِمَ لا تربطونني أيضًا بسلسلةٍ وطوقٍ كالكلاب؟

– سيرينا قلقة عليك كثيرًا. لقد انفجرت بالبكاء عندما أخبرتها أنَّك أرسلتَني لأجلب لك أغراضك.

– ستعتاد الأمر.

– إنّها أختك الكبرى. أُودُّ أن أذكّرك.

– عليها بالأحرى أن تهتمَّ بأبنائها.

ترجَّلَ فيليكس من السيّارة وفتح صندوقها. كدتُ أقعُ أرضًا حين شاهدتُ ملابسي مرميَّةً بين قطع الغيار القديمة وصفائح الوقود وأدوات أخرى، في صندوق السيّارة.

– كان بإمكانك أن تضعها على المقعد الخلفي.

– كان لديَّ رُكّاب.

– هذه ملابس ثمينة جدًّا.

– أؤكِّد لك أنَّني اعتنيتُ بها جيّدًا. بوُسعِكَ أن تتأكَّد بنفسِك. ليس عليها أيّ بقعة زيت أو شحم سيارات. أنظر. غطّيتها بشادر مشمَّع لحمايتها.

طويْتُ ستراتي وسراويلي وقمصاني الحريرية بعناية، ووضعتُها في كيس بلاستيك.

– متى تعود؟

– ليس هذا المساء بالتأكيد.

– وماذا أقول لسيرينا؟

– قُل لها إنَّني سعيد.

إنتظرتُ حتّى ركِب فيليكس سيّارته وغاب عن نظري، قبل أن أعود إلى المطعم. يا إلهي! كاد الدم يجفُّ في عروقي: ماينسي تتحدَّث إلى شاب جدّ وسيم. سرعان ما استأذنَ حين رأى وجهي المتجهِّم ونظرتي الحانقة.

عندما وصلنا إلى الشارع، سألتُ ماينسي:

– من هو؟

– لا أعرفه.

– بدا منسجِمًا في الحديث معك.

– وما المشكلة؟

– هو المشكلة. يجب أن تأخذي كلّ الحيطة والحذر من هؤلاء الشباب الذين يلتفّون حولك كالأفاعي الساحرة. لا يهمُّهم سوى نصب الأفخاخ لضحاياهم من أجل الإيقاع بهم.

إرتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وقالت:

– لعلَّك تغار؟

– أسهر عليكِ.

قالت لي مداعبةً:

– وجهُكَ أحمر كعرف الديك.

– ذلك لأنَّ الخوف من أن أفقدَكِ يكاد يقتلني.

أحاطت وجهي بيديها الرقيقتين الساحرتين، ونظرتْ في عينيّ، تتتبّع نظراتي وتمنعها من الإفلات. إختفت ابتسامتُها، وحلَّتْ مكانها تكشيرة مُحزِنة، وهمست في أذني:

– أحتاج التأكّد من أنَّ الناس لن يُلحقوا بي الأذى بعد الآن.

– ليس هذا سببًا لكي تثقي بأوّل عابر سبيل.

– لن أتقدَّم إن لم أُجازف. أنتَ الذي علَّمتني ذلك.

– التقدُّم لا يعني التهوُّر.

قبّلتني في فمي على مرأى من المارّة، وهي الخجولة والخائفة باستمرار. جسارتُها المتمادية أربكتني.

بدأتُ أتساءل إن كان عليَّ أن أدَعَها تعبِّر عن نفسها كما يحلو لها، أم أُعيدُها إلى شيءٍ من الرصانة والاتِّزان، من دون أن أضغط عليها.

همستْ في أذني:

– أأكون مخطئة إن عوّضتُ عن الزمن الضائع؟

– ليست المسألة على هذا النحو.

– وما هي المسألة إذًا؟

تنحنحتُ في كفّي، قبل أن أعترفَ لها:

– عندما أرى هؤلاء الشباب الذئاب يحومون حولك، يعتريني الخوف الشديد من أن تلتفتي مجدَّدًا إلى خطوط التجاعيد في وجهي، وخيوط الشيب في شَعري.

– لا أنظر هذه الجهة.

– وأنا لا أنظر سواكِ، ماينسي.

زمّتْ شفتَيْها، هزّت رأسها وقالت:

– لا يمكن إعادة جمع شتاتنا بطرفة عين. أحتاجُ أن أثقَ في الناس. ليس لديَّ خيارٌ آخر.

– خيارُكِ أمامكِ. وهو الخيار الصحيح.

أسكَتتْني وهي تُطبِق بشفتيها على شفتيّ:

– صه! فلنعُد إلى المنزل. لم يعد لدينا الكثير من الوقت لنبدِّل ملابسنا من أجل السهرة.

ويا للسهرة!

رقصتُ كشاب عشرينيّ، وغنّيتُ حتّى اهتزّت الجدران. هتف لي الجمهور بحناجرَ صدّاحة. عَلَتْ أصواتُهم تنادي باسمي وهُم يضربون الأرض بأقدامهم ويصفِّقون بأيديهم لكي أعود وأُغنّي لهم ثانيةً وثالثة. كانت عينا ماينسي تُشعّان بنور أقوى من فلاشات الكاميرات التي أمطرتني من كلّ حدبٍ وصَوْب.

عُدنا إلى المنزل حوالى الثانية فجرًا، ومارسنا الحبَّ على الرغم من الإنهاك الشديد.

في اليوم التالي، شمسٌ لاهبةٌ أخرجتْنا عنوةً من السرير. كان البحر هادئًا على نحوٍ مثير. سبحنا طوال ساعات وتراشقنا بالماء كالأولاد. كنّا وحيدَيْن على الشاطئ المهجور، حتّى أنَّ أصداء قهقهاتنا تردَّدت في عرض البحر.

في لحظةٍ معيَّنةٍ غافلتْني ماينسي وراحت تسبح بعيدًا حتّى غابت عن بصري. سألتُها عندما عادت لماذا جازفَتْ في التوغُّل في البحر حيث أيُّ تشنُّجٍ عضليٍّ قد يكون مميتًا. فأجابتني بأنَّها فعلت ذلك لتلاقي شخصًا عزيزًا.

– حكاية حبّ في سنّ المراهقة؟

– ربّما.

– وهل سافر إلى فلوريدا؟

رحَلَ. هذا كلُّ ما في الأمر.

عادَتْ إلى المنزل، ولم تَفُه بكلمة بعد ذلك.

أيقظتْني ضوضاء في البيت. أحدُهم أضاء غرفة الاستقبال. ماينسي ليست بجانبي. ساعتي تُشير إلى الثالثة والخمس والأربعين دقيقة. دفعتُ عنّي الغطاء وقفزتُ من السرير. كانت ماينسي تبحث عن شيء. لقد فتحَتْ الخزانة، لكنَّ الأدراج كانت مقلوبةً رأسًا على عقب. قالت بعصبية:

– أريد قلمًا.

وجدتُ جزءًا من قلم تلوين في غرفة الأولاد. إنتزعتْه ماينسي من يدي، مزَّقت صفحاتٍ بيضاء من أحد الكتب، وأسرعتْ للجلوس إلى طاولة المطبخ. تململها الزائد أثار قلقي.

– عُدْ إلى النوم.

– هل أنتِ واثقة من أنَّ كلّ شيء على ما يُرام؟

– أرجوك. لا تبقَ هنا. وجودُكَ هنا يمنعني من التركيز.

– ولكن، ما بالُكِ؟ إنّكِ متوتِّرة تمامًا.

– أرجوكَ، عُدْ إلى سريرك.

عُدْتُ إلى الغرفة وقد اجتاحني الاضطراب.

بقيَتْ ماينسي في المطبخ فترةً طويلة. سمعتُها تغمغم متذمّرةً وهي تُجعِّد أوراقًا وتمزِّق أُخرى، وتذرع أرض الغرفة ذهابًا وإيابًا. أتُراها تكتب لي رسالة وداعٍ سأجدها عند الصباح معلَّقة في مكانٍ ما؟ هل كانت حشرية سؤالي عند شاطئ البحر، القشّة التي قصمتْ ظهرَ البعير؟ هل جرحتُ مشاعرَها من دونَ قصد؟ ضجَّ رأسي بالأسئلة المقلقة. كنتُ أصغي بدقّة لالتقاط أدنى صوتٍ وأدنى حركة، مُستعدًّا للقفز من السرير في أيِّ لحظة. كنتُ أترصَّد الباب الخارجي وقلبي في تيهان.

تنفَّستُ الصعَداء حين أطفأت ماينسي نور الغرفة وعادت إلى السرير واندسَّت بجانبي. إلتصقت بي، قبَّلتني في عنقي، وخَلَدَتْ إلى النوم.

عند الصباح، نهضتْ من النوم قبلي. أنهَتْ تحضير الفطور باسمةً ولكن مع بعض الاضطراب.

– إنَّك مشرقة، متألِّقة الوجه.

أشارت إلى كرسيّ ودعتني للجلوس.

– إشرب قهوتك.

لم تستطِع كَتْمَ حماستها. كانت عيناها تشعّان بفرح كبير وقد احمرَّت يداها لشدّة فركهما الواحدة بالأخرى. خُيِّلَ إليَّ أنَّها ستزفُّ لي بشرى سارّة. تُرى، هل قرَّرتْ، أخيرًا، أن تتزوَّج بي؟ إرتشفتُ قهوتي دفعةً واحدة. أخذتْ ماينسي الفنجان ووضعته في حوض الأطباق. ثمّ استدارت نحوي، وهي ترتجف من رأسها حتّى قدميها. بإشارةٍ من ذقنها لفتتني إلى كتابٍ قديمٍ موضوعٍ على الطاولة، وقالتْ:

– إفتحه.

تحت غلاف الكتاب صفحةٌ مُزِّقت بدقة. عليها نصٌّ مكتوبٌ باللون الأخضر، لم أستطِع أن أقرأه جيدًا لمعاناتي من طول النظر الشيخوخيّ.

– ما هذا؟

– إقرأ.

– أحتاج إلى نظّارتي.

جلستْ بقربي، أخذت الورقة وقالت:

– لا تهزأ منّي. انا أكتب كما أشعر.

تشوّقتُ لمعرفة ما تخبئه لي، لكنَّني لم أقل شيئًا.

تنفَّستْ ماينسي عميقًا. تـردَّد رنين صوتها في كلّ أحشائي بركةً ونعمة:

حين يغنّي دون فويغو
تطمئنُّ الآلهةُ وتخلد إلى السكون
ينسدلُ السحر على العيون
ولا يبقى إلّا صوتُه والجنون

حين يغنّي دون فويغو
ما حوله رائعًا يغدو
والنساء المفتونات
يصبحنَ مُلكَه وحدَه

يستجيبُ الليل للأحلام
ويسودُ الجميع الهُيام
فلا تتوقّف أصداء العيد
حين يغنّي من جديد

يجب أن يغنّي ويغنّي
ليتَّحدَ الليل والنهار

في صرخةِ جبّار
يهتفُ لسيّدِ النار

تحوّلتُ إلى أبكم، مقطوع الأوصال، فاغر الفم. تأثرتُ حتّى الدمع.

إنتظرَتْ ردّي. كنتُ عاجزًا عن تحريك حتّى إصبعي، وتيّبَستْ شفتاي.

قالت:

– أعرف. ليس متقنًا بالكامل. لكنَّني أنوي العمل على تحسينه.

أجبتُها وأنا أرتعش:

– إيـاكِ أن تفعلي. نَصُّك ممتاز. قصيدة رائـعـة. هـذا أجمل وأسمى ما كرَّمني به أحدهم، منذ ولادتي.

غمرتُها بذراعيّ واحتضنتُها بشدّة، حتّى كدتُ أخنقها.

22

يُقال إنَّ الحلم يدوم جزءًا من الثانية.

أمّا حلمي فيدوم حتّى الآن منذ شهرين وسبعة أيّام. كلّما استيقظتُ من نومي أراه إلى جانب السرير، مشعًّا بأنواره، أكثر عزمًا ممّا كان عليه البارحة أو في الأسابيع السابقة. أحوالي ممتازة والأيام تبتسم لي، وحفلات الغناء والموسيقى متواصلة. بطبيعة الحال، يقتصر دوري على افتتاح الحفل، لكنَّني واثق من أنَّ المسرح يعِدُني بغدٍ أكثر جودًا وكرَمًا. بفضل أدائي في الحفل الأخير، كُتِبَ اسمي بالخطّ العريض على المُلصق الإعلاني. لا شكَّ في أنَّ صورتي سوف تقترن باسمي في المرّات اللاحقة. البذار الذي زرعته مع ماينسي يعِدُني بمواسم جنى لا تنضب. أنا سعيد إلى حدٍّ بتُّ معه لا أعرف في أيِّ إهراءٍ أخزنُ فائض سعادتي. ثمّة لحظات يتمنّى فيها المرء أن يتوقّف الزمن، ويقتصر فقط على لحظة السعادة التي يعيشها، حيث كلّ شيء يبتسم له. أمّا هذه اللحظة فقد حانت، وهي قائمةٌ ماثِلة. لقد بات المسكن الصغير على شاطئ البحر حُصني المنيع. أسواره شاهقة حتّى أنَّ وشاح السُّحُبِ يتنسَّل إذا ما مرّ فوقها. كلُّ الفرص الضائعة التي لم أعرف كيف أستغلُّها، كلّ الوعود بمستقبلٍ فنّيٍ

استثنائي، وغير ذلك ممّا كان يحطِّم قلبي، لن يقوى بعد اليوم على إفساد نعيمي. ماينسي هنا، تُبَلْسِم جراحي وتمسح أحزاني وتمنحني شبابًا متجددًا. لقد زالت تجاعيد وجهي. أو لعلَّني لم أعُد ألمحُها. فأنا أستيقظ كلّ يوم بجسدٍ مفعمٍ بالحيوية والطاقة.

لئن كنتُ أصلّي ليمضي الزمن في طريقه ويتجاهلنا حلوتي وأنا، فلأنَّ الزمن لا يستطيع إلّا أن يحسد الذين يؤمنون بلا هوادة ولا تراجع، بأنَّ مصائب الدهر لن تلحق بهم ولن تصل إليهم. لقد باتت خلفهم بأشواط، وإلى الأبد.

بمناسبة الاحتفال الوطني، أدرج أوريمي أنشيا اسمي على قائمة المدعوّين. في البداية، لم تعجبني المبادرة. الفنّان الحقيقي لا يحتمل الجلوس إلى المائدة، في حين تتوالى فرق الفنون الاستعراضية قبالته تحت الأضـواء. لكنَّ أوريمي ألـحَّ، وأكَّـد لي عبر الهاتف أنَّ كبار الشخصيات والطبقة المخمليّة الراقية سيحضرون الحفلة، وأنَّه سيعرِّفني بوزير الثقافة. من يعلم؟ مكالمة واحـدة قد تكفي لإعادة إحياء شهرتي.

أمضيْتُ ساعاتٍ طوالًا في كيّ أجمل أزيائي، وتلميع حذائي، وتنظيف جسمي بالماء والصابون. بعدما حلقتُ ذقني وتعطَّرتُ، جلستُ أنتظر المساء كما ينتظر راهبٌ بوذي لحظة التقمُّص.

بعد الظهر، تبقَّعت السماء بغيوم سوداء. من النافذة، راحت ماينسي تراقب الموج الهائج وشكوك سوداوية تعتم ناظرَيْها. بذلتُ جهدًا كبيرًا في إقناعها بمرافقتي إلى الـ«إسميرالدا».

– لا يقتات المرء من الحبِّ والمشاعر وحسب. إنَّها فرصة لا يمكن تفويتها. أحتاج إلى عملٍ لتأمين كلّ حاجاتنا. تعرفين كيف تسير الأمور في بلدِنا. قليلٌ من التوصية أو الرعاية، وتنطلق العجلة إلى الأمام.

بدّلت ثيابها وهي صامتة، من دون أيِّ حماس، حتّى أنَّني أُرغمت على ترتيب هندامها بنفسي.

على الطريق، صادفْنا سيارة أجرة مجهولة، فلم تكلِّفنا الرحلة سوى بضعة بيزوسات. عندما وصلت بنا السيارة إلى المكان المقصود، ندم السائق على البدِل الزهيد وتمنّى لو أنَّه طلب أضعافًا. كان الـ«إسميرالدا» يشعُّ بآلاف الأضواء، تزيِّنه المصابيح المتوهِّجة والشرائط المزخرفة الفضّية، مع عقود اللمبات الصغيرة الملتفَّة حول أشجار جوز الهند. موقف السيارات يغصُّ بالسيارات الرسمية، وعند مدخل الفندق فرقٌ أمنية مكثَّفة تفتِّش المدعوّين بدقّة. كاد أن يُغمى على ماينسي عندما طلب منها أحدُ رجال الأمن أن تنتظر جانبًا. سارعتُ إلى طمأنتها بقولي:

– فعَل ذلك فقط بهدف تنظيم صفوف المدعوّين.

كانت باحة الفندق تكتظُّ بحشودٍ متشابكة. جميع مشاهير هافانا من الأثرياء وحيتان المال قد لبّوا الدعوة؛ بعضهم يتباهى ببزّته العسكرية الرسمية، وبعضهم الآخر يتأنَّق بملابسَ لا تشوبها ثنية. معظم النساء من المسِنّات، يُظهِرنَ عمدًا كلّ بهارج مكانتهنَّ الاجتماعية. بعضهنَّ يفاخِر بانتمائه إلى الطبقة الحاكمة، والآخر إلى النجاح والرُّقيّ الاجتماعي. بطبيعة الحال، زوجات وبنات أصحاب القرار هُنَّ الأكثر تشاوفًا.

غطرستهنَّ تذكِّر «حديثي النعمة» الذين يستغلّون ثرواتهم المشبوهة كمنصّة للتقدّم، بأنَّه عاجلًا أم آجلًا، ستتمُّ محاسبتهم. في كوبا لا يزال الفقراء كما الأغنياء، يرون في «التبرجز» هرطقة إيديولوجية تعبق برائحة نتنة تمامًا كعفونة الإمبريالية.

إستطاع أوريمي أن يعثر عليَّ في فوضى هذه الحشود. بإشارةٍ منه، طلب إليَّ أن أنتظر قليلًا، وألّا أبارح مكاني، ريثما ينتهي من

الاهتمام بالشخصيات النافذة. أخيرًا، عندما استقرّ أبناء الطبقة المخمليّة في مقاعدهم حول الموائد الكثيرة المفروشة بشراشفَ بيضاء ناصعة تُزيِّنها باقات من الورود، والمنتشرة في قاعة الاستقبال الفسيحة، جاءنا مضيف وطلب إلينا، ماينسي وأنا، أن نتبعه ليُرشدَنا إلى المقعدين المخصَّصين لنا، على إحدى موائد الصفّ الخامس، مباشرةً قبالة المسرح المجلَّل بالمخمل الأحمر القاني. إلى المائدة المجاورة، جلست سيّدتان بدينتان «ملطّختان» بماكياج صارخ، مع زوجيهما – رجلان عجوزان ما إن استقرّا في مقعديهما حتّى غلبهما النعاس، تافهين في بزّيتهما اللامعتين –، إلى جانب عسكريّ مجلل بالأوسمة والنياشين، وفتى خجول تائه وسْطَ حلقة أصحاب الشأن والامتيازات. أمّا العسكريُّ فكجبل جليديّ نُحتت قسمات وجهه القاسية بإزميل دقيق، تعلوها ابتسامة شرّيرة وعينان زرقاوان باردتان كالصقيع. لم يدعني ألتقط أنفاسي قبل أن يعاجلني بالسؤال:

– هل لي أن أتشرَّف بالتعرُّف إليك؟

– أنا خوان ديل مونتي خونافا، سيّدي الكولونيل.

– وما موقعك في الحزب؟

– أنا موسيقيّ.

– وهل سنستمع إلى أدائك هذا المساء؟

– كلّا للأسف.

همهم الكولونيل قبل أن يلتفت إلى ماينسي. من تحت الطاولة، شدّت ماينسي على يدي، وقد أرعبها اللباس العسكريّ.

– وأنتِ...؟

نظرت ماينسي إليَّ وقد بدا الذعر في عينيها.

– إنّها ابنة شقيقتي حضرة الكولونيل. هي المرّة الأولى التي تُدعى فيها إلى مناسبة وطنية. إنَّها مرتبكة بعض الشيء.

سألها:

– لماذا تضعين نظّارات شمسية؟

أجبتُه:

– تشكو من حساسية في النظر، منذ أن أُصيبَت بمرض في طفولتها.

– وهل هي بكماء أيضًا؟

– كلّا سيّدي الكولونيل.

– لماذا لا تدعها تُجيب إذًا؟ هل تكون مقماقة تتكلَّم من بطنها وأنتَ الدمية المتحرِّكة التي تنطق بالنيابة عنها؟

إشتـدَّت نوبة الـذعـر تحت الطاولة. هرست ماينسي يدي بقبضتها حتّى كادت تلوي أصابعي.

قال الكولونيل وهو يوجّه إليها نظرةً حادّة:

– تبدين شاحبة الوجه.

أجابته ماينسي:

– أنا مريضة.

– آمل ألّا يكونْ مرضًا مُعْدِيًا.

– كلّا، غير مُعْدٍ.

– أطالبةٌ أنتِ؟

– نعم.

– في العلوم؟

– في الأدب.

إلتفَتَ الكولونيل إلى إحدى السيدتين البدينتين، وقال وهو يمسح زاويتَيْ فمه:

– يبدو أنَّ لديكِ إحدى المعجَبات هنا يا عزيزتي كاريداد.

قهقهتْ السيدة غير مباليةٍ بنا؛ كانت منهمكة بترصُّد الضيوف والمدعوّين الذين يتبادلون التهاني من هنا وهناك.

سأل الكولونيل ماينسي:

– هل تعرفين من هي السيدة الشهيرة الجالسة إلى جانبي؟

– إنّها كاريداد ساكرامنتو.

– أحسنتِ. لديَّ جميع دواوينها الشعرية في المنزل... هل تحبّين الشعر؟

– نعم.

– من هو شاعرُكِ المفضَل؟

– مانويل ب. هارفاس.

صرخت كاريداد ساكرامنتو وقد قلبت شفتيها بقرف:

– هذا السافل. الأبيات الوحيدة التي يستطيع نظمَها هي الآفات التي تلتهم دماغه المتعفّن.

ألقى الكولونيل المنديل الذي مسح به فمه في طبقه، وقال كمَن أُصيبَ بخيبة:

– أُرثي لذوقِكِ الشعريّ السيء، يا صغيرتي. هذا الرجل الذي ينتحل صفة الشاعر، مجرَّد مشاغبٍ مخرِّبٍ كالسموم التي تنفُثها الرأسماليّة.

قالت السيّدة الأخرى:

– ما أغربَ أن تُدرَّس في جامعاتنا حثالات يلفظها هذا النوع من المشعوذين.

أجابت السيّدة الشاعرة:

– كلّا. ليس مُدرَجًا في برامج التدريس. لا في الجامعات ولا في الثانويات. نحن واعون لمثل هذه الأمور. إنَّما ما يصدمني ويؤلمني أنَّه كلّما ازداد الأديب أو الكاتب سوءًا، ازداد شبابنا إعجابًا وتعلُّقًا به.

كانت ماينسي تتأهَّب للهروب. هذه المرّة أنا الذي قبضتُ على يدها من تحت الطاولة.

إنقطع الجدال فجأةً بحركة هرجٍ ومرج برزت عند مدخل القاعة. تململ رجال الأمن، وأخذ الضباط يسوّون من لباسهم العسكري. خرج أوريمي أنشيا ولجنة الاستقبال إلى باحة الفندق، وسرعان ما عادوا وقد أفسحوا في المجال أمام وفد رفيع المستوى. أخذ الضجيج يختفي تدريجًا ليحلّ مكانه صمتٌ مُطبق. إنتصب الصفّ الأوّل وقوفًا، تلته الصفوف الأخرى وسط ضجيج قرقعة الكراسي. مددتُ عنقي لأرى ما يجري هناك، فلم ألمح سوى قبعة كاسكيت خضراء ما فوق رؤوس الحضور؛ إنّه فيديل شخصيًّا، وخلفه حاشيته القياديّة. راح التصفيق يتزايد ويتَّسع شيئًا فشيئًا في القاعة، كما تتّسع دائرة الحريق في هشيم يابس. بعض العسكريين الملتهبين حماسةً أطلقوا شعارات ثورية تخلَّلتها هتافات تنادي بحياة القائد: «يعيش القائد». إستولت حمّى الحماس على الجميع. رفع القائد ذراعيه عاليًا داعيًا الجمهور إلى الهدوء والجلوس. تدريجًا، زالت الحواجز البشرية التي كانت تحجب عنّي الرؤية، واستطعتُ في النهاية أن ألمح كتفَيْ «الإله الحيّ» ورأسه.

ظهر على المسرح أحد أشهر مقدّمي محطّة التلفزيون الوطني، يواكبه أوريمي ووزير الثقافة. عندئذٍ، بدأت حفلة تبادل لا متناهية من عبارات الثناء والشكر والإشادة والمديح الموجهة إلى الرئيس وصحبه الأجلّاء. كان صوت المقدّم التلفزيوني يرتجف مُضطربًا، وقد ارتكب الكثير من الأخطاء اللفظية بالتزامن مع الكثير من الانحناء والتبجيل، لكنَّ المعجَبين المزهوّين به، لم يروا في ارتباكه وتأثره الصريح إلّا ما عزّز إعجابهم. كان أوريمي قد حضّر نصف صفحة مكتوبة، فتلاها بشَقّ النفْسِ كاملةً بعدما أعياه قصر أنفاسه. تنفّستُ

عنه الصعداء إذ سمعتُه يقدِّم الوزير ويدعوه لإلقاء كلمته. أتحفنا هذا الأخير بخطابٍ جرّار أنهكَ المستمعين، لا سيّما الشاعرة كاريداد ساكرامنتو. مِن حولنا، راح بعض المدعوين يثرثرون ويلغطون، في حين تأفّف بعضهم الآخر من الخطيب، ولكن بصوت خافت.

عاد الكولونيل إلى استئناف حديثه السابق. سكب لنفسه كأسَ ماء، شرب نصف جرعة، وقال مدمدمًا:

– أودُّ أن أرى ماذا تخبّئ هاتان النظارتان السميكتان.

أحسستُ بانقباض ماينسي، حين واصل الكولونيل كلامه:

– لن تقولي لي إنك تنامين بهما أيضًا. هيّا أريني عينيكِ.

نزعتْ ماينسي النظّارتين بحركة لا تخلو من غضب مكتوم.

ندّتْ عن الكولونيل صرخة إعجابٍ ودهشة:

– أنتِ مُحِقّةٌ بحجبهما عن الأنظار يا جميلتي. قد يُفقِدان حتّى الحبر الأعظم صوابه.

قلتُ بنبرة حازمة:

– كفى سيّدي الكولونيل. حالة ابنة أختي الصحية ليست على ما يُرام. هي في طور النقاهة...

أنهى الوزير خطبته. صفّقتْ له القاعة تصفيقًا فاترًا. إنفتحت الستارة الواسعة على فرقة موسيقية عسكرية. أطلق المايسترو بعصاه نحو مئة حنجرة حماسية صبَّت على الناس سيْلًا من الأناشيد الوطنية. سألتني ماينسي أين تتواجد المراحيض. دلَّها أحد الموظَّفين إليها، فغادرتْ الطاولة بخطى مترنِّحة.

إستفسر الكولونيل:

– ولكن، ما بالها؟

– أخبرتُك بأنَّها مريضة.

فقالت الشاعرة متذمّرةً وهي تتهوّأ ببطاقة الدعوة:

– ما كان يجب أن تصطحبها معك.

إنسحبت الفرقة الموسيقيّة وسط أجواء غير مبالية، في حين بدأ النُدُلُ يحومون حول الطاولات بصوانيهم. كمقبّلات، قُدِّمت إلينا سلطة مشكَّلَة مرفقة بقطع من الكركند. لكزت السيّدتان البدينتان زوجيهما لحثّهما على الشروع بتناول الطعام. إبتلع الكولونيل محتوى طبقه حتّى من قبل أن أفرد منديلي. أمّا الفتى فدفع طبقه جانبًا. كان على الأرجح يشكو من حساسية تجاه ثمار البحر.

لبثت ماينسي في المراحيض قرابةَ العشرين دقيقة. آلمني عنقي لشدّة ما مددتُه وأنا أرقب الممرّ المؤدّي إليها. على المسرح، شرَعَت فرقة تدوزن آلاتها الموسيقية. سُلِّطت الأضواء لحظة دخول أيالا خونيور، مُتمنطقًا بلباسه الرسميّ الثلاثيّ القطع، فعَلا التصفيق والهتاف ترحيبًا به. بدأ «أمير الرومبا الصغير» بتوجيه التحيّة إلى فيديل، ثمَّ وجَّه قبلةً إلى الحضور حلَّقت كالفراشة في أرجاء القاعة. قرع بمقدَّم قدمه أرض المسرح ليضبط الإيقاع وأعطى إشارة الانطلاق إلى العازفين. بدأت الحفلة أخيرًا.

إغتنمْتُ فرصة الضجيج والحماس لأذهب وأبحث عن ماينسي. تقع الحمّامات في الطابق السفلي، والسُلَّم المفضي إليها ضيّق جدًّا، حتّى أنّني أرغمت على السير بمحاذاة الجدار. في الأسفل، لجهة مراحيض الرجال، ما من أحد. إقتربتُ وبحذرٍ شديد، من الجهة المخصَّصة للنساء. ناديتُ ماينسي، فلم تُجِبْ. جازفت أكثر، فبحثتُ في المراحيض الأخرى، لكنَّها كانت خالية. في طريق العودة، لمحتُ طيفًا ما مختبئًا تحت درجات السُلَّم. إنَّها هي:

– ليست البقعة الأفضل لتناول العشاء يا ماينسي.

أزعجني سلوكُها. وجدتُه تافهًا.

– أريد أن أعود إلى البيت، قالت في أنين.

– ما زلنا في بداية السهرة.

– لستُ مرتاحةً على الإطلاق.

– أُخرجي أوّلًا من هذا المخبأ. كأنَّكِ طفلة تلعب لعبة «الغمّيضة».

نفّذتْ طلبي. كان وجهها أبيض ضاربًا إلى الصُّفرة. لم تكن تقوى على الوقوف.

– وكأنَّه سيُغمى عليكِ. ما بكِ؟ هل العسكريّ مَن جعلَكِ في هذه الحالة؟ إنَّه مجرَّد أحمق مفرط الحماسة يخال أنَّ نياشينه قد تحجب فظاظته.

– حتمًا لديه شكوك بشأني. أنا واثقة من ذلك.

– بربِّك يا ماينسي، أيَّة شكوك؟ إنَّها مناسبة وطنيّة. هذا المساء، ليس هناك إلّا محطّ اهتمامٍ واحد: فيديل.

– أنا واثقة من أنَّهم لم يجلسونا إلى هذه المائدة بالمصادفة. هذا الضابط مكلَّف بالتحقُّق من هويّتي. طلب منّي أن أنزع نظّارتَيَّ ليتأكَّد. أرجوكَ أن تُعيدني إلى المنزل.

ضحكتُ ضحكةً مفتعلة كادت تمزِّق حنجرتي.

– هذا المساء، لن يسألك أحدٌ إن كان لديك ترخيص بالدخول إلى هافانا أو لا. أنتِ مجرّد مدعوّةٌ ما بين كبار شخصيات البلاد. ثمَّ ما الذي يدعوكِ إلى الاعتقاد بأنَّ هناك من يبحث عنكِ أو يلاحقكِ؟ أطردي هذه الأوهام اللعينة، وافرحي قليلًا. إسترخي، بالله عليكِ يا ماينسي. ها نحن معًا وهذا كفيل بأن يجعلَكِ مطمئنة. وجودُنا هنا مهمٌّ جدًّا لنا نحن الإثنين. سألتقي وزير الثقافة وشخصيات أخرى رفيعة المستوى. مسيرتي المهنيّة وقفٌ على هذه الليلة. إنّي لواثقٌ من أنَّ غدًا سيكون يومًا آخر ومختلفًا تمامًا. بدوري، سأحظى بعلاقات وصداقات، وعندئذٍ أستطيع تأمين التراخيص والوثائق التي تريدينها.

– لستَ ملزَمًا بأن تعود معي إلى البيت.

– لن أتركَكِ تذهبين لوحدك. إن كنتِ ترَيْن أنَّ مستقبلي المهنيّ ليس بأولوية، إذًا فليذهب إلى الجحيم ولنعُدْ سويةً ومن دون إبطاء.

أذعنت ماينسي. ذهبتْ إلى دورة المياه تغسل وجهها، وقبِلَتْ بأن تعودَ إلى القاعة.

لم تذُق شيئًا من طعامها. كانت متيبِّسةً على مقعدها، وتتظاهر بأنَّها مهتمَّة بما يدور على المسرح. لقد اختفت كاريداد ساكرامنتو – الموهبة في بلاد الرقابة لا تنفصل عن الخضوع – وعلى الأرجح، تتواجد الشاعرة في مكان ما تبتسم لرجالات النظام وتتملَّقهم. أمّا الكولونيل فبدا منهمكًا في التحدّث إلى ضابطٍ آخر على المائدة المجاورة.

أخيرًا، جاء أوريمي يتفقّدني. كان مندفعًا بحماسة حتّى أنَّه لم يفطن إلى وجود رفيقتي بجانبي.

– هيّا، هيّا، الوزير بانتظارك.

قلتُ لماينسي:

– سأعود على الفور.

أجابتني:

– سأخرج قليلًا لأتنشَّق بعض الهواء المنعش.

– حسنًا.

بينما كنتُ أسير مسرعًا وراء أوريمي بين الطاولات، لمحتُ ماينسي تتَّجه نحو الباب المفضي إلى فناء الفندق الخلفيّ. أردتُ أن أشير لها بحركةٍ من يدي، لكنّها كانت قد أدارت ظهرها.

23

لم يكُنْ اللقاء بالوزير طويلًا؛ جديلة شَعري نفّرتهُ منّي. صافحني بيدٍ رخـوَةٍ تاركًا مسافةً بيننا. هزَّ برأسه بينما كان أوريمي يُطري عليَّ ويمتدحني، ثمَّ انصرف الوزير يؤاسي حشود طالبي الوجاهة ومتسوِّلي الترقّي الصاهلين في الرواق.

قدَّمني أوريمي لنخبة قياديي الحزب. كان ذلك بمثابة مشقّة حقيقية، فأنا لا أُطيق أن يُنظَر إليّ من عَلٍ نظرة استصغار؛ مع ذلك فقد ظلَّت الابتسامة معلَّقةً على شفتَي. في كوبا لا يمكن خرق البروتوكول من دون أضرار، فأصحاب القرار مفرطو الحساسية تجاه هذه المسألة، وقد تأتي ردود فعلهم خطِرة للغاية. أيُّ إنسانٍ عاقل قد يتفادى هذا التحدّي.

فجأةً، تكرَّم ثريّ واحد من حيتان المال بالالتفات نحوي؛ مدير سابق لمهرجانات الموسيقى، كان ألفونسو رويز لا يزال يتمتَّع ببعض النفوذ. كان قد زوَّج ابنته لأحد أقرباء فيديل ولا يزال يحتفظ ببعض الصلاحيّات على الرغم من إحالته إلى التقاعد. هذا المساء كان في حالة من السُّكر جعلت الأمور تختلط عليه لدرجة قد يحسب الديكُ حمارًا. دعاني إلى الجلوس في صالون خاصّ.

– هكذا إذًا! كنتَ تعمل في الـ«بوينا فيستا»؟

– نعم سيّدي.

– نادني آل.

– نعم، آل.

– كان بيدرو مديرًا كفوءًا. أنا مَن كان يدعمه. ماذا حلَّ به؟

– لا أعرف.

– من جهتي، لم أكن موافقًا على خصخصة بوينا فيستا. تلك صفعة قوية! إلى أين سنصل إذا استمرَّ الوضع على هذه الحال؟

– قد نتساءل فعلا.

بجرعة واحدة أفرغ كأسه، وأرسل نادلًا لإحضار كأسٍ أخرى.

– سعَيْتُ بيديّ ورجليّ لمنع هذا القرار. في الماضي، كانت كلمتي مسموعة. على أيَّة حال، قد استُبعِدتُ لشدّة صراحتي. لا يمكنني السكوت عن الخطأ. ثمّة مبادئ وقيَم لا يجوز المسّ بها.

– قطعًا، آل. قطعًا.

نفش ريشه كالطاووس، وزَمَّ منخريه بحركةٍ مسرحيّةٍ تعبّر عن استنكاره.

– لقد تخلّى الناس عن القيم والمبادئ. المناضلون الحقيقيون لُجِموا وقُيِّدوا، وأُطلِقَ العنان للخِراف الوديعة والكلاب المطيعة. هذا يُريعني حقًا.

تضرَّعتُ أن يعود أوريمي ويُخرِجني من هذه الورطة، وإنّما ألفونسو رويز مجرَّد ممثّل فاشل اختير خطأ ليؤدّي الدور. هذا النوع من الأشخاص لا يجيد إسداء خدمة لأحد. ولئن كرَّس لك ساعةً من وقته فلِكي يُسمِعَكَ سخطَه وانتقاداته ويجرّك في تيّاره.

– كنتُ أحد كبار الموظّفين النادرين الذين يخبطون بيدهم رفضًا على مكتب فيديل، حالما تتعرّض الثورة للانتهاك. كان زمن

الحماسة الوطنية التي تنبع من أعماق القلب وليس من طرَف اللسان. أمّا اليوم، فلا نجد سوى الغوغائية والديماغوجية في كلّ مكان. نحن نتخلَّى عن ثرواتنا مقابل الفُتات، وننظر إلى أنفسنا في المرآة من دون خجل.

قلتُ مُزايدًا، وأنا أنظر إلىَ ساعة يدي:

– إنَّه زمن الحيوانات الضارية.

تشجَّع المسؤول السابق، وقال باعتزاز، مشيرًا بإصبعٍ غليظٍ إلى صدره:

– كان بوسعي أن أصير وزيرًا.

– لا شكّ في ذلك يا آل.

– جميع الشخصيات الكبرى المحيطة بفيديل عرفتُهم عن كثب. لكن، أن أكون مثلهم؟ لا ثمَّ لا. لستُ ذبابة تجتذبُها رائحة اللحم. عُرِضَتْ عليَّ مناصب مهمّة لاستمالتي، كأن أكون سفيرًا في بلد أفريقي أو سوفياتي. لكنَّ ذلك لم ينطَلِ عليّ. أنا صاحب مبادئ. عندي الأسوَد أسوَد، والأبيض أبيض. زوجتي ترى أنَّني أبالغ، أمّا أنا فأرى أنَّني لا أقوم بما يكفي. قد أهبُ دمي فداءً لكوبا. أنا مناضل منذ بدايات البداية.

ظلَّ ألفونسو يحكي ويحكي... ولا ينقطع عن الحكي لكي يستعيد أنفاسَه مثلًا، أو يفكِّر لحظة.. بل واصل قصّ مآثره المصطنعة. روى لي كيف عاش طفولةً مريحةً في كنف عائلةٍ سعيدة، وكيف تلقّى أولى صدماته الإيديولوجية، وأُولى مجابهاته مع المقاومة السرّية، وخلافاته مع تشي غيفارا، وسجالاته العنيفة في المؤتمرات والاجتماعات، والمشاريع الكبرى التي قدّمها من أجل الحزب. كان يتوقَّف فجأةً ليروي نكتة لا مغزى لها ثمَّ يتذكَّر بعض التفاصيل التي تعود إلى سنوات وسنوات، ويقفز من موضوع إلى آخر. كدتُ أنفجر

لشدّة ما أرغمت نفسي على «ابتلاع» حديثه. يا للسخرية! أنا الذي أتيت إلى «إسميرالدا» لاقتناص أيَّة فرصة سانحة.

على سبيل الاحتراز أو اللياقة، لم أجرؤ على مقاطعة ألفونسو رويز الذي كانت شهية الاستفاضة لديه تتزايد نهمًا. على أية حال، لا أعرف كيف أقاطعه. كلّما حاولت صرف انتباهي إلى شيء آخر، كان يُمسِكُ بذقني ليعيدني إليه.

لعنتُ أوريمي في سرّي، لأنه أسلَمني إلى هذا الغول الذي على ما يبدو يخالني المدوّن المحلَّف لتاريخ الأمة، والمكلّف بمراجعة الملفات الرسمية بغية إعادة المكانة إلى كلّ بطل من أبطال الذاكرة الشعبية.

أمرَني ألّا أتحرّك من مكاني:

– أمكُثْ هنا، سأذهب لأتبوَّل، ثمَّ أعود إليك على الفور، لأقصَّ عليك جملةً من الحكايات المشوّقة الشهيّة حول الذين نصَّبوا أنفسهم آلهة.

لم أنتظر حتّى يبلغ آخر الرواق كي أتملَّص منه. لم أجد ماينسي على مائدتنا ولا في المراحيض. بحثتُ عنها في الفِناء الخارجي فلم أعثر عليها. بحثتُ عنها في حدائق الفندق ولم أعثر عليها أيضًا. لم أعثر على أثرٍ لها حتّى في موقف السيارات. سألتُ الحُرَّاس ما إن كانوا لمحوا شابّةً سمراء ترتدي ثوبًا أبيض ونظّارات شمسية، فأجابوني بحركةٍ من رأسهم أن لا.

سمعتُ اصطفاقَ موج البحر ما وراء غابة صغيرة. فكَّرتُ في قرارة نفسي: بالتأكيد ذهبت تتمشّى على الشاطئ. سلكتُ المنحدر الضيّق المؤدّي إليه. على بعد مئة متر تعثَّرتُ بفردة حذاء. أشعلتُ مصباح الجيب لأتحقَّق ما إذا كان لماينسي أم لا، فقفز قلبي من

صدري حين تأكَّدتُ أنَّه لها. عند أسفل شجرة ضخمة من الفوقس، عثرتُ على الشعر المستعار. لم يعد لديَّ أدنى شكّ في أنَّ مكروهًا قد حلَّ بها. إستبدَّ بي تشاؤم سوداوي. أسرعتُ على الدرب أبحث، على ضوء مصباحي، في كلّ الزوايا. وأنا أسير، وعيتُ أنَّني أردِّد ماينسي... ماينسي... بصوت خافت، وكأنَّني لا أريد إجفالها. لمّا لم أحصل على أيِّ نتيجة، أخذت أركض إلى الأمام مباشرةً.

رأيتُ ماينسي مُسجّاةً على ناحية من الشاطئ المغطّى بالحصى. لم أُبصِر سوى ظهرها المنحني. ثمّة شكلٌ ما ممدَّد إلى جانبها؛ خِلتُه أوّل الأمر جذعَ شجرة أو كومةً من طحالب البحر قذف بها الموجُ. ولكن لا، يا للهوْل! كانت جثّة رجلٍ ملقى على بطنه.

مادت الأرض تحت قدمَيْ.

كانت ماينسي تشهقُ بالبكاء، ممسكةً بيدها حجرًا. إنحنيتُ على الرجل. لم أكن بحاجة لجسِّ نبضه، فلا أحد يبقى على قيد الحياة وجمجمته تفيض دمًا.

دارت بي الأرض ودارت من حولي الأشجار وقد تمازجت أطيافها وسط اصطفاق الموج يصدِّع رأسي بهديرٍ جنائزي.

رائحة الدم كانت تلوِّث الأجواء، رائحة ملموسة، لزِجة، مقزِّزة، تلتصق بأغصان الشجر، تقطر من جذوعها، وترشح من حصى الشاطئ، ناشرةً في المكان صقيعًا مرعبًا.

– ماينسي، قولي لي إنَّ هذا غير صحيح. أتوسَّل إليكِ، قولي لي إنَّني سأفيق من هذا الكابوس.

كان شعر ماينسي متشعِّثًا، وكانت جاثية قبالة البحر تتمتم وتبسمل بكلماتٍ غير مفهومة.

– ولكن... ماذا فعلتِ؟ هذا غير ممكن.

رفعتْ ماينسي عنقها قليلًا، كتفاها يرتجفان، وثوبها مشقوقٌ من الخلف.

– ماينسي...

أرَتني وجهًا رماديًّا شاحبًا، يكاد يكون مشوَّهًا، مخيفًا. نظراتها باهتة تائهة. عندما رأت الحجر في يدها مضرَّجًا بالدماء، اجتاحتها هزَّةٌ وخرجت لِلَحظة من لُجّتها. بدَت غير مدرِكةٍ لما حصل قبل أن تتحقَّق ممّا فعلَتْ. كان ردُّ فعلها كمن اكتشف أفعى سامّة في حقيبته. إنتفض جسمها وارتجَّ بأكمله. ألقَتْ الحجر من يدها. مسحَتْ يديها بثوبها. كانت حركاتها متشنِّجة ومتقطِّعة، مثقلةً بالرعب والقرف.

كرَّرتْ متلعثمًا:

– ولكن... ماذا فعلتِ؟

حملقتْ بي بعينَيْ مخبولة.

أرعبتْني بلادتُها ونظرتها الفارغة الجامدة بقدر ما أرعبتني الجثّة الممدَّدة عند قدمَيّ.

لم يعُد الشاطئ الصغير سوى موت، مأساة، كارثة بل كابوس لا ينتهي. لقد احتلَّ الجسم المتفكِّك مكان كلّ ما يحيط به. لم أعُدْ أرى شيئًا سواه، سوى الدم الذي يجلِّل جمجمته الغائرة، وتصلّبه المخيف. كنت أقول في قرارة نفسي: لا يحقُّ له أن يكون هنا، مكانه ليس هنا، إنَّه يشوِّه كلّ المشهد، جاعلًا كلّ ما حوله خطأً بخطأ. يجب عليه أن يتلاشى برمشة عين، كما بخدعة بصرية. إلّا أنَّ الجثّة بقيت هناك بعنادٍ وثبات. جثّة أحلامي وأمنياتي الأكثر روعةً، هنا، في هذا المكان بالتحديد، بما أنَّ أيَّ مكان آخر أبى استرجاعها. أحسستُ بأنَّني اللعنة الأكبر بين البشر، وبأنَّني خُلِقتُ لكي أشاهد أحلامي تنهار أمام عينيّ وكأنَّها قصر من ورق. كنت أرتعِدُ من قمّة رأسي حتّى أخمص قدَمَيّ وأشعر بالغثيان يغزو أحشائي.

قالت لي بصوت كأنَّه عواء آتٍ من القبور البعيدة:

– قلتُ له ألّا يقترب مني.

صوتُها مزَّق أعماقي، قدَّني قدًّا. سقطتُ على ركبتَيّ وتقيّأتُ حتّى كدت الفظ أحشائي.

– لماذا، ماينسي، لماذا؟

تمالكتُ نفسي لئلّا أهجم عليها، وأوسِعها ضربًا حتّى تلفظ أنفاسَها. في الوقت نفسه، أحسستُ بأنَّني لا شيء يُذكر، بالٍ وتافه، وبأنَّني مثلها، مجرِم. كرِهتُ نفسي لأنني وصلتُ متأخّرًا، لأنّني لستُ سوى شاهد عيان على مجزرةٍ رهيبة، مقهور، عديم النفع. إنتابتني سورة غضبٍ عارم حيال الجثّة التي لا يجدر بها أن تكون هنا، وحيال الأقدار التي جعلت المأساة ممكنة، والآلهة وأرواح الأجداد الذين لم يرمقوا من عليائهم أيَّة أضحية.

وهذا الهواء الذي يفوح برائحة الدم، لماذا يُفسِد روحي؟

في عمق أعماقي، رغبةٌ في الصراخ والعويل، في تخريب وتحطيم تفاصيل هذا المشهد كلّها. مع ذلك بقيتُ مسمَّرًا في مكاني، مُنهكًا، ضعيفًا، مكتوف اليدين، أنتظر ماينسي لتنهض وتقول لي: «هيا بنا نعود إلى المنزل».

فجأةً، تسارعت الأمور: الرعب، الغضب، التعرُّق، الارتعاد، الغثيان، الرهبة... ركضتُ مسرعًا ألتقط الشعر المستعار والحذاء المتروكَيْن على الطريق. لم أجِد النظّارات، فتقيّأتُ من جديد وأنا أدبّ دَبًّا. رجعتُ حَبْوًا إلى الشاطئ، مترنِّحًا مهلوسًا ورأسي ملتهب بالصرخات الباطنيّة والزفرات والشهقات الباكية المحبَطة.

– تعالي نرحل قبل أن يأتي أحد.

كانت ماينسي تحدّق بالجثّة، وكأنَّها تحت تخديرٍ شامل. قالت بصوتٍ غير مسموع:

– لماذا لم يَدَعْني وشأني؟

– فلنرحل من هنا، قلتُ لكِ.

– لم أكن أفعل شيئًا سيّئًا. كلّ ما أردتُه هو أن أتنزّه قليلًا. لماذا لحِق بي؟ أليس بوسعي أن أكون بمفردي؟ هذا... هذا أمرٌ لا يُطاق. كنتُ مرتاحةً. لماذا جاء لِـ... لِـ...

– أتوسَّل إليكِ. إنهضي، أفيقي.

بدت وكأنَّها لم تسمعني.

أخذتْ تهذي:

– كنتُ مرتاحة. كنتُ قد شفيتُ. شفيتُ، شفيتُ، شفيت...

تناولَتْ حجرًا آخر وهمَّتْ بضربِ جمجمة القتيل. هرعتُ إلى انتزاع الحجر من يدها. لم ترفع نظرها، ولو مرّة واحدة. لم تُدرِك أنَّني كنتُ أحاول مساعدتها.

كانت جاثيَةً أرضًا، منكبَّةً على وجهها في وضعية الجنين، قبضتاها بين فخذَيْها، وفمها فاغرٌ بصرخةٍ صامتةٍ مرعِبة. أمسكتُها من كتِفَيْها، فانكمشَتْ على نفسها أكثر، لصيقةً بالأرض، تخترقُ جسمها الارتعادات، وفمُها مفتوحٌ على مداه، في صرخةٍ صامتة لامتناهية، تأبى أن تُلفَظ.

عـدْتُ إلى الطريق أبحث عن النظّارات. لم أعثر عليها. من خلال أشجار الفوقس، لمحت الفناء الخلفي للـ«إسميرالدا»، والمحتفين يغدون ويروحون، وأعقاب سجائرهم تتوهَّج في العتمة المحيطة. إشتدَّ هلَعي. في كلّ دقيقة تمضي يكمن خطرٌ داهم. عدتُ إلى الشاطئ راكضًا كالمجنون.

كانت ماينسي لا تزال رابضةً منكمشة على جنبها. قالت شاهقةً بالبكاء:

– لا أريد أن يشنقوني.

لا أعرف كيف استطعتُ أخيرًا أن أبعدها عن الشاطئ، وأجعلها تجتاز غابة الشجر وأجرّها بعيدًا عن الـ«إسميرالدا».

قالت لي وهي تئنّ:

– لن تدَعَهم يشنقونني. أليس كذلك؟

كان شعوري بالشفقة عليها أقوى من شعوري بالاشمئزاز منها.

– إذا كان هذا سوف يحصل، فسنكون على حبل المشنقة معًا.

هذا وعدٌ وعهدٌ أقطعه على نفسي.

سرنا حتّى سانتافي بمحاذاة الطريق العامّ لئلّا نتوه. نختبىء خلف الأشجار كلّما دنت سيارة. كنّا أشبه بسجينين هاربَيْن. كانت ماينسي تستند إليَّ وقد اختلطت رائحتها برائحة دم ضحيّتها. كانت يداها المجرَّحتان تدلّان على جريمتها. لم تَعُد ماينسي أكثر من ظلٍّ ملتصِقٍ بجلدي. كانت نفسي تحدِّثني بين الحين والآخر بأن أتركها لعذابها، وأنجو بحياتي، بلا الالتفات إلى الوراء. الغريب أنَّني ما زلتُ أضمُّها إليَّ بأشدِّ ممّا كنتُ أفعل. مع ذلك، لا أستطيع أن أسامحها. فِعْلتُها الإجرامية خيانةٌ لي. لقد دمَّرت روحي وبدَّدت أحلامي وشتَّتت مشاريعي. عادت وأدرجَتْ اللحظةَ التي كانت لنا في مجرى الزمن. حين أتذكَّر كم صلّيتُ هذا الصباح لكي يمضي الزمن في سبيله، ويتجاهلنا، حلوتي وأنا! لطالما خشيتُ الزمن. إنَّه لاعبٌ رهيب، يخبِّئ في كمِّه على الدوام الورقةَ الرابحة. الزمن، في سكونه المنيع، يُمْهِل دون أن يكشف عن وجهه، واثقًا، كلّيَّ القدرة، جازمًا بأنَّه سيكسب الرهان أضعافًا مضاعفة. غير أنَّني تشجَّعتُ وأمِلتُ – ولو لمرّة – في أن يلين أمام حبّنا، وأن يسمح باستثناء واحد. لكنَّ ماينسي بترَتْ الحلم، وقطعت سحرَه. جرَّدتنا ماينسي من أهليّتنا، نحن الإثنين، وحرمتنا من حقوقنا. ها هو الزمن يسوقُنا أمامه الآن، كما لو أنَّنا نعجتَيْن تُساقان إلى مذبح الأضاحي.

وصلنا إلى البيت حوالى الساعة الثانية فجرًا.

إنهارت ماينسي في الصالون. لم أحاول إنهاضها. من الآن فصاعدًا، أيُّ شقاء لن يضاهي مصيبتها. تأمَّلتُ المرأة التي جعلتني أحلم، وكأنَّني أنظر إلى كتلةٍ من حُطام. هكذا بقينا غريبَيْن الواحد عن الآخر، وقد استولَتْ على كلٍّ منا غوغاؤه الداخلية. حتّى أنَّني لم أعد أحتاج أن أعرف ماذا حصل بالضبط.

هناك رجلٌ ميت، ولا ظرف قد ينجحُ في تبرير قتله. أشعر بأسى كبير تجاه هذه الصبية التي في خضمِّ سعْيِها إلى بناء ذاتها، لم تفعل سوى التسريع من تدمير كيانها. أدركتُ أنَّ أكثر الصلوات حرارةً وصدقًا لا تتجاوز أطراف الشفاه، وأنَّ الحلم، كلَّما كان أبهى وأجمل، أتَت خديعته أكثر قسوةً وظلمًا، وأنَّ النوايا التقوية تنتهي دومًا بالارتداد والجحود، وما لم تحمل أمور الحياة أيَّة عبرة، فلا بدَّ من أن تخلِّف الحسرة والندم.

فاضت الدموع من مقلَتَيّ وسالتْ على خدَّي.

تكوَّمتْ ماينسي على ركبتيها، تتلفَّظ من وقت لآخر بكلمتين أو ثلاث، وتخبط الأرض بباطن كفِّها. ذهبتُ إلى المغسلة لأتقيّأ ثانيةً. من النافذة، شاهدتُ ماينسي تسير في اتّجاه البحر كمن يسير وهو نائم. كانت نواياها واضحة. ركضت وراءها لأردعها. دفعتْني وأسرعَتْ نحو الماء. طوّقتُها بذراعي، فهشَّمت وجهي بأظافرها، وعضَّتني في ذراعي. أعدتُها بالقوّة إلى المنزل. كان صراعنا بلا هوادة يتخلَّله الضربُ والصراخ. كلّما قفزَتْ في اتّجاه الباب، اعترضتُ طريقها لأمنعها من الخروج. في النهاية لزِمَتْ زاوية الغرفة، صامتة. وجهها شاحب لا لون له وكأنَّ أحدهم امتصَّ دمها. نظرتها جامدة ساهية.

حاولتُ أن أفكِّر بما عليَّ أن أفعل، لكنَّ أفكاري ونقاط استدلالي كانت مبعثرة.

بعدما بقيت ماينسي منطويةً على نفسها وقتًا طويلًا، نهضتْ وتوجهَتْ نحو المطبخ. لحِقْتُ بها ولازمتُها حذِرًا.

بحثتْ بجنونٍ في الأدراج وبعثرت محتوياتها، وبشراسةٍ قلبتْ الصحون فتحطَّمتْ على أرض المطبخ محدثةً صخبًا مخيفًا. حركاتها هذيان خالص، وجسمها تشنُّج وغضب.

صرختْ لاهثة:

– دعْني أرحل.

– لقد قتلتِ رجلًا. آثار دمه ما زالت تلطِّخ يديكِ.

– ابتعدْ.

– إلى أين تريدين الذهاب؟ اليوم ذكرى وطنيّة. هناك حواجز في كلّ مكان. ماذا ستقولين لهم إن أوقفوكِ، ورأوا ثوبك الملطَّخ بالدم؟ ليست لديك أوراق ثبوتية...

– إبتعِد.

– لن أبتعِد. أدخلي الحمّام واغتسلي، واستعيدي أنفاسَكِ، وهدّئي من روعِكِ. أنا الوحيد في هذه الجزيرة الذي يمكنه أن يساعدك في الخروج من هذه الورطة التي أقحمتِ نفسَكِ فيها.

كلّ كلمة أتفوَّه بها كانت تُتبِعها برشقٍ من الـ«إبتعِد»، وعيناها تزدادان تورُّمًا، والزبد يغطّي شفتيها.

– هل ستهدأين الآن؟ أنتِ تشوَّشين تركيزي. كيف تريدين أن أفكِّر على نحوٍ صحيح؟ دعيني أرتِّب أفكاري، وسأجد حلًّا.

– دعني أرحل.

– عودي إلى رشدِكِ يا عزيزتي. هذا أنا، خوان. هنا إلى جانبك. لستِ في حالة تسمح لكِ بأن تذهبي إلى أيِّ مكان.

– للمرّة الأخيرة، ابتعد عن طريقي. لا تُرغمني أن أدوس على جثتِك.

رمتني بنظرة لم أرَها قطّ في عينيها من قبل. نظرة لا حياة فيها، مرعبة كأرض تلتهمها النيران، سوداء كأنّها وادي الظلمات، نظرة باردة قاطعة كساطور جزّار يهوي على قطعة لحم.

– هل تفهمين معنى كلامي؟ لا أريد أن تُنهي حياتَك في السجن أو على حبل المشنقة...

شعرتُ بغليان في أحشائي. ترنَّحتُ، وأنا لا أصدِّق ما يحدُث. لقد طعنتني ماينسي بسكّين. ضغطتُ بيدي على الجرح النازف، فسال دمٌ حارٌّ من بين أصابعي. إستولى عليَّ خواءٌ مفاجئ وشعرت بأنَّني أطوف في فضاءٍ ما.

– إهدأي ماينسي. إنَّك تدمِّرين كلّ شيء. هذا سيىء...

إخترقَ النصل خاصرتي مرّة أخرى. ترنَّحتُ متمايلًا بين الألم والغثيان. طعنةٌ ثالثةٌ أصابتْ صدري.

– اهدأي ماينسي، بحقِّ السماء، اهدأي. دعيني أساعدكِ.

لم أحتسب عدد الطعنات التي سدّدَتْها إلى جسمي. سقطتُ على ركبتَيّ. كان وجه ماينسي كالقناع الجنائزيّ، وعيناها تعصفان بالسواد؛ السكّين يُطلُّ عليّ. حاولتُ أن أحتمي، لكنَّ أيّ عضلة من عضلاتي أبت التحرُّك. لم يكن بإمكاني سوى النظر إلى النصل وهي تغمده في لحمي، ثمَّ تسحبه، ثمَّ تُغمِده من جديد، ثمَّ تعاود سحبه، مرّات ومرّات...

– هذا أنا خوان، خوان الذي هو لكِ. أنا معكِ، إلى جانبكِ، ماينسي...

كان كلامي يدوِّم ثمَّ يسقط في الهاوية. صوتٌ آخر كان يناديني ويستحلفني بألّا أفقد الوعي. لفَّني دوارٌ بألف دوخة ودوخة كما لفّ الجدران من حولي، ومادت بي الأرض. شعرتُ بأنَّني أتأرجح. تمسَّكتُ بثوب ماينسي لئلّا أسقط. دفعتني ماينسي ولاذت بالفرار. أردتُ

أن أتوسّل إليها لتنتظرني، أن أصرخ ألّا تتعجّل، ألّا تتركني. لكنَّني لم أشعر سوى بغرغرة فائرة تخرج من حلقي. تشبّثتُ بكرسيٍّ لأقاوم الهاوية التي كانت تشدُّني إليها لتبتلعني. خوفي من الموت قذفني إلى الخارج. لم أرَ سوى خيالات من الأشياء والمعالم، عاجزًا عن تمييز الشجيرات تحت عصف الريحِ. هجرتْني كلّ قوايَ. لكن، في اللحظة الأخيرة، غريزة استمرار آتية من حيث لا أدري، جعلتْني أعاود صعود الدرب حتّى الطريق العام، حيث انطرحتُ على الرصيف. أمامي نفق عميق يدور كاللولب ليمتصَّني بِنَهم، وموجة من الصقيع تصعد من أصابع قدمَيَّ وتتسلّق ساقيَّ لتهدِّد بتحويلي إلى قطعة جليد.

24

في المستشفى، أطلقوا عليَّ لقب «الناجي بأعجوبة».

أنقذتْني دورية شرطة وجدتني ممدَّدًا على قارعة الطريق. فقدتُ الكثير من دمي. رَصَد فريق الطوارىء جراحًا عديدة وخطيرة، وإصابة بالغة في إحدى كِلْيتَيّ. بقيتُ مدَّة ستّ ساعات متواصلة في غرفة العمليات، وكاد قلبي الضعيف أن يتوقف عن الخفقان.

بعد أسبوعين من الغيبوبة، رجعتُ إلى الحياة.

كان بانشيتو يجلس قرب سريري. هو الذي أبلغَ الممرِّضة حالما فتحتُ عينيّ. خلال الأيّام الأولى من قيامتي، كنتُ أجدُ صعوبةً في التعرُّف إلى الوجوه المشوَّشة المعالم التي كانت تُطلّ عليّ. أسمع لغْطَهم من دون أن أفهمه. كان الضوء يزعجني بل يؤلِمني. كنتُ أحسّ بصقيعٍ دائم، وأرتعد لأدنى حركة كما لو مسَّني تيّارٌ كهربائي.

يبدو أنَّني حاولت الانتحار في اليوم الذي تلا صحوي.

لا أذكر إلّا أنَّني لم أكن أُطيق الأنابيب والآلات التي كنتُ موصولًا بها من كلّ جانب.

سيرينا كانت أوّل الوافدين. لم أعرفها لأوّل وهلة لشدّة ما غيَّر القلق من قَسَمات وجهها. بعدها، جاءت زوجتي السابقة، إيلينا،

وابنتي. إرتمت هذه الأخيرة عليَّ باكيةً، فأيقظتْ ألف ألمٍ وألم في جسمي المكسوٍّ بالضمّادات.

ما إن بدأتُ أستعيد بعض الوعي حتّى جاءني رجال الشرطة يستجوبونني. أخبرتهم بأنَّ مجهولًا طعنني في الظلمة، ولم أتبيَّن وجهه، وأنَّه بالتأكيد القاتل الذي يهاجم كلَّ من يتنزَّه ليلًا منفردًا. أخبرني الشرطيّ بأنَّ الذي اعتدى عليَّ لا علاقة له بالـ«مُختلّ» الذي أقصده، موضِحًا:

– لم يكن أسلوب الاعتداء نفسه، فباقي الضحايا قضوا بحجرٍ ضُرِبوا به مرارًا على رؤوسهم... هل أنتَ واثِقٌ من أنَّ الذي هاجمكَ كان رجلًا؟

– بالطبع! وأطول منّي بكثير.

– إذًا، مهاجمك لم يكن القاتل نفسه. تحليل الحمض النووي الذي وُجِد في كلّ من ساحات الجرائم الأخرى يدلُّ، وبصورة قاطعة، على أنَّ القاتل واحد وهو امرأة.

كاد قلبي يقفز من صدري.

– وهل قبضتُم عليها؟

– لن نتأخَّر في ذلك.

تدخَّل الطبيب ليضع حدًّا للاستجواب، بعدما لاحظ أنَّ حالتي قد ساءت.

بقيتُ في المستشفى ثلاثة أسابيع قبل أن يحوِّلوني إلى أحد مراكز إعادة التأهيل.

لم تكن ذراعي اليسرى لتستجيب إلّا بصعوبة بالغة. أحيانًا، عندما كان الغضب يستولي عليَّ، كنتُ أتمتم، هذا ما لم أفقد القدرة على النطق مؤقتًا. كانت ابنتي إيزابيل تزورني كلّ مسائين. أمّا والدتها

فمرّة كلّ فترة. كان الاتّصال مقطوعًا بولدي ريكاردو. لا أحدَ يعلَم أين ذهبَتْ به طائفته.

إستأنفتُ نقاهتي في منزل شقيقتي سيرينا. أخلى أولادها الثلاثة الغرفة من أجلي. كانت عائلتي تدلّلني وتعتني بي خير اعتناء، في حين تأتي ممرضةٌ وخبير علاجٍ فيزيائي كُلّ يوم إثنين للتأكُّد من أنَّني أتعافى.

وجدتُ عالمي تمامًا كما تركتُه، مع فارقٍ واحد: لم يكن يثير لديَّ سوى الدوار والغثيان. كان نومي مليئًا بالرعب، ويقظتي بالغضب. أحيانًا كان يحدث لي أن أغيب عن الوعي.

لم أعُد أعرف إلى أين أذهب وماذا أفعل.

كانوا يأتون إليَّ بالصحيفة صباح كلّ يوم. لا أجد فيها أيَّة إشارة أو معلومة دامغة عن السفّاحة التي ارتكبت سلسلة الجرائم. كانت تحقيقات الشرطة متعثّرة تتبعثر في اتّجاهات مختلفة. بعد وقتٍ وجيز، نسي الجميع القضيّة.

يوم الأحد، كان فيليكس يقلّ ابنتي من ريغلا. لقاءاتي هذه معها من اللحظات النادرة التي كنتُ أتصالح فيها مع الحياة. كانت تُمسِك بيدي وتجرّني على طول الشاطئ، فتُبعِدني بذلك عن أفكاري السوداوية. تروي لي نهاراتها، صديقاتها، نزهاتها ورحلاتها، وتحدّثني عن مشاريعها، فهي تريد أن تصبح مضيفة طيران لكي تسافر وتكتشف بلدانًا أخرى. كانت تُفضي إليّ بأسرارها الصغيرة، وبأسفها لأنَّها أساءت التصرُّف معي ذلك اليوم الذي ذهبتُ فيه لزيارتها في منزلها. إعترفتُ لها بأنَّها ستبقى على الدوام عصفورتي الصغيرة، ولن أتوقَّف عن حبِّها لحظةً واحدة.

عندما تتراخى ساقاي، كنّا نجلس، ابنتي وأنا، في ظلّ شجرة، ونبقى ساعاتٍ طويلة نتحدّث، مسرورَين لأنّنا معًا، وقد اجتمعنا

أخيرًا. أحيانًا، خلال نزهاتنا الطويلة، كنّا نمرُّ بجانب الترام الأخضر، فينتابني شعور بالضيق يُفسِد الأجواء، ويدفعني للعودة إلى المنزل على الفور.

مرّات عدّة، رجَوْتُ مندوب الحيّ أن يُخطر السلطات المحلية بكومة الركام هذه التي تُضيف إلى الإهمال البيئيّ لمسةً مميتة. وَعَدَني بأن يفعل ما في وسعه لإزالته، لكنَّ الترام لا يزال جاثمًا في المكان الذي تعطّل فيه، وقد تحوَّل إلى ما يشبه مصيدة ذباب تعلقُ فيها الذكريات.

باستثناء أحاديثي مع ابنتي، صرتُ قليل الكلام، أؤثر العزلة في غرفتي. في الليل، يحدُثُ لي أحيانًا أن أحلم بماينسي، فأزداد حُزنًا على حزن، وغمًّا على غمّ. متى أسلمني الضجر إلى براثن الكآبة، أذهب إلى بانشيتو للتخفيف من هواجسي.

جاء ألونزو ذات مرّة لزيارتي. أصرَّ أن يجتمع بي على انفراد، لكي يشكرني إذ لم أُخبِر الشرطة بشأن إيجار المسكن غير القانونيّ في سانتافي، ولكي يُعيد إليّ الأمتعة التي تركتُها فيه. في الكيس الكبير، وجدتُ الملابس التي اشتريتُها لماينسي، مختلطةً مع أزيائي المسرحيّة.

في اليوم التالي، سلّمتْني سيرينا قصاصةَ ورقٍ:

– وجدتُ هذه الورقة في جيب سترتكَ.

كانت القصيدة التي كتبتْها ماينسي من أجلي: «دون فويغو». أصابني ذلك في الصميم، كما لو أنَّني طُعِنتُ مرّة أخرى. كادت ندوبُ جراحي تنفتح من جديد، وزعقَت في ذهني عاصفةٌ من الأنوار والظلُمات. ظنَّت سيرينا أنَّني أتعرَّض لذبحةٍ قلبية. على الفور، حضر طبيب الطوارئ، وحَقنَني بمهدِّئ. طوال الليل، تعاقبَ أبناء أختي على السهر قرب سريري.

في الأيّام اللاحقة، لم أعد أطيق البقاء وحيدًا في الغرفة. كنت، كبهلوانٍ محموم فوق فوهة بركان، أنتظر انقضاء الليل لكي أفتح النافذة. ما إن يبزغ الفجر حتّى أخرج إلى حيث تقودُني مخاوفي. كان صخب الشوارع يُفاقم صداعي. لئن كنت أذرع الأرصفةَ ذهابًا وإيابًا، فما كان عليَّ إلّا أن أرفعِ رأسي لأعي أنَّني أراوح مكاني. مساءً، عندما يغمر الظلام كلّ ما حولي، أعود إلى البيت وأنزوي في غرفتي، وقد غارت رقبتي بين كتفَيَّ كأنَّما السقف سيهبط على رأسي في أيَّة لحظة. أحبس أنفاسي، لا آتي بحركة، وأنتظر، أنتظر، أنتظر...، دون أن أعرف ماذا أنتظر بالضبط، واثقًا من أنَّ «الشيء» الذى يفلَت منى، حتّى ولو جاءني ووقف قبالتي، فلن أتعرَّف عليه قَطّ.

عند الصباح، أنهض والخوف يملأ أحشائي. أُلقي نظرة من النافذة، فأرى مِحَنَ الأمس ما زالت اليوم هي هي، تقف منتصبةً على قوائمها كالغول. عليَّ أن أرحل، أن أتّخذ عناء المجازفة، لكي أثبتَ لنفسي أنَّني ما زلتُ قادرًا على صفق الباب ورائي. في الخارج، تتحدّاني المحن وتستفزّني المآسى، فهى تعرف كلّ دروبى، وأنا أعرف كلّ أحابيلها. خيْرٌ لي أن أتوه إلى الأبد من أن أبقى دقيقةً واحدةً إضافيّة في غرفتي. لكن، إلى أين أذهب وخيالُ ماينسي يلاحقني، ورائحة الدم تعود لتلوِّث كياني، ورهبة تلك الليلة حيث تحوَّل الحلم إلى كابوس، تقضّ مضجعي؟ لا مأوى لِمَن يهرب من صوت خطاه.

كرَّت سبحة الشهور، شهرًا بعد شهر، من دون أن أجد ما يهدّئ رَوْعي. كنت أشعر بأنّني روحٌ شرّيرة مدجَّنة وأحيانًا أتمنَّى لو متُّ. شوارع كازا بلانكا الشاحبة، والناس الذين ينظرون بعضهم إلى بعض من دون أن يرى أحدُهم الآخر، والمستنقع الآسن الذي تتحلَّل فيه هافانا كَمَن يحاول تذويب جثّة مشبوهة في حوضٍ من الحمض. كلّ شيء يقرفني، يفكِّكني، يُحيلني إلى عدَم. لم أعُد أعرف ما أحفظ، وما

أتجاهل. أعترف بأنَّني نجوت بأعجوبة، إلّا أنَّ الانهيار الذي جرفني في ما بعد، أعاد المعجزة إلى مستوى الهموم العادية. أطوفُ في عالَم آخر. غَدَتْ هافانا مقبرتي، وأنا، شبحًا هائمًا يبحث عبثًا عن ضريحه. كلّ القبور مشغولة، وأمّا قبري فمفقود.

– إنسَها.

بهذا الأمر الصريح، خرق بانشيتو صمتًا طويلًا خيَّم علينا ذات مساء.

– وماذا يبقى لي إن نسيتها؟

– عائلتُك وأصدقاؤك وأغنياتك.

– كلّ ذلك لا يملأ الخواء في نفسي.

– لم تجلب لك إلّا المتاعب والمصائب.

– متاعبها هذه هي بالضبط ما أحتاجه.

نفخ بانشيتو خدّيه، ثمَّ قال:

– أرثي لحالِكَ يا عزيزي. لا تستطيع أن تتصوّر كم أرثي لحالك.

– أرجوك بانشيتو، إنّني منهك.

– نعم لكنّك لستَ ميتًا.

– وما أدراك؟

– كُفَّ عن لعب دور الضحية. تلك الفتاة الانتهازية لم تُخلق من أجلك، ولا هي تناسبك. هي عبارة عن جسدٍ فتّان مثير، تعشق رؤية المغفَّلين يتعذَّبون ويتعاركون من أجلها.

– لم تكن معي حين تعرَّضتُ للاعتداء.

– هذا طبيعي. ولئن كان الأمر كذلك، فلا بدّ أنَّها كلّفَتْ المعتدي بأن يخلِّصها منك، قبل أن تهرب معه.

– كانت ماينسي سعيدةً معي.

– بلا مزاح.

– أنتَ تحديدًا لا يمكنكَ أن تفهم ما أقول.

– ولماذا؟

– لأنّك تخلّيتَ عن كلّ شيء.

– أليس لديك ما تقوله غير هذه العبارة «تخلّيتَ عن كلّ شيء»؟ قالها وهو يقلّدني بتهكُّم.

– جِدْ لكَ ذريعةً أخرى تراوغ بها. ثمَّ، ما أدراك أنتَ الذي تبحث عن ذاتك في كلّ مكان وتفوّتها كلّ مرّة؟ لئن كنتُ تخلّيتُ عن كلّ شيء، فلأنّني لا أريد أن أكون رهينة ما يتجاوزني. ولئن تخلّيْتُ عن الله، فلكي أعيش حياتي لنفسي. أنا مرتاح، كما أنا. لا أبكي أحدًا، لا قصص الحُبّ المستحيلة، ولا الأحزان التي تصاحبها. أيّ شخص مثاليّ قد يبذل حياته على الفور ليلمس ولو بطرف إصبعه جزءًا بسيطًا ممّا عشتُه في حياتي. حين كنتُ أحلِّق عاليًا بين النجوم، كدتُ أنسى كيف أمشي بين الناس. لهذا السبب، عدتُ وهبطتُ إلى أرض الواقع. عُدْ إلى الواقع، ضَعْ قدمَيْكَ على الأرض وامشِ بين الناس. هكذا، على الأقل...

– على الأقلّ ماذا؟.. حتّى لو أثبتَّ لي بمنطق 1 + 1 يساوي 2 بأنّني على خطأ، فلن أُغيّر رأيي. أنا عاشق! هل ما زال للحبّ والعشق معنى لديك؟

– وأنتَ، هلّا قلت لي ماذا تفعل تلك الساقطة في هذه اللحظة؟

– إنّي واثق من أنَّها انتظرتني في البيت. ولمّا لم يَرِدْها أيَّ خبرٍ منّي، فلا بدَّ اعتقدَتْ أنَّني هجرتها، فرحلَتْ... ثمّ... لا يحقّ لكَ أن تنعتها بالساقطة؛ أنتَ لا تعرفها.

أصرَّ بانشيتو:

– إنّها عاهرة. فاتنة تمتصُّ الدم كالعلَقة.

آلمتني كثيرًا تكشيرته المليئة بالاحتقار.

– إن كانت هذه طريقتكَ في طردي من بيتك، فهناك أبسط منها. كانت ماينسي تحبّني، ولم تكن تخادعني قَط.

وعيت أنّني أكذب، ومع ذلك، إذا كان هناك من شيء أتحمّس له روحًا وجسدًا، فهو تلك الكذبة.

في النهاية، بعدما صرتُ أصحو ليلًا وأنام نهارًا، قرّرتُ أن أفعل المحظور، وأن أبدأ بالبحث عن ماينسي.

أخبرتُ سيرينا بأنَّني سأتغيَّب بضعة أيام. سألتني ما إذا كان خافيير أزعجني في شيء. طمأنتُها شارحًا أنّ إحدى الفرق الموسيقية في سانتا كلارا تطلب مغنّيًا. لم تصدّق قولي ولو لثانية، لكنّها وافقت ورجَتني أن أتّصل بها لئلّا يستبدّ بها القلق.

وضعتُ بعض أمتعتي في جعبة، وانطلقتُ إلى المحطّة. توقّف القطار عن مساره مرارًا وتكرارًا، بسبب أعطاله الكثيرة. كنتُ مرغمًا على إكمال دربي بالباص حتّى ترينيداد، حيث توقَّفتُ بعض الوقت لكي أزور قبر والدَيّ.

حارس المقبرة عجوز طيّب، باهت النظرات، تبدو عليه علامات الجوع العتيق. لازمني كظلّي ما إن اجتزتُ باب المقبرة. لم يكن حذِرًا، لكن فضوليًّا حتّى الإزعاج. التفتُّ إليه مراتٍ عدّة لأستأذنه بالانصراف، فكان يكتفي بابتسامة لطيفة مُبعِدًا المسافة بيننا بضعةَ أمتار. سألني:

– من أين أنتَ؟

– من هافانا.

– لم تطأها قدمي منذ عشرين عامًا. صحيح أنَّهم سيرمِّمون الكابيتول؟

– على ما يبدو.

وقفتُ أمام قبرَيْ والـدَيّ، ووقف هو إلى جانبي، شابكًا يديه وراء ظهره. ثمَّ هزّ رأسه بحنان، وقال:

– منذ زمن لم يأتِ أحد ليزيّن هذين القبرين بالزهور. قبل ذلك، كانت تأتي سيّدة مسنّةٌ لزيارتهما، فتقتلع ما عليهما من عشبٍ برّي، وتصلّي، ثمَّ ترحل. منذ سنوات لم تأتِ لزيارتهما... هل تعرف آل خونافا؟

– هما والداي.

بانت عليه الصدمة.

– صحيح؟

– نعم.

– أَأنتَ ابن الحورية الصهباء؟

– نعم.

دفع قبّعتَه المكوّمة فوق رأسه إلى الوراء وقال مشدوهًا:

– واووو! أنتَ ابن الحورية بشحمه ولحمه يقف الآن أمامي؟ شيء رائع يا هذا. منذ زمنٍ بعيد.. بعيد جدًا.. واووو.. آه لو كنتُ أتوقّع أن يحصل هذا..

– هل عرفتَ أمي؟

– وكيف لا؟! كلّ ترينيداد تعرفها. لقد عملتُ في الكاباريه الذي كانت تغنّي فيه في الأربعينات. ذلك الصوت الذي لا مثيل له. ويا لذلك الحُسن البديع، ذلك الجمال! وأيُّ جمال! لم يكن جمهورنا خاليًا من الفاسدين والرعاع؛ لكن، حينما تعتلي خشبة المسرح للغناء، كانت الأكمام الطويلة تنسدل احترامًا على أوشام زمرة من المساجين السابقين، في محاولة لتلطيف الطباع. حتّى أنَّ منهم مَن كان يتزيّن بربطة عنق للمناسبة، في حين ينتعل حذاءً مثقوبًا. ذاك كان الزمن الرائع. كنّا نلهو كالمجانين... الحوريّة... يا لها من امرأة

رائعة. يا الله! انا في منتهى التأثّر. دمعي ليس سخيًّا، لا أستطيع البكاء بسهولة. لكنّني أبكي في قلبي.

كنتُ أوَدُّ أن أقف صامتًا بخشوع أمام قبر فقيدَيَّ العزيزين، لكن صَعُب عليَّ إسكات الحارس. كان من الواضح أنّه يحتاج إلى مَن يكلّمه. ذكر لي الكثير والمزيد من الأسماء التي تحفظها ذاكرته الحادّة عن ظهر قلب، مِن نزلاء المقبرة الراقدين تحت ثراها، وأراني القبور التي يتمّ تكريمها كلّ يوم، والقبور التي لا يزورها أحد. روى لي بعد ذلك سيرةَ حياته، ترمّله المبكر، عزلته الرهيبة... واعترف لي أنّه يسمع في بعض الليالي أصوات بشرٍ عندما يشتدّ قصف الرعد والتماع البرق. أظنّ أنّ صمتَ القبور عطّل جزءًا من دماغه.

بدأ المطر يهطل.

إقترح عليّ الحارس أن أُمضي الليل عندَه، في الكوخ الكائن عند مدخل المقبرة. وافقتُ بكلّ سرور. لم يكن في جيبي إلّا نقود قليلة، ولم أكن أعلَم كم من الوقت سيستغرق التحقيق الذي أخوضه.

تناولنا ما يشبه وجبة طعام، ونحن نلوكُ الذكريات بكمّيات، ونعدّد على أصابعنا الخيبات المُرّة التي وسمت مسيرة حياتنا. بعدما أتينا على كلّ الطعام المتوافر وأفرغْنا زجاجة الروم، غلبَنا النعاس، فاحتضن الحارس قطةً عمياء، وتكوّمتُ أنا بملاصقة الجدار، وغفَوْنا.

عند مخرج ترينيداد، وافق أحد سائقي الشاحنات على أن يقلّني. رجل متين البنية، عريض الوجه، فيه إمارات البلادة والغباء. لم يحدّثني ولا حتّى بكلمة واحدة طوال الطريق. توقفنا ليملأ خزّان الوقود ولنتناول لقمة في أحد المقاهي. أردتُ أن أدفع ثمن سندويشه فأجابني بأنّه عندما يُسدي خِدمةً لأحد، فإنّما يفعل ذلك لوجه الله تعالى. إستلطفتُه إلى حدٍّ ما.

أنزلَني من الشاحنة عند مدخل كاماغوي. أظنُّ أنه لم يسمعني عندما شكرته. تنقّلتُ عبر استيقاف سيّارة أو شاحنة، حتّى وصلتُ إلى بايامو. مرّة، أقلّتني سيارة إسعاف من مفترق طرق، ومرّة أخرى جرّار زراعي أنهك ضلوعي على الدرب المحفَّرة المحدودبة.

إستأجرتُ غرفةً في فندق بائس رقيق الجدران، نكاد نسمع من خلالها نزيل الغرفة المجاورة وهو يبتلع لعابه. لم يغمض لي جفنٌ طَوالَ الليل. بقيت في فراشي أنتظر بزوغ الفجر، أتساءل ما إن كنتُ أعذِّب نفسي بنفسي على غير طائل.

في الصباح الباكر، استأنفت رحلتي. كان سائقو سيارات الأجرة الذين أعيتهم حالة الفقر قد رفعوا بدل النقل فباتت أجرة التاكسي باهظةً جدًّا. لم أكن أعلم أيَّ قرية من قرى الصيادين أقصد. ثمّة دزينة من القرى في الجوار، وقد زرتُ نصفها تقريبًا قبل هبوط الليل. لم يتعرَّف أحد من القرويين على ماينسي من خلال صورتها، تلك الصورة الوحيدة التي التقطتُها لها في سانتافي وهي تخرج من أمواج البحر.

أمضيْتُ الليلَ عند سائق التاكسي. تلك كانت المرّة الأولى التي يُوَفَّق فيها بزبون بدوام كامل، فكيف له أن يدَعَه يفلتُ منه؟

في اليوم التالي، بدأ اليأس يتسلّل إليّ. مساءً، شاهدتُ أنقاضًا حجرية عند رصيف الميناء، نوعًا من السور المبهم تغطّيه النباتات والأعشاب. كانت ماينسي قد حدَّثتني عن قلعة إسبانية قديمة تنعزِل فيها لتمضي الوقت في القراءة. لم يجرؤ السائق على السير في الطريق الضيّق الوعر المؤدّي إليها، بسبب عجلات سيارته القديمة الركيكة، فصعدتُ المنحدر سيْرًا على القدمين. صادفتُ فلّاحًا عند القمّة. أرَيْتُه صورة ماينسي. بحركةٍ من رأسه فهِمتُ أنَّه لا يعرفها:

– هذه الفتاة ليست من هنا. وأنتَ، لا يحقُّ لكَ أن تتجوَّل في هذه الناحية. هذه أرضٌ عسكرية، ميدان للتدريب على الرماية. قائد المنطقة لا يتساهل في هذا الأمر.

– أبحث عن قرية صيادين فيها قلعة إسبانية.

أطرقَ الفلاح مفكّرًا، ثمَّ أشار بيده إلى جهة مبهمة:

– ثمّة برج مراقبة مهدَّم، يعود إلى عصر قديم كما يبدو، ويبعد حوالى الأربعين كيلومترًا نزولًا. إنه الأثر التاريخي الوحيد في هذه الناحية، لكن لا أعلَم إن كان إسبانيًّا.

رفض السائق أن يقلّني إلى ذلك المكان. نَقَر بأصبعه على ساعة يده وقال:

– لا يجوز إزعاج الناس في هذه الساعة من الليل.

إنطلقنا في اليوم التالي قرابةَ الظهيرة، بسبب عطلٍ ميكانيكي. لم يكن السائق يملك ما يكفي لدفع أجرة صاحب الكاراج، فأضطررْتُ إلى دفعها من جيبي تيسيرًا للأمور.

كم شعرتُ بالراحة حين وصلنا إلى القرية المقصودة. عرفتها على الفور، من المعالم التي كانت ماينسي قد وصفتها لي. ثمّة ما يشبه المرفأ، وحوالى عشرين كوخًا صغيرًا نخر السوسُ خشبها، موزَّعة هنا وهناك، ودرب ترابية، ودكان صغير على جانب الطريق. هذا كلّ ما فيها. تلك هي القرية كلّها. كان بعض الصبية بسراويلهم الداخلية منهمكين باللهو في أحد مجاري المياه، وبضع كلاب هزيلة منطرحة عند جذوع الأشجار، وبعض النسوة يتحدثن على عتبات أبوابهنَّ. لا شيء غير ذلك بتاتًا. لم تبالغ ماينسي في ما قالته: في هذا المكان المنفيّ، لا نعيش بل نحتضر.

رجَوْتُ السائق أن ينتظرني عند حافة الطريق. توجّهتُ نحو الكوخ الأقرب. كانت هناك جدّةٌ تنشر بعض الملابس وقد تعلَّق

بأطراف ثوبها طفلان. عرفَتْ فتاةَ الصورة ما إن أبرزتُها. بذقنِها أشارت إلى كوخٍ حقير معزول، تظهر من خلفه آثار برج مهدَّم. رأيتُ امرأة جالسة على كرسيّ خفيض في فيء مظلّةٍ رثّة.

كانت تتكلّم عبر هاتف محمول ألصقته بأذنها، وتهزّ برأسها بين الحين والآخر وهي تمتصّ سيجارًا. كانت عسليّة البشرة وعمرُها يناهز الخمسين، تميل إلى البدانة وتُخفي شعرها تحت منديل.

أقفلت الهاتف، وضعته في حضنها، ونظرتْ إليّ قائلةً:

– أنتَ من رجال الشرطة؟

أدركتُ أنَّ محدِّثها عبر الهاتف قد نبّهها إلى قدومي.

– ليس بالضرورة.

– هل أنتَ من الاستخبارات؟

– لم آتِ إلى هنا لإزعاجك يا سيّدتي.

– يكفيني ما لقيتُ من الهموم. ماذا تريد؟

– أبحث عن ماينسي.

إبتسمت السيدة ابتسامة مقتضَبَة.

– كانت تسمّي نفسها ماينسي؟

– أليس هذا اسمها الحقيقيّ؟

– ليس من شيء حقيقيّ أبدًا عند هذه الفتاة.

– هل تسكن هنا؟

نظرت إليّ نظرة باردةً وقالت:

– إستعنْتُ بكاهن ليساعدني على طرد روحها من بيتي.

– وما القرابة التي تجمعكِ بها؟

– أنا المرأة التي كان عليها أن تخنقها بين فخذَيْها عندما ولدَتْها.

فجأةً، ساورني شكّ. تلك السيدة التي دلّتني على هذا الكوخ، هل نظرَتْ جيدًا في الصورة؟ المرأة التي أمامي لا تملك أيَّ وجه شبه مع الشابّة التي عشقتُها.

أخرجتُ صورةَ ماينسي:

– هل نتكلَّم عن الفتاة عينها؟

– لا أظنّ. لكنَّني والدتها.

– هل عاد أخوها إلى البيت؟

– ولها أخٌ أيضًا؟

تجمّعت جمهرة صغيرة في ساحة القرية. خرج الصِّبْيةُ من الماء وراحوا ينظرون إلينا.

قالت لي السيّدة مطَمئنَة:

– نادرًا ما يأتي أحدٌ لزيارتنا في هذه القرية. كلّ غريب يمرّ يثير فضولنا الشديد. لكنّنا لسنا بأشرار. فلندخل يا حضرة التحرّي.

سبقتني في الدخول إلى بيتها ذي الجدران غير المطلية، والمبنية بالإسمنت كيفما اتّفق. السقف الخفيض ملطّخٌ بالعفَن. لمبة مكسوّة بالقذارة تتدلّى من سلكين مفتولَيْن. الغرفة ضيّقة، وفي إحدى زواياها تمثال صغير مصنوع من الطين، نسخة مشوّهة عن تمثال أزتيكي، شبه امرأة مجلّلة بغطاء رمادي، بارزة النهدين، وفمها مقرف مُخيف. قِطَع الأثاث القليلة التي تلطِّف من وحشة المكان لا بدَّ أنَّها تعود إلى عصر الغزاة الإسبان. بضع صدفات مبعثرة نثرت هنا وهناك بين البضاعة والخردة. إلى جانب التمثال، إطار يضمّ صورة رجل يبتسم بنظرة حزينة لعدسة الكاميرا. رجل وسيم جدًا، شامخ الأنف، أشقر الشَعر، تزيده زرقة عينيه رونقًا.

قالت لي المرأة وهي تشير إلى أريكةٍ مستهلَكَةٍ حتّى النوابض:

– إنّه أرماندو. وقعتُ بين ذراعيه كما تقع الثمرة الناضجة. ألا تجده ساحرًا؟

– إنّه آسر حقًا.

– جميع الفتيات في الثانوية كنَّ يتسابَقْن إليه. لكنّه اختار الفتاة التي كانت تكتفي بأن تحلم به. كنت جميلة بعض الشيء في الثامنة عشرة من عمري. بَيْدَ أنَّ الطالبات الأخريات كنَّ بيضاوات البشرة، ويعتقِدْنَ أنهنَّ أفضل وأوفر حظًا مني، أنا ذريّة عبدٍ سابق.

– أَهُو والد ماينسي؟

– كانديلا. اسمها كانديلا. هو والدها... أتريد القهوة؟

– كلّا، شكرًا. أريد فقط أن أعرف أين هي.

– لم تسبِّب لنا إلّا المتاعب، ولم تجلب لنا إلّا الهموم.

راحت المرأة تتابع حلقةً من الدخان تطفو في فضاء الغرفة ثمَّ تتّسع.

– أشعر بسلام الآن، بعدما رحلَتْ من هنا.

تقلّص فمها إذ أردفت بصوت ضجر، وهي تدير سيجارها بين أصابعها:

– صحيح، أُفسدت حياتي بالكامل. لكنَّني لم أعُدْ ألوم نفسي. كانت كانديلا فتاةً مشاكسة. لم تكن ترى أحدًا في الدنيا غير والدها. كانا يتحابّان حتّى العشق. أمّا عاقبة ذلك فأتت وخيمة.

توقفتْ قليلًا، ثمّ استأنفتْ:

– لا يعني ذلك أنّني كنتُ أغار، بل كان يقضّ مضجعي ألّا أكون موجودة هنا إلّا لتحضير طعامهما وغسل ملابسهما. أن يدرِكا أنّني أيضًا فرد من العائلة، لم يكن ليكلِّفهما الكثير، لا؟

لعلّها أحسَّت ببعض الإحراج بسبب عبارتها الأخيرة، فلِزمَت الصمت هنَيْهَةً طويلةً. ثمَّ فركَتْ عقْبَيْها الواحد بالآخر لتنزع خُفَّيْها،

فبانت تشقّقات عدّة في أخمص قدميها. إنحنَتْ لتحكّ ربلةَ ساقها ثمَّ استوَتْ ونظرَتْ إليّ نظرةً فاحصة. بَدَتْ وكأنّها تتساءل إن كان عليها أن تكشف لي السرّ أم تكتفي بالردّ على أسئلتي من دون أن تستفيض في الإجابات. غير أنَّ النار المتّقدة في داخلها رجّحت الكفّة، غالبةً تحفّظها. نفضت رماد سيجارها، نخرت طويلًا، وقرّرتْ أن تفصح عن كلّ شيء:

– بعد المدرسة، كانت كانديلا تأتي مباشرةً إلى المرفأ تنتظر عودة الصيادين. كانت ترافق والدها إلى بيت الجابي الحكومي، لتسليمه حصيلة صيد اليوم. أحيانًا، كانا يعودان في ساعة متأخرة من الليل. كنتُ أسمعُ ضحكاتهما تشقّ عتمة الليل من مسافات بعيدة... إيّاك والظنّ أنّني لم أكُن سعيدة. كان أرماندو يحبّني، ولم يكفّ عن احترامي ولو مرّة واحدة. غير أنّ كانديلا استولت عليه، احتكرته لها وحدها، ولم تترك للآخرين ولو جزءًا صغيرًا منه. لم يكن لأيّ إنسان، ما عدا والدها، أيّ معنى في نظرها. نادرًا ما كانت تشعر بوجودي، أنا أمّها. لم يكن ذلك أمرًا طبيعيًّا. الكثير من الحبّ يقتل. كنتُ أخشى ما أخشاه. وقد حصل بالفعل... كانت في الرابعة عشرة من عمرها عندما وقعت المصيبة، فكانت تلك نهاية العالم في نظرها.

– المصيبة؟

نفثَتْ دخانَ سيجارها في اتجاه سقف الغرفة، غابت في أفكارها، ثمَّ عادت إليَّ من جديد:

– غرق مركب أرماندو في عرض البحر. وجدنا الحطام بعد ثلاثة أيّام. عثرنا على جثمان ميغيل، معاون أرماندو، على بعد عشرين كيلومترًا من هنا. ولم نعثر على أثر لأرماندو. جُنَّتْ كانديلا. إنقطعتْ عن الذهاب إلى المدرسة، وصارت تُمضي أيامها تترقّب عودة والدها. أحيانًا كانت تلقي بنفسها في البحر. ذات مرّة جاؤوا بها على حمّالة.

لم تعد تريد أن تسمع أو تعرف شيئًا. كانت تظنّ أنَّ والدها ما زال حيًّا ويعيش في إحدى الجزُر. جعلَتْ حياتي جحيمًا، حتّى أنّني صرتُ أتمنّى موتها، أو موتي. كانت تُلقي عليَّ مسؤولية غرَقِ والدها. كانت حاقدةً عليّ حقدًا لا يمكن تصوّره.

– لماذا؟

– عشيّة وقوع المأساة، حصلَتْ مشادّة بيني وبين أرماندو. لم تكن لأسباب هامّة. كلّ ما في الأمر أنّنا كنّا نجهد ونكدّ لتأمين لقمة العيش. أمّا أرماندو فكان يسلّم كامل غلّة صيده للدولة، فلا يدخّر ولا حتّى سمكة واحدة. كنتُ أغضب منه لأنّه لا يحذو حذو باقي الصيادين الذين يضعون جانبًا كميةً من صيدهم ليبيعوها في السوق السوداء، فيسدّون بعض احتياجاتهم اليومية. ما العيبُ في أن نحصِّل بعض المال؟

– لا عيْبَ أبدًا.

– لا يمكن أن يُختصَر العيش بأكل الأرزّ واللحم المقدَّد.

– لا يمكن لأيّ شيء أن يختصر الحياة.

– لم أكن أطلب المستحيل. لكنَّ أرماندو كان يرى في ذلك أمرًا مُعيبًا. كان إنسانًا نزيهًا، حتّى أنّه لم يكن يشعر بالبؤس الذي نعيشه. في الواقع، غضبتُ بعض الشيء في ذلك اليوم، وسرعان ما انحازَتْ كانديلا إلى والدها... غداةَ وقوع الكارثة، ووصول الخبَر إلى القرية، قالتْ لي كانديلا بأنّه في حال لم يعُد والدها، ستظلّ تلعنني حتّى آخر يوم في حياتها. بالفعل، هذا ما حصل. لم يمرّ يوم واحد من دون أن تنعتني بالدجّالة والغشاشة والمشعوذة. حتّى أنّها أخبرت رجال الشرطة بالمشادة التي وقعت بيني وبين أرماندو عشيّة المأساة، وبكلّ كلمة قلتها يومذاك...

زمَّت شفتَها كي تكبُتَ شهقة بكاء. تهدَّج صوتُها وهي تقول:

– لستُ موهوبةً في صيد السمك، ولا عمل لي هنا. كنتُ بحاجةٍ إلى زوج. عندما تقدَّم بابليتو بطلب يدي، وافقتُ على الفور. لكنَّ كانديلا رأت في عملي هذا رجسًا من أقبح المحرّمات، بل جريمةً تُضاف إلى سجلّي الحافل. هَرَبت من البيت احتجاجًا على هذه «الإهانة» التي ألحقتُها بأبيها. عثرت عليها الشرطة في حالة هستيريّة استوجبت نقلها إلى مصحّ للأمراض العقليّة، ما جعلها أكثر غضبًا وجنونًا. كانت تكره العالم بأجمعه. فعل زوجي الثاني كلّ ما في وسعه ليكسب ثقتها، ولكن عبثًا. ثمّة فكرة واحدة راسخة في رأس كانديلا: أن تدمِّر حياتي.

إنتبهَتْ إلى انطفاء سيجارها، فوضعته في منفضة مليئة بالرماد، كما لو أنّها جرّة جنائزيّة. وضعت إصبعها على فمها، وغابت في أفكارها من جديد. في الغرفة الصغيرة، لم أعد أسمع سوى طنين الهوامِ تدخل وتخرج من النافذة المفتوحة على مصراعَيْها.

فجأةً استفاقت السيدة من غيبوبتها، وقد فاضت عيناها بالدموع.

– نفّذَتْ كلامها مرّة أخرى. فبدّدت البقية الباقية من حياتي. في ميلادي الثامن والأربعين، خصّتني بهديّة لا تخطر حتّى في بال شيطان. كنتُ منهمكة بتحضير قالب حلوى الأمسية، عندما حضرت الشرطة لاعتقال بابليتو. لقد اتّهمتْهُ كانديلا بأنّه اغتصبها مِرارًا. لم يكن بابليتو ليجرؤ على مسّ أي امرأة سواي. إنّه ظريف ولطيف، دمث الأخلاق، صيّاد متفانٍ في عمله، وزوج متواضع وعاطفي. لم يصدِّق أحد من أبناء القرية حكاية الاغتصاب هذه، إلّا أنَّ الشرطة رفضت الرجوع عن قرارها. كانديلا كاذبة، كذئب في ثوب حمل. حتّى أمكر الماكرين لا يصل إلى نصف مستواها. ما زال بابليتو يقبع في السجن منذ سنتين. أخبرني بأنّه لن يستطيع الصمود طويلًا. في المرّة الأخيرة

التي زِرته، وجدته ناحلًا، جلدًا على عظم؛ بدأ شعره يتساقط، وكذلك أسنانه.

وضعَتْ وجهَها بين كفّيْها وأجهشت بالبكاء.

لم أجد شيئًا أقوله لها لمواساتها. هزّتني الحكاية التي روتها لي، لكنّني رفضت تصديقها. أعتقد أنّ ماينسي ليست كانديلا. هما شخصيّتان متناقضتان بالكامل. الأولى أحببتها وعشقتها؛ والثانية أرفض حتّى التعرُّفَ إليها.

– أين هي الآن؟

– ماتت.

إخترقتني هذه العبارة من جهة إلى أخرى كالحربة.

– إستشرتُ ثلاثة كهنة. شاهدوا هم الثلاثة الرؤيا عينها: كانديلا ماتت غرقًا. الكهنة لا يُخطئون. حتّى عرّافتي الخاصّة أكّدت لي الخبر: كانديلا ماتت غرقًا. على أية حال، تلك هي النهاية التي كانت تتمنّاها: أن تموت غرقًا كوالدها.

نهضَتْ، تناولَتْ سيجارَها وأشعلتْهُ من جديد.

– لا أكنّ لك المودّة حضرة الشرطي. عدالتُكَ جارَتْ على بريء.

– أنا متأسِّف يا سيّدتي.

– هذا لا يخفِّف شيئًا من الكارثة.

– تلك هي شريعة الإنسان. إذا خَذَلَنا البشر أمثالنا، فلنلْجأ إلى الله.

– ليس لهذه الجزيرة ربٌّ يحميها، يا سيّدى الشرطى.

أمام هذا الطوفان من الحزن والأسى، أيّة مؤاساة مهما عَظُمَ شأنها كانت لتبدو مجرّد قشّة هشّة.

– هل يمكن لي أن أُلقي نظرة على غرفة ابنتِكِ؟

– ومـن يمنعك عـن ذلـك؟ أليست الـدولـة صاحبة السلطة المطلقة؟

قادتْني نحو غرفة صغيرة فيها سرير وبجواره طاولة فورميكا صغيرة. لا شيء آخر سوى قطعتَيْ الأثاث هاتين. زجاج النافذة فقد شفافيّته تحت طبقة سميكة من الطلاء الأبيض. بقايا أشرطة لاصقة وثقوب خلّفتها مسامير صغيرة تـروي قصّة الملصقات التي غطَّت الجدران يومًا، وقد تلاشت تمامًا اليوم. أحسسْتُ بالحزن السوداوي الذي يلفّ الحجرة. خواؤها يُحزِن القلبَ قبل الفكر. لعلَّ سحرًا أسود استولى على روحها. على الجدار الـذي تستند إليه الطاولة، كُتِبَ بخطٍّ عريض:

أعمتنا قروحنا وحروقنا
فأعلنّا أنفسنا نورًا ونارًا
فى حين أنّنا نحترق حرقًا
في أتون أيْماننا.
(مانويل ب. هارفاس)

قالت الأم:

– هذا الشاعر الشيطانيّ أفسد عقلَها. هو الذي يجب أن يُلْقى به في السجن، وليس بابليتو.

أرَتني الغرفة لكي أشهد معها:

– أغرفةٌ هذه، أم زنزانة؟

لم أُجِبْ.

أضافَتْ:

– لقد أخذت معها القليل القليل الذي تملكه: بعض الكتب، دفتر مذكّراتها، وصورة والدها.

غادرتُ القرية كطيفٍ حيّ.

25

مضت أربع سنوات.

غَدَت ابنتي إيزابيل شابّة رائعة الحُسْن والجمال. لها صديق ودود ورقيق، كأنّه وبر الفرو. يأتيان لزيارتي يوم الأحد وفي أيام العطلة. لا تريد إيزابيل متابعة دراستها الجامعية، معلّلةً ذلك بأنّ الشهادات غير نافعة إن كانت ستأتي براتبٍ أدنى من راتب البائع المتجوِّل. تبخَّر أيضًا حلمُها بأن تصبح مضيفة طيران. وهي تريد الآن أن تتزوَّج وأن تقيم مع أهل زوجها في ميامي.

أمّا ابني ريكاردو فقد هجر جماعته. تعقَّل وتحوَّل إلى طاهٍ في أحد المطاعم الشهيرة في المدينة. لقد تصالحنا هو وأنا.

ما زلتُ أعيش في منزل أختي سيرينا. زوجها خافيير أسلمَ الروح السنة الماضية؛ دخل في قيلولة بعد الغداء ولم يفِق منها أبدًا. شارك في جنازته عددٌ كبير من قدامى رفاقه في السلاح. دفنَّاه في مسقط رأسه، قرية صغيرة قريبة من فارادیرو، فكان ذلك وفقًا لرغبته، ومعه أوسمته ونياشينه، وكذلك ساقه الاصطناعية. إثنان من أبناء أختي انخرطا في الجيش. أمّا غارسيا فيُقيم عند مومس تفوقه سنًّا بعشرين عامًا. لقد صار سكّيرًا، وبدأ يواجه المشاكل مع الشرطة.

غالب ظنّي أنَّ موت والده أثّر فيه تأثيرًا عميقًا. تزوّجت شوس من صهر مندوب كازا بلانكا، وهي تُقيم الآن على بُعدِ خطوات من منزل أمّها وتنتظر مولودًا. زوجها شاب طيّب، يعمل كوكيل أعمال، أو شيء من هذا القَبيل. بيلار وزوجها وطفلُهما يتمتّعون الآن بغرفة مستقلة في الطابق الأرضي. أمّا أنا فأشغل مع إبني غرفة الطابق العلوي. لقد عادت لورد إلى منزلها في وادي إسكمبراي.

رجعت الحياة تدبُّ في الأشخاص والأشياء. الولادات تعوّض الوفيّات. عائلات تنمو وتتَّسع، وأخرى تذوي وتنطفئ. لكنَّ كازا بلانكا تبقى هي هي؛ مع صياح أطفالها ولهوهم الصاخب قبل الظهر، وطقوس قيلولاتها الميسِّرة للهضم بعد الظهر.

أمّا أنا فقد واصلت البحث عن أداء أدوار ثانوية. بطبيعة الحال، لم أعُدْ أُلهِب حماسَ الجمهور كما كنتُ أفعل سابقًا، ومع ذلك، ما زلتُ أحظى أحيانًا بتحيّةٍ يلقيها عليَّ سائح أو إثنان مصادفةً، وأنا أجوب شوارع هافانا القديمة. أعترف بأنَّ الأمور تبدّلَتْ. عندما أعتلي خشبة المسرح، لا أشعر بأنّني أمام جمهور مأخوذ بغنائي، وإنَّما بالأحرى أمام هيئة قضاة. أُصِبت برهبة الجماهير، بدوار الفشل المخيف، يستفزّني عند مخرج الكواليس. أحيانًا يخونني صوتي ويشذّ، فأحاكي حدود الكارثة. ماينسي خلّفت دمغات لا شفاء منها. مع أنَّ طيفها لم يعُد يلاحقني كما في السابق، فهو لا يبتعد يومًا، بل يختبئ خلف ذكرى أو مشهد ما.

أُفضِّل القول، وأنا في الرابعة والستّين من عمري، بأنَّ هذا العمر المتقدِّم هو ما يجعلني هشًّا واهنًا وسط حماس الحفل، أنا الذي كنتُ أُشعِلُ النار في غرفةٍ من جليد.

لقد تبنّى صديقي بانشيتو جَرْوًا أسماه أماديوس. أنا أهديته إيّاه بمناسبة عيد ميلاده. قدَّر بانشيتو هذه البادرة، لكنَّه حصَرَها

في الشكل لا في المضمون. أكَّد أنَّه بات عجوزًا لدرجة لا تسمح له بتربية أيٍّ كان. لكنَّه أقرَّ في الوقت نفسه بأنَّ مكافحة العزلة تستلزم بعض التضحيات. على الفور، نفض الحيوان الصغير كلَّ خوف، وصار يتصرَّف بلا تحفُّظ. أماديوس نفحة من النشاط والحيوية. بل هو خزّان طافح بالحياة. يهوى لحسَ وجه سيّده، والجلوس على ركبتيه. في الليل، يلتفُّ على نفسه كالكعكة، قِبالةَ سيّده، وينام. ولكي يُثبِت أنّه الحارس الأمين، على الرغم من صِغَر سنّه، ينبح بحماسٍ شديد، مكشِّرًا عن أنيابه كلّما عبر أحد الغرباء من أمام البوابة.

ذات يوم إثنين، بينما كنتُ أتنزَّه في المساء في ساحة خوسيه مارتي، توقّفت عرَبَة أمامي فجأةً. صاح بي سائقُها الضخم وحليقُ الرأس:

– منذ أسابيع وأنا أبحث عنك ولم أُوَفَّق في الاتصال بك.

إنَّه مانولو، عازف السكسيّة الذي لا يُضاهى، وقد تعرّفتُ إليه في الأيّام الخوالي. عزف لأشهر نجوم الغناء في كوبا، قبل أن يُعتَقَل ويُسجَن بسبب اعتدائه بالضرب على أحد رجال الشرطة وهو يقوم بواجبه الأمني وذلك منذ حوالى خمس عشرة سنة. لم ألتقِ به منّاك.

– ذهبتُ إلى ريغلا مراتٍ عدّة، وسألتُ عنك.

– لم أعُدْ أُقيم هناك.

– هل لَكَ أن ترافقني في السيارة؟ لديَّ ما أقوله لك.

قادني إلى مقهى يعجُّ بقدامى العسكريين، مسترخين أمام كؤوسهم الفارغة، سيماء البلادة على وجوههم، وفي عيونهم التي تلاحق مؤخّرات الخادمات ذهابًا وإيابًا، حسرة شبيهة باستفاقة حلم قديم مضى وانقضى.

– هل تعرف فرقة الـ«إنسرجنتس»؟

– طبعًا.

– نعم، أنا أحد أعضائها. وهي اليوم بقيادة باكو الذي بات نجمًا مرموقًا. نجح في انتزاع عقدٍ أبرمه مع الدولة التي وضعت في تصرُّفنا باصًا لينقلنا إلى القرى النائية كي نُحْيي فيها حفلات الأعياد. علاوةً على أنّنا نتقاضى أجورًا رفيعةً، لنا ملء الحرية في إحياء الحفلات أينما كان. لدينا التراخيص اللازمة، والقسائم للتزوُّد بالوقود، ونفقات التنقّل مدفوعة مئة في المئة.

– وما علاقتي أنا بذلك؟

– لهذا السبب أبحث عنك. لقد غيَّبَ الموت مغنّي الفرقة. فكّرتُ بأن تحلَّ مكانه.

– وهل الأعضاء الآخرون موافقون؟

– رقصوا من الفرح، حينما ذكرتُ لهم اسمَك.

هكذا التحقت بفرقة إنسرجنتس.

سرعانَ ما أعجبتني هذه الفرقة. وجدتُ فيها أشخاصًا من معارفي. أجواؤها مَرِحة، تلائم مزاجي إلى حدٍّ بعيد. زوَّدتنا الدولة بقاعة نُجرى فيها تمارين الأداء ونحسِّن ونتقن لمساتنا الأخيرة. كنّا نبقى فيها حتّى ساعات متأخِّرة من الليل، من دون أن يعترضنا أحد.

كنّا ستّة عازفين، ثلاث راقصات وأنا. أمّا قيادة الباص، وهو باص مدرسيّ أميركيّ الطراز، فأوكلت إلى دينامو، سائق شاحنات متقاعد.

كنت أعرف معظم عازفي الفرقة لشهرتهم الواسعة. إلى جانب مانولو، تلك الموهبة الفذّة التي جادت بها الطبيعة، والمولودة من جبروت جوبيتير نفسه، هناك فافا، وهو في سنّي، بدين ويميل بعض الشيء إلى الثمل، ثمّ أدريان عميد الفرقة، الأشيَب والحكيم كزعيم هندي. هناك أيضًا هيكتور، من قدامى روّاد الـ«بوينا فيستا»، وتشوشو الذي كان يقود، في ما مضى، فرقة النفير العسكرية، وإيفلان

الأصغر سنًّا بين أعضاء الفرقة، والبالغ الأربعين من العمر، صوته جهوريٌّ كقصف الرعد. أمّا الراقصات، ومتوسّط عمرهنّ ثلاثون سنة، فأجسادهنَّ رائعة الحسن والتكوين، لئن رآهنَّ الأسقف لعاف الديانة. ليزا وبيليندا ونوريا، وجميعهنَّ من صاحبات الشهادات الجامعيّة.

باكو هو مدير أعمال الفرقة.

أوّل حفلة رافقتُ فيها فرقة إنسرجنتس حَظِيَت بنجاح فائق. عشرة أيام قضيناها في تلقين قرى سييغو دي أفيلا النائية أصول الملذّات والأفراح، وعشرة أيام في التأرجح والضحك حتّى الثمالة على وقع أخاديد الطرقات القروية. كان الباص أشبه بسفينة نوح محمّلَةً بكل أصناف النكات والنوادر المفرِحة. كانت النكات الفاحشة تحمَرّ لها خدود الراقصات خجلًا؛ وعلى الرغم من تحفّظهنّ الزائف، كنَّ يتلهَّفن لسماع المزيد منها. كانت بيليندا، السوداء ذات المزاج المُفعَم بالحيوية والنشاط، تعرف جيّدًا كيف تستثير تشوشو كي يُخرِج لنا نوادره الشهيّة حول المغامرات الجنسية عند الطغمة العسكرية، ومواخير البغاء في الحملات، وكلّ المجنّدين الجدد الذين فقدوا براءتهم وفقدوا كذلك حياءهم. أمّا فافا فيروي مئات الحكايات وضروب الإيقاع بالنسوة، مضيفًا كلّ مرّة تفاصيل مثيرة لاذعة. حين يبدأ بقصّ حكاياته، وهو يمسِّد شاربيْه، لا تقوى ملكة إنكلترا حتّى على مقاومة سحره. أمّا ملك الكلام المعسول والمنمّق فهو، بلا منازع، إيفلان، أصغرنا سنًّا. يحوّل تخيّلاته ونزواته الحالمة إلى مآثر وبطولات فعليّة. في كلّ مرّة يُبدي أحدُنا أدنى شكٍّ في ما يقول، ينعته بالعجوز البالي. يصرخ لنا: «طبعًا لا نستطيع أن نطلق العنان لقدمنا حين تكون الأخرى في القبر»، فيردّ مانولو: «ربما تكون قدمنا في القبر، لكن، تبقى لنا أخرى نرفسك بها على مؤخِّرتك». هكذا كانت تطغى قهقهاتنا على ضوضاء الباص وهدير محرّكه.

في كوبا، نادرًا ما تُفرَش السجادة الحمراء، لكنّ باقة الزهور دومًا على الموعد. كانت فرقتنا تُستقبَل في كلّ مكان بالحفاوة والترحاب وكأنّها وفدٌ رسمي. أمّا باكو فلا ينسى أن يردّد، كلّما توقّفنا للاستراحة: «الدولة لا تنساكم. بل تحمل إليكم فرحة العيد إلى داخل بيوتكم». بطبيعة الحال، تثمِّن السلطات المحلية البادرة التي يقوم بها حكّامنا، وتجاهر بها أمامَ رعاياها. لا تنعم قرى الأرياف ببحبوحة المدن الكبرى. بعض الأماكن خالية من الفنادق، وحتّى من شبه مطاعم حيث يستطيع المرء تناول وجبة كافية. لكنّ مضيفينا يفتحون قلوبهم لنا كرَمًا وضيافةً. كنّا ننام في الأبنية المدرسية، ونأكل في مقاصفها. في المساء، نبني منصّات على عجل من ألواحٍ نجدها كيفما اتفق، في الساحة أو في أرض مهجورة، ونستعين بمولّد كهربائي ومصابيح نستعيرها من ورشات بناء أو من مؤسسات، لنجعل الفلّاحين يغنّون ويرقصون حتّى الفجر.

كنّا نعود إلى هافانا منهَكين، لكن متشوّقين للانطلاق من جديد. خلال عشرة أشهُر، أقمنا أكثر من عشرين حفلة غنائية في قرى ومزارع الأرياف الممتدة من مقاطعة سيينفويغوس إلى لاس توناس مرورًا بنويفيتاس وسانكتي سبيريتوس. عشقتُ الرحلات والقرى وأهلها والنوادر الفكاهية في الباص، كما في غرف النوم المشتركة حيث كنّا نخضع لنظام إطفاء الأضواء. إستعدتُ بخاصة علاقتي بالموسيقى التي أُحبُّها، مُحاطًا بمبدعين في أواخر سنوات عمرهم وإنّما ليس في أواخر عطائهم. كان يمكن لهذه الجولات الشبيهة بالبعثات أن تقضي على أي شخص في سنّنا، أمّا نحن فنخرج منها بشباب متجدّد وبفرح لا يوصف، إذ نساهم في ما يجدِّد قوانا وحماسنا، فليس هناك أشرف من عملٍ يزرع البهجة في نفوس الناس، ويُنبِتُ سعادةً في أمكنة البؤس. أسمى امتياز يمكن أن تُكافأ به، هو

أن ترى الفلّاحين، هؤلاء الذين تجاهلتهم الآلهة، يعيدون اكتشاف مسرّات العيد في غضون ليلة واحدة. لا يحتاج الفقراء إلى ولّاعات يُضيئونها لمواكبة إيقاع ألحاننا، فعيونهم المتلألئة بالفرح تكفي لكي تُضيء السماء كاملة.

ذات مساء من شهر مارس بينما كان العازفون يوضّبون آلاتهم الموسيقية، شرَعَ فافا يبتكر لحنًا جديدًا على قيثارته. هذا اللحن أدهشنا وأثار إعجابنا. سأله باكو:

– لمَن هذا اللحن؟

ببساطة تامّة، أجاب فافا:

– لي.

– واووو!.. لا بدَّ من وضع كلمات ترافقه. هل لَك أن تكرّره؟ إنّه لحن رائع.

إستجاب فافا وعزف اللحن من جديد، بمزيد من الإتقان هذه المرّة. من دون أن أعي ماذا أفعل رُحتُ في البداية أُرافقه مردِّدًا لالالا، ثمَّ اخذت الكلمات تنطلق وحدها على إيقاع اللحن، وصدح صوتي مجلجلًا يكاد يهدم الجدران، كما لو أنَّ أيَّ قاعة في العالم لم تعُد لتتّسع له، أو تقوى حتّى على احتوائه:

حين يغنّي دون فويغو
تطمئنُّ الآلهةُ وتخلد إلى السكون
ينسدل السحر على العيون
ولا يبقى إلّا صوته والجنون

صرخ باكو:

– تطابق رائع بين اللحن والكلمات!

أعقبه مانولو:

– طبعًا، طبعًا...

كنّا مشدوهين منتَشين إذ اجترحْنا عملًا فنّيًّا جديدًا. أخرج العازفون آلاتهم من جديد، وأحاطوا بفافا. بتعديلٍ من هنا وتصحيحٍ من هناك، نجحنا في ضبط مفاصل هذه الأغنية الجديدة وإنجاز عمل فني رائع وشديد الوقع. عملنا على الأغنية الليل بطوله، حتّى الصباح. سألني باكو ما إن كان النصّ من تأليفي، فأجبتُه بأنّ أحدًا كتبه وقدّمه لي هديةً. إقترح عليَّ إدخال بعض التعديل عليه، فرفضتُ رفضًا قاطعًا. لم يمانع فافا، والفرقة كلها وافقت في النهاية على اعتماد النصّ كما هو. بعد أسبوعين من التمارين، اعتبرنا باكو جاهزين لتقديم الأغنية إلى الجمهور.

راجَتْ أغنية «دون فويغو» رواجًا منقطِع النظير، في القرى والأرياف؛ كلّما أقمنا حفلة غنائية، كان الفلّاحون يطالبون بها مرّة أخرى عند ختام العرض. شعرتُ وكأنّني في حلم.

في شهر يونيو، حمل إلينا باكو البشرى السارّة والتي أنتظرتها عشرات السنين: وافقت الإذاعة الوطنية على تسجيل أغنياتنا في إستديوهاتها. بكيتُ من شدّة فرحي.

يوم بثّ أغنية «دون فويغو» على موجات الأثير، أخطَرْتُ سيرينا وساعي البريد والجيران وأصحاب الدكاكين والمحلات والمقاهي، المندوب، والشبان والشيوخ وكلّ من أعرفه ممّن ألتقيهم في طريقي، ثمَّ هرعتُ إلى بانشيتو:

– عندي لك مفاجأة، قلتُ وأنا أنقر على جهاز الراديو الصامت صمتًا مطبقًا.

أجابني بانشيتو:

– نفدت بطاريته.

بحثتُ في كلّ كازا بلانكا عن بطاريات ذات جودة، ورجعتُ لاهثًا إلى منزل صديقي العزيز.

كان موعد بثّ الأغنية قد حُدِّد في الثالثة بعد الظهر. لم تفارق عيناي إطار ساعتي وأنا أحاول ضبط أنفاسي.

قال بانشيتو وقد نفد صبره:

– سيبشّروننا بانتخابات حرّة أو بإعلان الحرب؟

– من فضلك، اصمت واصغِ. تبقّى ربع الساعة فقط.

في الثالثة بعد الظهر، كان بثّ التحقيق عن بناء سكّة حديد جديدة لا يزال مستمرًّا، تلاه حديث مع مدير المشروع، فمصمّم المشروع، ثمَّ مموّل المشروع. كانت الدقائق تمضي وأصوات المعلّقين والمحللين تتوالى في تفاصيل لا معنى لها في الثناء على اللجنة المركزية، وكَيْلِ المديح للعمّال الذين ضحّوا وبذلوا جهودًا جبارةً – على ما يبدو – وحقّقوا معجزات في مختلف الورشات. كانت الساعة تشير إلى الرابعة بعد الظهر وما من أغنية بعد. عند الخامسة، تركني بانشيتو وشأني، وذهب في نزهة مع كلبه. إستشطُّ غضبًا، كدتُ أصاب بالسكتة القلبية. شعرتُ بتفاهتي، بطعم الخيانة والعار. في الساعة السادسة، فقدتُ الأمل نهائيًّا. عدتُ إلى المنزل، قلبي يعتصر ألمًا، وفي فمي طعم المرارة. شاهدتني سيرينا من نافذة المطبخ، وأخذت تلوِّح لي بشدّة، قبل أن تركض نحوي لتلاقيني على الطريق. كان وجهها مشرِقًا متوهّجًا لفرط الحماسة. خلفها، كانت بيلار تركض وابني ريكاردو في اتّجاهي أيضًا، وكلّهم يقولون بصوتٍ واحد:

– كانت بغاية الروعة.

– ما هي؟

– أغنيتك.

– هل بثَّوها؟

– ماذا تقول!! هل تعاني من ضعف في الذاكرة، أو ماذا؟ بُثَّت في الساعة الثالثة تمامًا.

– إستمعتُ إلى الإذاعة في الثالثة تمامًا. كان هناك ريبورتاج.

– أمتأكّدٌ أنَّك كنتَ تستمع إلى المحطّة الصحيحة؟

بالفعل. أخطأتُ محطّة البثّ. هذه المرّة انقلب غضبي على ذاتي وضدّي. نعتُّ نفسي بالمغفّل والمتهوّر والطائش! دائمًا أبدًا أُخطئ أجمل لحظات حياتي.

في الليلة ذاتها، وبينما كنتُ في غرفتي مستغرقًا في لوم نفسي، نادتني سيرينا من الطابق الأرضي لكي أنزل على الفور. إجتزت درجات السلّم بخطوة واحدة. في الصالون بيلار وأوغوستو وابني وشقيقتي يرقصون وصخب الراديو على أقصى مداه. كاد أن يُغمى عليّ حين سمعتُ صوتي عبر الأثير.

قالت سيرينا، وهي تمسك بخصري كي أواكبها في خطوةٍ راقصة:

– طلب المستمعون إعادة بثّ الأغنية. يا له من نجاح! يا له من نصر! إنّنا جدّ فخورين بك.

شعرتُ بأنَّني أسبح في عالم سحريّ.

لا أذكر ماذا فعلتُ تلك الليلة.

راجت «دون فويغو» رواجًا ساحقًا وأصبحت الأغنية المفضَّلَة طوال الصيف. كان الراديو يبثّها كلّ يوم. رسائل التهنئة ملأت بريد هاتفي المحمول، وكانت حفلاتنا تجتذب المزيد والمزيد من الناس.

كالحارس خلف نافذتي، كنتُ أشاهد جموعَ الفلّاحين تتدفَّق إلى الساحة، فتستبدّ بي الرغبة في أن أذهبَ لملاقاتهم وأشكرهم فردًا فردًا على هذا الشرف الكبير الذي منحوني إيّاه. في منتصف

الأمسيات الساهرة، وحالما أبدأ بغناء «دون فويغو»، كان الجمهور يردّد كلماتي كجوقة واحدة متراصّة، وأنا على غرار كبار نجوم الغناء، أخفي سعادتي المكتومة خلف حَيْرَة مفتَعَلَة، أمدُّ الميكرو للحضور وأسمع مئاتِ الأصوات تتّحد بصوتي في اتّحاد شبه كونيّ.

في كازا بلانكا، كانت النسَاء يستوقِفْنَني في الشارع، والفتيان يحيّونني ويصفّقون لي، والفتيات يلتقطْنَ صورًا إلى جانبي. كان كلّ صباح يحتفي بي على طريقته. كان يحدث لي أحيانًا أن أقرص جلدي لأتأكّد من أنني واعٍ ولستُ في حلم.

في أواخر شهر سبتمبر، قادتنا جولاتنا إلى مقاطعة ماتانزاس. غنّينا في ثلاث قرى أمام حوالى الألف مستمع. عشيّة رحيلنا إلى سييناغا دي زاباتا، اقترح علينا دينامو، سائق الباص، القيام بجولة قصيرة لزيارة عمّه في مرفأ صغير من تلك المنطقة الساحلية. كانت الدرب وعرة، وقد مُنينا بانثقاب عجلتين على التوالي عند مدخل بلايا لارغا؛ ناحية جبلية موحشة تُطِلّ على بحر أزرق صافٍ. بعدما استبدلنا إطارَي الباص، تناولنا طعامًا على عجل وسطَ الطبيعة بمحاذاة أحد الحقول، ثمَّ تابعنا مسيرنا. فجأةً انتابتني رؤيةٌ خاطفة. كان الباص يمرّ وسْطَ سوق شعبية عندما خِلتُ أنَّني لمحتُها. انخلَعَ قلبي. أسرعتُ إلى مؤخرة الباص لأنظر من خلال الزجاج الخلفي، ولأتأكّد من أنني لا أرى سرابًا. لا. مؤكّد. لستُ أهلوس. إنّها هي. عرفتُ شعرها الأصهب الطويل، قدّها الميّاس المُرهَف، ومشيتها.. إنّها هي، ماينسي. صرختُ بالسائق:

– توقّف، توقّف، توقّف حالًا!

ضرب دينامو فرامل الباص ضربة قوية حتّى كاد الباص ينزلق جانبًا. هجمتُ على باب الباص وقفزت إلى الشارع، وانطلقتُ عَدْوًا إلى السوق. لقد تبخّرتْ ماينسي. لا أثر لها. كأنّما الأرض انشقّت

وابتلعتها. كان المارّة في السوق ينظرون إليّ على نحوٍ عجيب. بقيتُ واقفًا في حرّ الشمس إلى أن جاء مانولو يبحث عني:

– ما بالك يا خوان؟

أجبتُه وأنا أتّجه صوب الباص:

– لا شيء. لا شيء.

في الباص قال لي دينامو:

– لقد أرعبتَني يا خوان. ظننتُ أنّني صدمتُ أحدًا.

جلستُ مكاني شاحبَ الوجهِ معتلَّ المزاج. كانت الراقصات وباقي أعضاء الفرقة يحدِّقون بي وكأنّهم يرونني للمرّة الأولى.

أجرينا التمارين في صالة الاحتفالات الوطنية. لم يتوقف باكو عن التحديق بي. أخيرًا اقترب مني وسألني إن كنتُ بخير، فسألتُه لماذا هذا السؤال. قادني إلى الحمّام وأراني وجهي في المرآة.

– تبدو وكأنَّك خارج للتو من إضراب عن الطعام. أنت شاحب وواهن وكأنّ ثمّة من امتصّ آخر قطرة دم من شرايينك. إن كنتَ تشعر بإعياء، فلنتوقف فترة للاستراحة.

– إنّه تعب مؤقَّت. وجبة عشاء دسِمَة تُصلِح الأمر.

نصحني بأن أرتاح قليلًا في مكتب مجاور وُضِع في تصرّفنا.

كان المكان مـزوَّدًا بأريكة وستائر عند النوافذ. أخـذت زجاجة جعة واستلقَيْتُ على الأريكة ورحتُ أتأمّل سقف الغرفة، لكنني لم أستطِع أن أغفو. المشهد المشوّش الذي رأيته في بلايا لارغا احتلّ كامل أفكاري. عند هبوط الليل، دعانا باكو إلى مطعم بسيط في آخر المدينة. كانت الوجبة دسمة حقًّا، والشراب فاخرًا. أخذ تشوشو يحكي لنا مغامرات خيانته الزوجيّة الفاشلة، وبدأت أشعر بالتحسّن. ضحكنا وشربنا كالأجلاف حتّى وصول الباص. كاد فافا أن يهشمَ أنفه

وهو يتعثر بعتبة باب الباص من شدة سُكرِه. جلس باكو إلى جانبي على المقعد الخلفي للباص. أقلقه صمتي. ربَّتَ على ركبتي:

– هل أنت بخير؟

أجبتُ بإيماءة رأس.

غصَّت قاعة الاحتفال بالمستمعين. عائلات بكامل أفرادها جاءت تحضر الحفلة. الصغار يتنازعون ويتشاجرون بلا سبب. الأمهات يحاولْنَ إسكات الرضَّع بهدهدتهم أو بإرضاعهم. الرجال يتنادون وسط الضجيج، والذين تأخَّروا في الوصول يبحثون جاهدين عن مقعدٍ فارغ.

عندما انفتحت الستارة على فرقتنا الموسيقية، صدحَتْ الحناجر تهتف «دون فويغو»، «دون فويغو»... أشار لي باكو برأسه أن لا. هذه الأغنية مخصَّصة للختام. لكنَّ الجمهور أبى سماع أيَّة أغنية أخرى. شوَّش على الأغنية الافتتاحية، وأبدى استنكاره أمام الأغنية الثانية، وبدأ يحتجُّ على الثالثة. طلب فافا من الجمهور أن يهدأ، فخيَّم الصمتُ على القاعة. ما إن بدأت النقرات الأولى على القيثارة تؤدّي لحن «دون فويغو» حتّى بدأت الحناجر ترافق كلمات الأغنية. وقف الفتيان والفتيات، بحركة جماعية متناغمة، يتمايلون على وقع ألحانها. شقَّ صوتي الصخب والضوضاء، فطغى على كلّ شيء، مؤجِّجًا هستيريا الجمهور. كنتُ في المقطع الثالث من الأغنية، والعرق يقطر منّي، حين عاد الخواء التامّ يصْفر كالريح في رأسي. عادت اللمحات السريعة تتلاحق في مخيّلتي. رأيتُ الترام الأخضر، الجسم الفتّان على المقعد الخلفي، الدجاجة التي قدّمتُها أضحية على الضفّة، ماينسي وهي تخرج من موجة بيضاء كالحليب، الشعر المستعار عالقًا على الأسلاك الشائكة، رائحة الدم اللزجة الملتصقة بأنفي... ثمَّ أصوات وعبارات شتّى تواكب هذه الصور... «إستشرتُ ثلاثة كهنة قالوا

جميعًا إنَّ كانديلا غرقت في البحر.. كانديلا ماتت غرَقًا...». ماينسي وهي تُريني علامات يدها. «هافانا لم تكن وجهتي الأساسيّة. إذا عاد الأمر لي، لاخترْتُ الذهاب إلى مستنقعات زاباتا...»

المستنقعات... بلايا لارغا... شبه جزيرة زاباتا... المساحات المائية... «ماتت غرَقًا.. ماتت غرقًا...» صورة ذلك الطيْف الهارب في السوق...

سمعتُ صوتًا ينادي:

– خوان!

إنتفضتُ في مكاني.

لقد سكتت القاعة واجمةً، وعلى المسرح توقَّفت الفرقة الموسيقية عن العزف. راح العازفون والراقصات ينظرون إليَّ مذهولين. من وراء الستارة، وفي الكواليس الخلفية، كان باكو واقفًا ينظر إليّ شَزرًا بعينين تكادان تخرجان من محجرَيْهما. نهَرَني مانولو الذي كان واقفًا بالقرب منّي:

– ما بكَ؟ لماذا توقّفت عن الغناء؟ أنسيتَ كلمات الأغنية، أم ماذا؟

– هل توقّفتُ حقًّا عن الغناء؟

– عُد إلى رُشدِكَ يا رجُل! ليس هذا بالوقت المناسب لتسافر في خيالك.

عاد فافا يعزف على قيثارته، وحاولتُ أنا أن أستعيد التركيز على الإيقاع. فيما عدا الأولاد، لم يأتِ أحدٌ بحركة في القاعة. كان الجميع ينظرون إليَّ بِحيرة.

عند الفجر، استقلّيتُ سيارة أجرة وعُدتُ إلى سوق البلايا لارغا. كنتُ مُدرِكًا أنَّني هَلوَسْتُ بالأمس. لكنني أردت التأكُّد فقط. طوال الليل،

كنتُ أعاتب نفسي. لم أكن في حياتي شفّافًا هشًّا على المسرح كما كنتُ البارحة. كدتُ أُطيح بجزء كبير من سمعتي وشهرتي، ولستُ مستعِدًا بعد لأن أدفَن وأنا حيّ. أنا على استعداد تام لاستدعاء طارد أرواح إذا بقي شبح ماينسي يلاحقني وينسف أجمل اللحظات في حياتي.

جلستُ إلى طاولة على شرفة كوخ يشبه المقهى، غير بعيد عن السوق. رحْتُ أطلبُ فنجان قهوة تلو فنجان قهوة، وأقضم أظافري. الناس يروحون ويجيئون بين مناضد البضائع المنتشرة على امتداد السوق، يبتاعون حاجياتهم باطمئنان. على الشاطئ صِبْيةٌ يلهون بِكُرة القدم، وآخرون يصيحون فرحًا وهم يعومون في بحر شديد الزرقة. ثمّة أولاد يلعبون أيضًا تحت أشجار جوز الهند.

إنّه يوم صافٍ كباقي الأيام التي تُشرِق فيها الشمس على هذه الناحية الخلفية من البلاد. قرابة الظهر، بدأ الزبائن بالتناقص، والباعة بتوضيب بضائعهم ومناضدهم، واختفت السوق شيئًا فشيئًا. لم تظهر ماينسي. شعرتُ بنوع من الارتياح.

البارحة، إسم زاباتا ومساحات الماء في شبه الجزيرة، وأصداء الذكريات، وجملة هذه العوامل، لا بدّ حفّزت اللاوعي، وصورة ذلك الطيْف الهارب الذي خلتُ أنَّني لمحته، لم تكن سوى خدعة بصرية لا غير.

دفعتُ الفاتورة، وتأهّبتُ للعودة إلى سيبناغا، حينما ظهر الطَّيْف ثانية في الناحية الأخرى من السوق. كان يتّجه نزولًا صوب مجموعة من الأكواخ. الشعر الأصهب الطويل نفسه والمُرخى على الظهر، الكتفان النحيلان إياهما، الخصر الأهيف ذاته.

إختصرت الطريق عبر الحقول، صدري يعلو ويهبط، خائفًا من كلّ خطوة أخطوها. مع ذلك، كنت أُسرِع أكثر فأكثر. كان الطيْفُ

يسير بين الأشجار. حثثتُ السير كي أُمسِكَ به قبل أن يصل إلى الأكواخ.

– ماينسي...

توقَّفت المراة فجأةً، أصغت، ومن دون أن تلتفت، تابعت سَيْرَها.

– ماينسي.

هذه المرّة استدارت على عِقْبَيْها. بقِيَتْ هُنيهةً تحدّق بي وكأنّها لم تعرفني، ثمَّ فجأةً وضعت يدها على فمها، وتراجعت إلى الوراء.

– هذا أنا، خوان.

رسمَتْ علامة الصليب، كما لو أنها تتّقي شرّ مكروه.

– هل تغيّر مظهري إلى هذا الحدّ؟

كانت إمارات الخوف والحذر باديةً على وجهها.

في غمرةِ تسرُّعي، نسيْتُ أنّها تركتني ميتًا هناك على الشاطئ الموحش فى سانتافى. لعلّها اعتبرتنى روحًا غادرت قبرَها. طمأنتُها قائلًا:

– لم تصيبيني بأكثر من جروح فقط. لاحظي كيف أقِف مستقيمًا على ساقَيَّ. لم يبقَ أثرٌ من ذلك الحادث.

لم تعرف ما إن كان عليها أن تصرخ أو أن تهرب.

– كان ذلك مجرّد حادث عابر، ماينسي. قد يحدث ذلك مع أيّ كان.

حاولَتْ أن تقول شيئًا، تحرّكَتْ شفتاها، ولكنّها لم تقوَ على النطق بكلمة.

– لم أحقد عليكِ قطّ، ولا حتّى لحظة واحدة. كيف لي أن أحقد عليك، ماينسي. الخطأ ليس خطأك.

سالتْ دمعةٌ على خدّها، أو ربّما على خدّي. ما الفرق؟ بلغ إليّ صوتُها من البعيد البعيد، يدوّي فيَّ، كأنّه صدًى آتٍ من وراء القبور.

– ما كان يجدر بك المجيء.

– إنّها مجرَّد مصادفة. لم أكن أعلم بأنكِ هنا.

– لستُ في أيّ مكان.

– لا تفهميني خطأً. كنتُ مارًّا في هذه الناحية. في جولة غناء. بات لي فرقة موسيقية خاصّة. ثمّة ملحّن وضع لحنًا لقصيدتكِ «دون فويغو». لقد حطّمت الأرقام القياسيّة.

وعيتُ أنّ كلامي يسبق تفكيري، وأنّه يخرج من فمي رشقًا كرشقات بندقية حربية. كنتُ أتكلّم بسرعة، حتّى إنّ نفسي كان يضيق وأكاد أختنق.

– بحثتُ عنكِ. هل تعرفين؟

ردّتْ عليّ بصوتٍ جافّ:

– ما كان عليكَ أن تفعل ذلك.

– لذلك أهمية كبيرةٌ بالنسبة إليّ.

– لا أهميةَ لشيءٍ على الإطلاق.

ما رأيتُه في عينَيْ ماينسي بعث فيّ اليأس والقنوط. إنّها تحتمي بكلامها. سرعة البديهة والإجابة الجاهزة عندها درعٌ تتَّقي به على الدوام. كلماتُها رصاصات إنذار. كنتُ أرى خلفها ثلّةٌ من الأولاد يهبطون منحدرًا وعِرًا يُفضي مباشرةً إلى البحر. كان أكبرهم يرفع بيديه كرةً يحاول الآخرون الاستيلاء عليها. لكنّ أصواتهم كانت تخفت وتتراجع كلّما ابتعدوا أكثر، ما زاد من كَدَرِ المواجهة بيني وبين ماينسي.

حدَّقَتْ بي صامتةً، تنتظر أي كلمة أجازف بالنطق بها حتّى تفجّرها بلفظة دقيقة. رأيتُها مشدودة مضغوطة كنابض ينتظر

الانفلات. مع ذلك، فإنّ وجهها خالٍ من ايّ تعبير، وكأنّه مصنوعٌ من شمع. فجأةً تمنّيْتُ أن تبقى الأمور عند هذا الحدّ، أن أعود أدراجي، وكأنّ هذا اللقاء لم يحصل قطّ. لكنني بقيتُ مسمّرًا مكاني، مأخوذًا بالرغبة في معرفة السرّ الذي تنطوي عليه وتبذل كلّ ما في وُسعها لكتمانه. سعيْتُ جاهدًا لأتبيّن، ولو بمقدار ضئيل جدًّا، ما كنتُ أراه سابقًا في تلك الشابّة التي عشقتُها حتّى الجنون. لم أتبيّن شيئًا من شعلة الجمال تلك التي أضاءت لياليّ.

– قيل لي إنَّكِ مُتِّ.

– ومَن ليس ميتًا، بشكل أو بآخر؟

إجابات ماينسي مصوغَة على الطلب، وكأنّها إنسان آلي، بنبرة باردة، فارغة، لا طابع لها. صارمة من رأسها إلى قدمَيْها. قسمات وجهها جامدة، ونظرتها لا يمكن سبر غورها. كأنّما هي انعكاس أرضيّ لروح معذّبة معلّقةٌ في الفضاء. كدتُ أمدّ يدي إليها لأتأكّد من أنّها من طينة البشر، من لحم ودم. موقفها المتصلّب إنّما ينتصب حاجزًا، خندقًا، خواءً محرّمًا مزروعًا بالألغام.

– عندما رأيتُكِ البارحة، لم أصدِّق عينيّ. ثمَّ تذكّرتُ أنَّك كنتِ تودّين أن تعيشي وحيدة في مستنقعات زاباتا. فقلتُ في نفسي: هذه هي... أنا سعيدٌ جدًّا برؤيتك. لا يمكنك تصوُّر مبلغ سعادتي الآن، ومدى ارتياحي.

– لقد طويتُ الصفحة.

حاولتُ أن أبتسم لها. لكنَّ وجهي جَمُد.

أكّدَتْ بحزم:

– الماضي بات ورائي. كلّ الماضي. من دون أي استثناء.

– ماين...

وضعَتْ إصبعها على فمي. يدها باردة كالجليد. قاسية. لا تريد أن تسمعني. تريد أن أرحل، فحسْب. مثلما أتيت. تريد أن أُكمِل طريقي من غير عودة.

أصرَّت:

– من دون أيّ استثناء. هل فهِمْتَ الآن؟

– أظنُّ أنّني فهمْتُ.

– أنا على ما يرام الآن. لم أعُدْ مضطرّةً للتنكّر. لقد شفيتُ تمامًا.

– مسرورٌ جدًّا لأجلكِ.

– لا داعي لذلك. لستَ مَدينًا لي بأيّ شيء.

إستدارتْ ببطء على عِقبَيْها، وتوجَّهَت نحو كوخ ينتظرها عند بابه رجلٌ يرتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا داخليًّا، ويحمل رضيعًا على ذراعه. الرجل في الأربعين من العمر، ووجهه أسمر داكن أحرقته الشمس. حدَّق بي بفضول وإلحاح.

سألَها:

– من هذا يا حبيبتي؟

أجابته وهي تأخذ منه الطفل:

– لا أحد.

دخلا الكوخ، وأغلقا الباب.

لم تنظر إليّ ماينسي ولو نظرة أخيرة.

هكذا انتهت قصّتي مع ماينسي. قصّةٌ رائعة، بل أكثر روعة من أن تكون لها خواتيمها. شبيهة بالوعود التي لا تُلزِمنا بشيء، والتي لا داعي للوفاء بها. لستُ نادمًا إذ صدَّقتُها ذات يوم. أكثر الأحلام جنونًا لا يمكنه التحرُّر من عواقبه الجانبية. يجب العودة إلى أرض

الواقع والمشي حفاةً بين الأشـواك. يجب تلمُّس اللجج بعد بلوغ القمم. لستُ حزينًا، كلّ ما في الأمر أنَّني صحوت. لم أعد بحاجة إلى قرص جلدي، فألمي حادّ – ولادة جنين من الخاصرة: ها أنا أُولَد من جديد على الحقيقة.

لقد عرفتُ السعادة، الحياة، والحبّ. على غرار شهب النجوم، عرفت لحظات مجد خاطفة. بانشيتو استطاع الاستمرار بعدها. فلمَ لا أستطيع أنا أيضًا؟

خرجَتْ ماينسي من حياتي لحظةَ أدارَتْ لي ظهرَها. كأمنية تتفسّخ وتتبخّر خجلًا من تفاهتها. يستعيد الواقع حقوقه على الدوام. لا يمكن لأيّ وهم من الأوهام أن يحجبه زمنًا طويلًا.

هل يمكن أن نتصرّف وكـأنَّ شيئًا لم يحدُث؟ أظنُّ أنْ نعم. ماينسي طَوَتِ الصفحةَ. إنفصلت عن الماضي. من دون استثناء. إن كانت القطيعةُ ممكنةً، فكلّ ما عنى لنا ذات يوم لم يكن من المُطْلَق. نحن بغاية الهشاشة والضعف لننشُدَ المطلق.

ثمّة أمـور تتجاوزنا، تتعدّى قدراتنا. لا يفيدنا فى شىء أن ننقضها أو نقاومها. أمّا تعقّبُها فيودي بنا إلى الهلاك. يجب أن نُقِرَّ بانتهاء ما انتهى، ونهائيًّا، إن شئنا أن نبتدع ذاتنا من جديد في مكان آخر. كان بانشيتو يعني ما يقول. لقد استغرقتُ وقتًا طويلًا حتّى اعترفتُ له بذلك. إلّا أنَّني فهِمتُ أخيرًا. وما الحياةُ، في نهاية الأمر، سوى سلسلةٍ لا تنتهي من المِحَن والامتحانات؟ أمّا الذي ينهض من كبواته وعَثَراته، فيحظى بتقدير الآلهة واحترامهم. من سائر مصائبه على اختلاف ألوانها، يصنع قوس قُزَح. حينما اعتقدتُ أنّني استحقُّ امـرأةً فريدةً في هـذا العالَم، لم أكـن أفعل سـوى تأليفها وتلحينها على هـواي. لقد ضخَّمتُ من روعتها لأنّني أردت ان أكـون أسعد العاشقين. إلّا أنَّني لستُ سوى إنسان عاديّ بالغتُ في دقائقه، واهِمًا

بأنَّني أستطيع أن أخلق من مجرَّد قبسٍ بسيط، شمسًا بأكملها، وبأنَّني بواسطة الحبّ والعشق، سأجعل من مأوى متواضع قصرًا منيفًا.

أتخيّل ماينسي وراء باب كوخها الحقير المغلَق، فلا أرى أكثر من ظلّ قابعٍ في عتمة الزوايا. لا يتحرّك فيّ أي نبض. فأنا أيضًا قد شفيت.

لئن كان من عبرة لحكايتِي مع ماينسي، فأنا عاجزٌ عن تحديدها. القدر لا يختار إلّا المعنى الذي يلائمه. إن نحن لم نُدرك هذا المعنى، فذلك يعني أنّه لا يحسبُنا مسؤولين عمّا يحدث لنا سواء خيرًا أم شرًا. يجب التعاطي مع الأمور كما تأتينا تمامًا. هذا كلّ ما في الأمر. بقليلٍ من الحكمة، نُدرك أنَّ المصائب الكبرى لا تسحقنا بل تجعلنا أكثر قوةً.

وداعًـا، ماينسي. كم أتمنّى أن أعيد إليكِ كلّ الأفـراح التي صودِرَت منكِ، لكنَّني لا أستطيع سوى التخلّي عن تلكَ التي قدّمتِها لي. لم أعُدْ راغبًا في إرغام القدر على فعلِ ما لا يفعله، ولا السباحة عكس تيّار لا أمل لي بمقاومته. كارثة غرقُكِ ردَّتني إلى غرقي وفشلي وخيبتي وعجزي، لكنَّها أعـادت لي تصميمي على رفض السقوط حتّى القعر، والإصرار على بلوغ برّ الأمان. والآن، وقد وصلَتِ الأمورُ إلى خواتيمها، فلا يسعني إلّا أن أتمسّك بما أمكنني إنقاذه، مهما كان ضئيلًا. في المغامرة البشرية قمم جبال وقعور وديـان، لإضفاء التضاريس الجميلة على المساحة اليومية المسطّحة. فلئن كان الوجود أغنية صيفٍ لا غيْر، فإنَّ أحدًا لن يعرفَ جمال الثلج وبهاءه في الشتاء.

آمنتُ وصدّقت، أحببتُ وعشقت، ثمَّ أُسدِلَتِ الستارة. أعظمُ التضحيات، وأحقّها، هو أن نُقِرَّ بما لا نستطيع إلغاءه ومنعَه، أن نواصل حبَّنا للحياة على الرغم من كلّ شيء.

على الأرجح، لن أعود إلى سانتافي أستدعي اللحظات الرائعة التي قدّمتِها لـي، ولـن تكون لـديَّ الشجاعة كي أجلس على رمال

الشاطىء أنتظر خروجَك من بين موج البحر، ولن أصفح عن المآسي التي أفسدتكِ – والتي أكثر ما فيها من مأسوية أنّها لا تغيّر شيئًا. سأُواصِل الابتسام للصباح المشرِق، من دون أن أُدير ظهري للّيل المُطْبِق.

أمّا الآن وقد ما عدْتِ ملكي، فلن أطلبَ من السنين المقبلة الكثير. سأحاول أن أكون بسلامٍ مع نفسي ومتسامحًا مع ما يؤذيني. سأُواصِل الغناء للفلّاحين وأبناء الفلّاحين في القرى والأرياف، للناس الذين يتمسّكون بالأمل على الرغم من الشدائد والملمّات. لستُ بحاجة أن تزيِّن صورتي غلاف الأسطوانات، ولا أن يتصدَّر اسمي المُلصَقات، لكي أكون سعيدًا. يكفيني أن أُمسِك الميكرو بقبضتي لكي أمتلك العالَم.

ذاك اليوم، على طريق مليء بالحصى، يُفضي إلى حيث لا أعرف أين، بينما كنتُ أرتاح عند جذع شجرة، سمعتُ أولادًا يغنّون «دون فويغو». هل ترَيْن؟ موهبتُكِ تثأر لكِ من سوء حظّكِ. سأغنّي «دون فويغو» في كلّ أرجاء كوبا، من أجلكِ. إذا أمكَنَ أن أغادر هذه الجزيرة، فسأجعل من قصيدتِكِ هذه أغنية كلّ صيفٍ وأرى من خلال النوافذ ربّات البيوت يدندنَّ أبياتك، وأعاين الفلّاح، الجندي، سائق الشاحنات والعامل يغنّونها في جوقة واحدة للسير قُدُمًا، والكشّافة ينشدونها أيضًا لرفع معنويّاتهم، والفنّانين العباقرة الناشئين يردّدونها ما يحلو لهم لصقل مواهبهم. والحقّ، لا يمكن أن نفقد تمامًا ما امتلكناه فترةَ حلمٍ، لأنَّ الحلم يعيش بعد أن ينتهي، كما سيعيش صوتي طويلًا بعد صمتي الأبدي، طالِعًا من القرى والمزارع، لينتشر في الليل كالخير والبرَكة، إلى أن أستحيلَ نشيد فرحٍ خالدٍ لطالما تمنّيتُ أن أكونَه.

ليس لهافانا ربّ يحميها — نظام كاسترو يتقهقر، ودون فويغو لا يزال يغنّي في كباريهات هافانا. لطالما ألهب صوته الذهبيّ الجماهير وغذّى شعلة الأمل في القلوب. لكنّ كلّ شيء من حوله تغيّر. لقد آن الأوان لينحني سيّد الرومبا أمام تبدّلات الزمن...

في عزلته الباردة، يلتقي دون فويغو صهباء ساحرة دافئة كاللّهب، ماينسي اليافعة، حبّ حياته. لكنّ الغموض الذي يحيط بتلك الفاتنة يهدّد عشقهما شبه المستحيل.

الزمن... هذا ما يُغرق خضرا في تأمّله – نوستالجيا السنوات الضائعة، الشباب الهارب، الأيّام التي تمضي من غير عودة – وتعويذتنا لمواجهته: تلك البهجة حين نغنّي، حين نرقص، وحين نؤمن بسعادة ستأتي لا محال.

«ليس لهافانا ربّ يحميها» هي رحلة كلّ الرحلات إلى بلاد التناقضات والمفارقات والأحلام والوعود. هي أنشودةٌ مهداة إلى كلّ مصيرٍ واعدٍ ولو عاندته الأقدار، وإلى كلّ حبٍّ خالد ولو عاش في الذكريات.

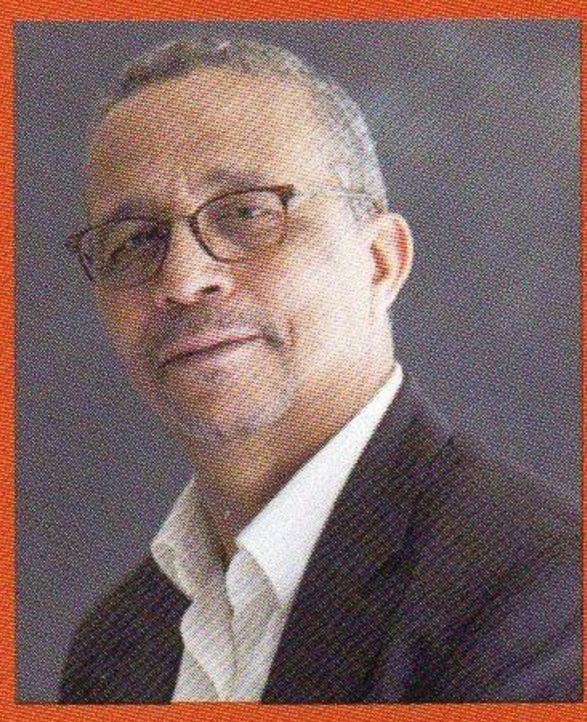
© Leonardo Cendamo/Leemage

ياسمينة خضرا — كاتب وروائي جزائري تُرجمت أعماله إلى أكثر من 42 لغة واقتُبس العديد منها للسينما والمسرح. من أبرز مؤلّفاته «سنونوات كابول» (2002)، «الصدمة» (2005)، «أشباح الجحيم» (2006)، «ما يدين به النهار للّيل» (2008) و«ليلة الريّس الأخيرة» (2015).

ISBN 978-614-438-897-6

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان A.